تاريخ المصريين ٢٢

نظرات فى تاريخ مصر

بقلم

جمال بدوى



رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفنى : محمد قطب

الغلاف : أسـامة سـعيد

نظرات في تاريخ مصر

تأليف
جمال بدوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

تقـــديم

على الرغم من اعتقادى بأن التـــاريخ لا يكتبه الا مؤرخون أكاديميون ، درسوا منهج البحث العلمى التاريخى ، وتعلموا التاريخ وفقا لمنهج علمى متخصص فى أقسام التاريخ بكليات الآداب بالجامعات ـ الا أن النصف الأخير من القرن العشرين قد أبرز الى عالم الدراسات التاريخية نخبة من الكتاب والمفكرين ، الذين لم يتخرجوا من أقسام التاريخ، ولكنهم أثبتوا قدرتهم على الكتابة التاريخية المتعمقة ، بأسلوب شيق لا يتوفر لكثير من المؤرخين الأكاديميين .

وقد كان على رأس هؤلاء الدكتور محمد حسين هيكل ، الذى قدم الى جانب عمله الصحفى والسياسى كتبه الهامـــة فى التاريخ الاسلامى ، مثل حياة محمد ، والصديق أبو بكر ، وعمر الفاروق ، وغيرها . وعباس محمود العقاد فى عبقرياته المشهورة وسفره الضخم عن سـعد زغلول ، ومحمد زكى عبد القـادر الذى كتب : «محنة الدستور فى مصر » ، وغالى شكرى ، الذى قدم عديدا من الدراسات التاريخية الهامة ، وابراهيم عامر ، الذى كتب « الأرض والفلاح » ، ورجاء النقاش الذى قدم « العقاد بين اليمين واليسار » وعبد الله امام الذى قدم دراسات هامة عن الاخوان المسلمين والحقبة الناصرية، وعلى شلش ، الذى كتب عن « اليهودية والماسونية فى مصر » ، وصلاح منتصر الذى قدم على صفحات الأهرام عديدا من الدراسات عن الفترة الناصرية ، وعادل حمودة الذى كتب عن « نهـــاية ثورة

يوليو » وغيرها ، ومحسن محمد الذى قـــدم عديدا من الدراسات التاريخية الجادة ، ومحمد حسنين هيكل الذى كتب عن « ملفات السويس » و « سنوات الغليان » ، وجمال سليم الذى كتبه عن مذبحة مجلس الشعب ، ومحمد الطويل الذى كتب عن « برلمان الثورة » و « لعبة الأمم وعبد النـــاصر » ـ وغيــر هؤلاء كثيرون لا تحضرنى أسماؤهم ·

ومن بين هؤلاء الكتاب المؤرخين جمال بدوى ، مؤلف هــذا الكتاب ، فهو صحفي وكاتب ومفكر ذو رؤية تاريخيـــة سواء فى التاريخ المصرى أو التاريخ الاسلامى ، وقد سبق له أن قدم دراسة تاريخية هامة عن « الفتنة الطائفية فى مصر » ، كما أنه يقدم أسبوعيا على صفحات جريدة « الوفد » ـ وهو مدير تحريرها ـ رؤية تاريخية لحدث من الأحداث على اتساع مساحـــــة تاريخ مصر والتـــاريخ الاسلامى ، وهى رؤية تشد اهتمام القراء لما فيها من فلسفة وفكـر وتأمل ، فضلا عما تكشفه من جوانب هامة قد لا تستطيع عين المؤرخ تبين أهميتها فى تكوين الضمير القومى ، ولكن عين المفكر وحده هى التى تدرك هذه الأهمية ، وتستطيع توظيفها فى تكوين الشخصية القومية أو الوطنية ·

ومن هنا أبرز الفروق بين ما يكتبه كاتب ومفكر مثل جمال بدوى وما يكتبه مؤرخ آكاديمى ، ففكرة توظيف الحدث التـاريخى لخدمة الحاضر والمستقبل لا تعنى المؤرخ بقدر ما يعنيه تحقيق الواقعة التاريخية واستردادها من الماضى وتقديمها للقـــارىء من نافـذته الفكرية · أما الفرق الثانى ، فهو أن المؤرخ الأكاديمى ينتقى أحداثا تاريخية مجهولة فيلقى عليها الضوء ويكشف جوانبها ، ولكن جمال بدوى ينتقى أحداثا معلومة تعرضت للدراسة من جانب المؤرخين ، فيبرز منها جوانب معينة ، ويوظف هذه الجوانب فى تكوين الوعى القومى والوطنى بما يخدم الحاضر ويبنى المستقبل · وبمعنى آخر

أنه بينما أن مهمة المؤرخ هى مهمة علمية بحتة . فان مهمة جمال بدوى هى مهمة فكرية بالدرجة الأولى ٠

ومن المحقق أن القارئ ســـوف يستمتع برؤية جمال بدوى التاريخية ، وسوف يجوب معه تاريخ مصر من أقصاه الى أدناه ، وسوف يشعر بتلك المتعة الفكرية التى توفرها تلك السياحة الواسعة الشيقة التى قام بها فى أرجاء تاريخ مصر ٠

رئيس التحرير

د٠ عبد العظيم رمضان

غرباء .. لكن أمراء

في تاريخ مصر الاسلامية أسماء لامعة لحكام غرباء وثبوا الى السلطة جهارا نهارا وأهلها صامتون مستسلمون لا يملـــكون غير الدعاء لولى الأمر بالصلاح والعز ولتأييد . عندك ـ مثلا ـ أحمد بن طولون الجندى التركستاني الذى جاء أبوه الى بغداد أسيرا فلم يلبث الابن أن شب فى حرس البلاط العباسى حيث تتهيأ الفرص أمـام هؤلاء الجند المحظوظين لحكم الولايات الاسلامية ، وكانت مصر ـ أغنى الولايات وأعرقها ـ من نصيب أحمد فاستقل بها عن دولة الخلافة وأقـام فيهـا امبراطوريـة وصلت حدودها الى الاناضول ، وهناك محمد بن طغج بن جف الاخشيد الذى ولد فى فرغانة من بلاد ما وراء النهر وسلك نفس الطريق الذى سلكه سلفه حين ألقت به الريح الى أرض الكنانة ، وعندك كافور العبد الخصى الذى تولى الوصاية على أبناء سيده الأخشيد فأطاح بهم واستبد بالأمر وأصبح ملكا مرموقا يقصده العلماء والأدباء والشعراء ومنهم « المتنبى » الذى مدحه بأجمل الأوصاف طمعا فى أن يمن عليه بحكم أحد الأقاليم المصرية فلما خاب سعيه هرب من مصر فى ليلة عيد وهو يهجـو كافورا بأقذع الشتائم ، وعندك بدر الجمالى المملوك الأرمنى الذى

استقدمه الخليفة الفاطمي المستنصر من عكا لمعالجـــة الفوضى التى عمت البلاد بسبب الصراع بين زعماء فرق الجند المرتزقة فقطـع رؤوسهم وأعاد الاستقرار والأمن الى ربوع مصر وأحاط القـاهرة بسور حجرى سميك لا تزال بقاياه ماثلة فى أبواب الفتوح والنصر وزويلة ، وترك فى مصر سلالة الوزراء العظام · وعندك شجرة الدر الجارية الحسناء التى قدمت مصر لقمـة سائغـة الى بنى جنســها المماليك ليحكموها ٢٥٠ سنة أو يزيد ·

وقائمة الحكام الغرباء الذين استولـــوا على مصر طـــويلة ومتشعبة ، وهى أشبه بسلسلة محـكمة أحـاطت برقاب المصريين وحالت بينهم وبين حكم أنفسهم · ولعل أقرب هؤلاء الحكام الغرباء الى عصرنا محمد على تاجر الدخان الألبانى الذى جاء الى مصر جنديا فى حملة عثمانية لاخراج الفرنسيين منها فوضـــع رجله فيها ولم يغادرها أبدا وأقام فيها امبراطورية وأسرة ملكية ، فأما الامبراطورية فقد اندثرت قبل ان يموت ، وأما الأسرة فقد بقيت ١٥٠ سنة حتى اطاحت بها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ·

كيف استطاع هؤلاء الأفراد المغامرون ان يحكموا بلدا قديمـا عريقا كمصر ، دون أن يكون لأهلها رأى فى هذا الحكم ؟ هذا سؤال خطير ينبغى على كل مصرى أن يفـــكر فيه جيدا وأن يبحث عن الجواب بنفســـه فى بطـون الكتب وعلى جـدران المتاحف ، لأن الجواب سيكشف له عن بعض أسرار الشخصـية المصريـة ويلقى الضوء على سلوكياتها وعاداتها وتقاليدها · وسيضع أيدينا على مفاتيح العلاقة الأزلية بين المواطن والسلطـة ونظرته الى الحكومة ، ودرجة احترامه للنظام والقانون ومغزى الأمثال الشعبية التى نحتها الوجدان المصرى من الواقع ··

وقبل أن نمضى فى رحلة البحث المضنى أرى من الأمـانة أن

أعرض عليك تحفظا يبديه بعض المؤرخين ازاء وصف أولئك الحكام بأنهم « غرباء » فهم يرفضون هذا الوصف وحجتهم فى ذلك أن هؤلاء الحكام ما وصلوا الى قمة السلطة الا فى ظل الاسلام الذى يرفض تقسيم الناس عرقيا أو قوميا أو جنسيا أو وطنيا ومن ثم فهو يفتح الباب أمام أى انسان أمين تتوافر فيه مؤهلات الحكم لكى يصل الى القمة ولو كان عبدا حبشيا .. وما يهم الاسلام هو ان يلتزم الحاكم بمبادىء العدل والاحسان والمساواة والشورى ... وبعدها يكون على الناس السمع والطاعة .. فأرجوك أن تضع هذا المفهوم فى اعتبارك وأن تبحث عن الجواب .

الصعلوكة على عرش فرعون

من كان يصدق أن ترتقى هذه « الصعلوكة » فى سلم المجد والعظمة حتى تتربع على عرش فرعون ·· ويكون لها فى تاريخ مصر والعالم الإسلامى مكان مرموق ·· ؟ فتاة جميلة أشبه بزهرة متوحشة نبتت بين الصخور فى الهضاب الآسيوية ، ثم طوحت بها الريح الى هذا البلد العجيب ـ مصر ـ الذى يحنو على كل غريب ، ويحتضن كل وافد ·· فإذا بالزهـرة البرية تثبت جـذورها فى الطين ، وتسفر عن شجرة باسقة القوام ·· تطاول السحاب ·· وتصمد للأعاصير ، ويؤول اليها زمام الأمر فى الديار المصرية فى لحظة من لحظات التاريخ الفاصلـة ·· فالصليبيون قـد احتلـوا دمياط ·· ويمموا زحفا نحو القاهرة ·· والدولـة كلها بسلطـانها وجيشها وشيوخها وشبابها تمركزت فى المنصورة استعدادا لمعركة المصير ·· وفى تلك اللحظة الحرجة مات السلطان فى معسكره ·· ولك أن تتصور وقع الخبر على المقاتلين وهم يتهيأون للزحف ·· ولكن الجارية الحسناء شجرة الدر ـ أو شجر الدر كما ورد فى بعض المصادر ـ تكتمت الخبر ·· وأدارت الأمور بكفاءة يعجز عنها الرجال ·· حتى تحقق النصر الساحق الماحق ·· واندحر الفرنسيس

وبات ملكهم ـ لويس التاسع ـ اسيرا في دار ابن لقمان تحت حراسة الطواشي صبيح .. وبذلك انفتح الباب على مصراعيه امام شجرة الدر لتجلس على عرش خوفو وتحتمس وكيلوباترا والمعز لدين الله وصلاح الدين الأيوبى ..

● كيف حدث ذلك .. ؟

وكيف استطاعت هذه المرأة باهرة الحسن أن تبلغ القمة التى قصرت دونها أعناق الرجال ، وأن تملك العرش الذى يتصارع من حوله أمراء البيت المالك الأيوبى ، وصناديد الجيش المملوكى ؟

لم تكن « شجرة الدر » تحمل في يدها سيفا ولا رمحا .. ولا تملك من ورائها جيشا يدفع بها الى القمة بقوة القهر أو بحق الفتح .. ثم انها لم تكن من سليلات البيت الأيوبى حتى تطالب بوراثة العرش .. لم تكن تملك شيئا من مسوغات التعيين فى هذا المنصب الرفيع .. فضلا عن كونها أنثى فى بلد مسلم يأبى حكم النساء .. ولكنها كانت تطوى جوانحها على ارادة حديدية تتواضع أمامها عزائم الرجال .. وتملك ذكاء خارقا ، ودهاء فائقا ، ومقدرة فذة على التدبير ، ومن يملك هذه الأسلحة فى دنيا السياسة ، لم تكن به حاجة الى تكديس السلاح أو تحريك الجيوش .. وفوق ذلك كانت تعرف كيف تتعامل مع هذا الصنف من الرجال ، وكلهم طامع فى العرش .. وكلهم يحمل فى قلبه بذرة الضعف أمام زهوة الحكم ، وبريق السلطة ، أما هى .. فكانت تتعفف وتتعزز وتتمنع .. فكانت بذلك أقوى منهم أجمعين .. حتى جاءوا اليها طائعين يحملون اليها عرش مصر على طبق من الفضة .. !!

من أين جاءت هذه الزهرة الوحشية .. ؟ كيف نبتت وترعرعت

قبل أن تحتل قلب سيدها ومولاها الملك الصالح نجم الدين أيـوب آخر الملوك الأيوبيين في مصر ؟

ان مصادر التاريخ لا تقدم لنا معلومات دقيقة عن المراحل الأولى من حياة شجرة الدر ، شأنها في ذلك شأن كل الصعاليك الذين أصبحوا من المشاهير بعد أن اجتازوا صدر الشباب ٠٠ ومتى كان التاريخ يهتم بالحشائش الطفيليـــة التى تنبت على حواف الترع وسفوح الجبال ٠٠ ؟!

وشجرة الدر واحدة من ملايين المشردين الذين هـــاموا على وجوههم في الطرقات هربـــا من زحف المغول ، فتداولتها أيـدى النخاسين يبيعونها لمن يدفع ، فلا تكاد تستقر في بلد حتى ينهار ويستسلم ٠ فالى أية شجرة انسانية تنتسب الفتـــاة ؟ لا أحـد يعرف ! فالبعض يقول انها أرمنية ٠٠ والبعض يزعم أنها تركية ٠٠ وآخرون يؤكدون انها شركسية من القوقاز ٠٠ أما هي فلا تتكلم ٠٠ ولا تفصح عن ماضيها ٠٠ ولا تكشف عن شيء من حياتها الأولى ٠٠ كأنما تريد أن تضع على الماضى ستارا كثيفا ٠٠ وازاء هذا الصمت المريب ، تطوع المؤرخون أدام الله عزهم ـ فصنعوا لها تاريخا مجيدا ـ واختلقوا شجرة عريقة الجذور ثم جعلوا منها ثمرة زكيـة لهذا المنبت الأصيل فزعموا أن أباها هو السلطان أزبك البهلوان ملك تبريز ـ من بلاد العجم ـ أما أمها فقالوا انهـا الأميرة السلجوقية الشهيرة فاطمة خاتون ٠

ويبدو أن هذا « البهلوان » كان اسما على مسمى ، فلم يكد يسمع باقتراب المغول من مملكته ، حتى ترك الجمل بما حمـل ، وتخلى عن شعبه وأسرته ، ومضى الى معسكر الأعداء ذليلا خـائرا يعمل فى ركابهم ، ويساعدهم على تدمير الممالك الاسلامية المجاورة، فلما علمت فاطمة خاتون بجريمة زوجها ، أعلنت انها طالق منه ،

وحملت طفلتها ورحلت الى بلاط السلطان جلال الدين آخر ملوك خوارزم ، وطلبت منه أن يتزوجها وأخذت تشد أزره حتى يصمد أمام جحافل المغول ، ولكن الاعصار المغولى كان أقوى من الجميع فاكتسح مملكة خوارزم ، وفر جلال الدين ليلفظ أنفاسه فى جزيرة معزولة فى بحر قزوين ، ثم لحقت به فاطمة خاتون ، أما الطفلة الصغيرة شجرة الدر فقد ضاعت فى زحام الحياة حتى التقطها النخاسون ، وظلت الأيدى تتداولها حتى وقعت فى حوزة الأمير الأيوبى المصرى نجم الدين وكان يعيش يومئذ منفيا فى حصن « كيفا » على مشارف العراق •• وما علمت انها وضعت قدميها على عتبات العز والمجد ، فلم تلبث أن صارت سيدة القصر وصاحبة الأمر والنهى ، لقد دخلت قلب سيدها الأمير ولم تخرج منه حتى النفس الأخير الذى لفظه فى المنصورة ، وما ان وارته التراب حتى جلست بعده على عرش مصر المحروسة ، وتقبل المصريون الأمر الواقع باستسلام وطواعية ، ولم تظهر عليهم بادرة تمرد أو سخط لأنهم كانو قد فقدوا القدرة على التمرد والسخط منذ حكمهم الاغراب قبل ٢٥٠٠ سنة ، ولم يشعروا بالدهشة اذ تحكمهم جارية مجهولة الهوية ولكن ـ بعد ٨٠ يوما من التسلط ـ أزيحت السلطانة عن العرش لأسباب خارجة عن ارادتها وارادة الشعب المصرى •

●●●

فى الليلة الموعودة

كان من المستحيل أن تستقر شجـــرة الدر على عرش مصر لفترة طويلة ، بالرغم من تقبل المصريين لهـذا الوضــع الشــاذ ٠٠ وبالرغم من رضاء زعماء المماليك الذين آلت اليهم مقاليد الأمور بعد خلع آخر سلاطين البيت الأيوبى الحاكم « توران شاه » وقتله فى فارسكور ٠٠ ولم يأت الرفض من جانب المحكومين ٠٠ ولا من جانب الحكام ٠٠ وانما جاء من جانب الخلافة العباسية فى بغداد ، اذ أرسل الخليفة المستعصم رسالة تقريع وتأنيب الى زعماء المماليك لأنهم ولوا عليهم امرأة ٠٠ وقال لهم اذا كان عنصر الرجال قد ندر عندكم فأبلغونا نرسل اليكم ٠٠ رجلا ٠٠ !!

وفعلت الرسالة فعلها واستجاب المماليك لتعليمات الخليفــة بالرغم من ان الخلافة كانت فى مرحلة الأفول والاحتضار ، ذلك أن قادة المماليك ــ وهم عبيد مشترون بالمــال ــ كانوا يشعرون فى أعماقهم بدناءة أصلهم وافتقارهم الى سند شرعى يخول لهم حكم مصر ، ولم يكن سكوت المصريين عن استبدادهم بالأمر دليلا على الشرعية ٠٠ كذلك فان الانتصار العظيم الذى حققوه على الصليبيين فى المنصورة لم يكن مبررا كافيا لاستيلائهم على شئون مصر ٠

وبعد مشاورات ومداولات للخروج من الورطة ، استقر رأى الحكام الجدد على تزويج السلطانة شجرة الدر من احد أركان النظام الجديد « عز الدين أيبك » فيصبح للحكم واجهة « رجالى » ترضى غرور الخلافة وتحوز بركاتها ، ومن ناحيــة أخرى يمكن الحفاظ على مكانة السيدة التى يرجع الفضــل اليها فى انتقــال السلطة من البيت الأيوبى الى بنى جنسها المغامرين القــادمين من فيافى القوقاز ٠

وقبلت شجرة الدر هذا الحل الذى يمكنها من الاستمرار فى حكم مصر من تحت ذقن زوجها ، وكان من الممكن أن تستمر اللعبة طويلا لولا أن دخلها عنصر العاطفة النســوية ، وهــو عنصر مدمر لا يقيم اعتبارا لقواعد السياسة وأصول الحكم ٠ فقد أقــدم أيبك على خطوة جــريئة حين تجــرأ على الزواج بسيدة أخرى اسمها أم على ٠٠ ولم تتخيل شجرة الدر التى ذاقت لذة الاستبداد والتفرد ـ ان تصبح « ضرة » لامرأة أخرى تشاركها قلب زوجها ، واقتنعت بأن أيبك قد خرج على أصول اللعبة المتفق عليها فحق عليه العقاب٠ وفى الليلة الموعودة مضى المسكين الى مخدع شجرة الدر حيث تقيم بالقلعة ، فاستقبلته وهى فى أبهى زينتها واظهرت له من مفاتن انوثتها ولواعج حبها ما لم يلمسه من قبل ، فلما ذهب الى الحمام وألقى بجسده فى المغطس تكالب عليه غلمان السلطانة وهم يشهرون بأيديهم القباقيب الخشبية وانهالوا على رأسه وهو يصيح بزوجته مستغيثا ٠٠ ضارعا ٠٠ ولكن صرخاته ذهبت أدراج الرياح ٠٠ ولم تجد ضراعاته صدى فى قلبها الذى قد من صخر الجبال ٠

وبعد أيام لقيت شجرة الدر حتفها بنفس السلاح الحقير الذى قتلت به زوجها ـ على يد ضرتها الست أم على ـ ثم ألقى الغلمان بجثمانها من فوق أسوار القلعة لتنهشه الكلاب والضوارى .. وبعد ثلاثة أيام تطوع بعض أهل الخير بجمع ما تبقى من رفاتها ودفنوه فى المسجد الفخم الذى أقامته لنفسها بالقرب من ضريح السيدة نفيسة .. وانتهت مأساة امرأة لم تفلح أبهة الملك وعظمة السلطان وزهوة الطغيان ، فى أن تنسيها أنها امرأة .

تحريم التجنيد

كيف سكت المصريون ــ وهم أبناء المجد القديم والحضـارة العريقة ــ على استبداد المماليك بهم ، وانفرادهم بالحكم دونهم ؟ وقد عرفنا ان المماليك كانوا صبية يباعون فى أسواق الرقيق . فأكثر الحكام الأيوبيون من شرائهم ، وجعلوهم جنودا فى الجيش . فلم يلبثوا ان قوضوا عرش سادتهم ، وأصبحـوا هم ملوك مصر وشكلت منهم أرستقراطية عسكرية تستأثر بخيرات البلاد ، ولا تترك لأصحابها غير الفتات .. !!

كيف تقبل المصريون هذا الوضع المهين واستسلموا له كأنـه قدر لا فكاك منه ؟ هذا السؤال يجب ان يطرحه كل مصرى عـلى نفسه ، ويبحث عن الجواب كى يتعلم ان التهاون فى أداء الواجب القومى لا بد أن يؤدى الى التسيب والانحلال وضياع الاستقـلال واهدار العزة الوطنية ، وليس أقدس من الدفاع عن الوطن واجبـا تبذل من أجله المهج والأرواح ، فاذا تخلى أبناء البلاد عن هذا الواجب المقدس وحمله عنهم الأغراب فقد حق لهؤلاء أن يقبضوا ثمن عرقهم ، ومن يبذل الدم من حقه ان يجنى الشهد .

ولو تتبعت تاريخ العسكرية المصرية على مدى ألفى عام أو تزيد ، فسوف تكتشف أن عبء الدفاع عن البلاد قد انتقل من كاهل ابنائها الى أيدى الأجناد الأجنبية : الاغريق والرومان والعرب والأكراد والمغاربة والسودان والترك والأرمن والشركس والبلغار ٠٠ الخ ، منهم كانت تتألف كتائب الجيش ، وفى المعارك التى تسمع عنها فى حطين والمنصورة وعين جالوت ومرج دابق والريدانية ٠٠ فاعلم ان المحاربين كانوا من خارج العائلة المصرية ، ولم يكن للمصريين فى هذه الملاحم غير المساندة المعنوية وخدمة الجيش ٠

من المسئول عن تجريد المصريين من السلاح وابعادهم عن حقل التجنيد ٠٠ ؟ ان الجواب عن هذا السؤال سيجعلنا منصفين فى تقويم تاريخنا ٠٠ وحتى لا نسرف فى تعذيب أنفسنا ، فالواقع ان عملية ابعاد المصريين عن الجيش كانت عملية مدبرة حرص حكام مصر – وكلهم من الأغراب – على ثوراتها وتنفيذها بدقة ٠ كانوا يخافون اليوم الذى يتخلى فيه الفلاح المصرى عن الفأس ويحمل السيف أو البندقية . كانوا على ثقة بأن أول عمل سيقوم به هذا الفلاح هو أن يستدير ليسدد فوهة بندقيته نحو صدور الذين أذلوه وأهانوه وسرقوا عرقه و « قطموا » وسطه من كثرة الضرائب ٠٠ « وهذا ما فعله أحمد عرابى » لذلك لم يفكروا قط فى تجنيد المصريين وفضلوا عليهم المرتزقة والصعاليك والمغامرين ٠٠ ولك ان تتصور عمق الألم النفسى الذى كان ينتاب المواطن وهو يرى نفسه محروما من شرف الدفاع عن وطنه ويبقى حبيس الحقل والمعمل والورشة ٠ مثل ربات الخدور ٠٠ !!

●●●

ولك أن تقول : ولماذا لم يتطوع المصريون لأداء واجب الدفاع عن وطنهم دون انتظار للنفير ٠ ؟ وأقول لك ان الانخراط فى سلك

الجندية لم يكن تطوعيا ، ولكن كان يخضع لأنظمة وقيود لا يتصورها العقل الحديث ، وفى العصر المملوكى كانت العسكرية حرفة لها أصول وقواعد ونظم وطقوس يخضع لها الجندى من الحياة حتى الممات ٠٠ وكان أول شروط الجندية ان يكون الجندى صبيا « مملوكا » دون الحادية عشرة ٠ ومعنى ذلك حرمان المصريين الأحرار من التجنيد لأنهم كانوا يفتقدون شرط « العبودية » الذى فصله المماليك على مقاسهم ٠٠ حتى أبناء المماليك بعد أن يتحرروا من الرق – لم يكن من حقهم دخول الجيش ، وكانوا يسمون « أولاد الناس » ويمارسون أعمالا راقية خارج النطاق العسكرى ٠

الى هذا الحد ضاقت سبل التجنيد أمام المصريين ، حتى فى الأوقات التى جفت فيها ينابيع المماليك والمرتزقة واحتاجت البلاد الى سواعد بنيها ، لم يكن الحكام يجرؤون على تجنيد المصريين ويبحثون عن البديل فى شتى الأسواق ، ويحدثنا التاريخ عن ذلك الوالى العثمانى – واسمه أويس باشا – وقد فكر يوما فى تجنيد المصريين ، فلم يكن من الجنود الانكشارية الا أن تآمروا عليه وقتلوه حتى يسدوا الباب أمام أى حاكم يفكر فى الاستعانة بالفلاح المصرى : وكان معنى عزل المصريين عن الجيش عزلهم عن شئون الحكم ٠٠ وفى خلال عشرين قرنا لم يظهر حاكم مصرى واحد !! ألم يكن بين المصريين من يصلح ليجلس على عرش مصر ؟!

انه سؤال غريب حقا ٠٠ يحتاج الى تفكير ٠٠

●●●

كداب زفة

قبيل مجيء الحملة الفرنسية ، كانت مصر تخضـــع لسيطرة زعيمين من شيوخ المنسر عكفا على مص دماء المصريين قطرة بعد قطرة حتى جفت عروقهم ، وذوى عودهم ، وانهد حيلهم ، وخربت ديارهم ، وكان المصريون يتحملون هذا البلاء بحجة أن هؤلاء المماليك يحملون عنهم عبء الدفاع العسكرى ، ويذودون عن حياض الوطن ، ويردون عنه كيد المغيرين •• الى آخرهذه الحجج الواهية التى يشيعها المؤرخون لتبرير عجز المصريين وسكوتهم عن الضيم والذل والعبودية •

كان هذان المملوكان الغاصبان ــ ابراهيم بيك ومراد بيك ــ يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء ، فهما أسدان جسوران على الشعب المصرى المسالم المستكين ، ولا يتورعان عن حرق القرى وتدمير المزروعات وهتك الأعراض وسبى النساء وسفـك الدمـــاء وتشريد الناس فى الفلوات من أجل حفنة ريالات •• ولكنهما كانا أرنبين هزيلين فى ساحة الوغى •• فما أن يبدأ وطيس القتال حتى يطلقا ساقيهما للريح ، تاركين المصريين العزل كالأيتام على مائدة اللئام •• فاذا زال الخطر ، وانقشع العدو •• عاد المماليك ليستأنفوا

مظالمهم وجبروتهم بعد أن يقسموا باغلظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولى ·· والمؤسف ان المصريين كانوا يصدقونهم فيسلمون اليهم رقابهم مرة أخرى !!!

كان ابراهيم بيك أكثرهما دهاء ومـــكرا ، ولذلك لم يورط نفسه في معركة غير محسوبة ، أما مراد بيك فكان كما وصفـــه الجبرتى « يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهـــور والطيش والتورط في الاقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر فى حرب باشرها أبدا على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور » ·

ولقد دلت جميع الأحداث على أن هذا الأمير المتسلط كـان مغرورا الى حد البلاهة ·· (همباكا) الى درجة العبط ·· (جعجاعا) فى تقدير بطولته وقدرته على سحق الألوف بضربة واحدة منسيفه، فاذا حانت ساعة الجد واستشعر العين الحمراء فى خصمه ولى مدبرا ولا يعقب ولا يكف عن الجرى حتى يطمئن على أنه لا يزال حيا ·· ولذلك تشاءم المصريون عندما علموا أنه سوف يتصدى لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه على القاهرة قادما من الاسكندرية ، لأنهم كانوا يعرفون أن قائدهم (كداب زفة) ولن يصمد طويلا فى المعركة ·· وكان مراد بيك قد صرح قبل خروجه الى المعمعة بان الفرنسيين مثل حبات الفستق ·· لا يصلحون الا للكسر والأكل ·

●●●

وصدق المصريون فى حدسهم ·· وكانت معركة امبابة مهزلة انكسرت لها نفوسهم وكرامتهم ·· وكانت الجموع الغفيرة من أهل القاهرة تقف على ساحل بولاق خلف الجناح الآخـــر من فرسان المماليك بقيادة ابراهيم بك ·· ووقف الجميع يرقبون تطور المعارك

على الضفة الغربية للنيل ، وسجل مؤرخنا الجليل عبد الرحمن الجبرتى وقائع الهزيمة فى هذا التقرير الموجز :

فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر المحرم ١٢١٣ هـ التقى العسكر المصرى مع الفرنسيس فلم تكن الا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ، ولم يقع قتال صحيح انما هى مناوشة من طلائع العسكريين بحيث لم يقتل الا القليل من الفريقين ، واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية ، وعلقت نار بالقلع وسقط منها نار الى البارود فاشتعلت جميعها بالنار واحترق المركب بما فيه من المحاربين وتطايروا فى الهواء ، فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزما وترك الاثقال والمدافع وتبعته عساكره ، ونزلت المشاة فى المراكب ورجعوا طالبين مصر ووصلت الأخبار بذلك الى مصر فاشتد انزعاج الناس ، وركب ابراهيم بك الى ساحل بولاق وحضر الباشا (الوالى العثمانى) والعلماء ورؤوس الناس واعملوا رأيهم فى هذا الحادث العظيم فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق الى شبرا ٠٠ وفى يوم الاثنين حضر مراد بك الى بر امبابة وشرع فى عمل المتاريس وأحضر المراكب الكبار والغلايين التى أنشأها بالجيزة وأوقفها على ساحل امبابة وشحنها بالعساكر والمدافع فصار البر الشرقى والغربى مملوءين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة ٠ وفى يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق ، وصعد السيد عمر أفندى مكرم الى القلعة فأنزل منها بيرقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور ، وأما مصر (القاهرة) فكانت خالية الطرق لا تجد بها أحدا سوى النساء والأطفال وضعفاء الرجال ، والأسواق مقفرة ، وكثرت الاشاعات

بقرب وصول الفرنسيس الى مصر ، وتختلف الناس فى الجهة التى يقصدون المجيء منها وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم بالقتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم الى فناء مصر ، بل كل من ابراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل . وهذا من سوء التدبير واهمال أمر العدو .

ولما كان يوم الجمعة وصل الفرنسيس الى الجسر الأسود ، وأصبح السبت فوصلوا الى أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين ، ولكن الاجناد (المماليك) متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى رئيسهم محتقرون شأن عدوهم ، ولما كان وقت القائلة ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا ناحية بشتيل فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم بالخيول ، فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة ، ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع ، فلما سمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العامة والغوغاء بالصياح يارب ويالطيف ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم. فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويقولون لهم ان الرسول والصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح .

أما طابور الفرنسيس الذى تقدم لقتال مراد بك ، فقد انقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب ، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح ، وانعقد الغبار ، وأظلمت الدنيا من دخـــان البارود وغبار الرياح ، وصمت الاسماع من توالى الضرب بحيث خيل للناس ان الأرض تزلزلت والسماء سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة

أرباع ساعة ، ثم كانت الهزيمة على المعسكر الغربي (جيش مراد بك) فغرق الكثير من الخيالة في البحر (النيل) والبعض وقع أسيرا في أيدي الفرنسيس ، وملكوا المتاريس ، وفر مراد بك ومن معه الى الجيزة فصعد الى قصره وقضى بعض أشغاله في نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب الى الجهة القبلية (الصعيد) وبقيت القتلى والثياب والأسلحة ملقاة على أرض أمبابة تحت الأرجل .. » .

هذا هو كذاب الزفة الذى فر كالفار المذعور أمام جحافـــل الفرنسيس بينما كان يمارس دور الغضنفر على الشعب المغلوب على أمره .

الشيخ نابليون

لم تكن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م تحمل الصبغة الصليبية التى كانت للحملات السابقة التى اجتاحت الشرق الاسلامى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . بل يمكن وصف حملة نابليون بأنها كانت (لا دينية) اذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع الذى قاد الحملة الصليبية السابعة واحتل دمياط ثم أسره المصريون فى المنصورة عام ١٢٥٠ م وبعدها رفعته الكنيسة الى مرتبة القديسين مكافأة له على نضاله المستميت ضد العالم الاسلامى ، وكانت الظروف الدينية والمنطلقات العدائية التى تحركت منها الحملات القديمة تختلف عن الظروف السياسية والتقلبات الأوروبية التى كانت وراء حملة بونابرت .

لقد جاء نابليون الى مصر باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين والتى ثارت فى وجه الكنيسة ورجالها بنفس العنف الذى واجهت به طبقه النبلاء والاقطاع . بل لم تتورع جيوش الثورة عن مهاجمة البابا ـ رأس الكنيسة الكاثوليكية ـ فى عقر داره ، واغتصاب اجزاء من ممتلكاته لاقامة أول جمهورية حديثة فى الأراضى الايطالية على مبادىء الثورة . وظن نابليون أن رصيده العدائى

للكنيسة ورجالها سيكون مدخلا الى قلوب المصريين ، وكسب ولائهم، وشراء سكوتهم على احتلال أراضيهم ، وحرص نابليون ـ وهـو يخاطب المصريين ويلعب بعواطفهم الدينية ـ على أن يبدو أمامهم فى صورة المنتقم الجبار الذى قام بتخريب كرسى البابوية واهانة صاحبه « الذى كان يحض النصارى على محاربة المسلمين .. » ظنا منه بأن ذلك يرضى المصريين ثم يمضى نابليون فى استخفافه بعقولهم فيقول لهم ان الفرنسيين مسلمون مخلصـون وانـه شخصيا يعبد الله سبحانه وتعالى ويحترم نبيه والقرآن العظيم .. !!

ونحن نعلم الظروف الداخلية التى دفعت بحكومة الادارة فى فرنسا الى ايفاد نابليون الى مصر على رأس حملته المشهورة ، كوسيلة عملية لابعاده عن مسرح الأحداث بعد أن بدأ نجمه فى الصعود، وأصبح فارس الحلبة المرشح لاعتلاء عرش الدماء بعد أن أكلت الصراعات الدموية وحملات التصفية الارهابية قادة الثورة الأوائل ، وكـان نابليون ـ المغامر الطموح ـ يعلم ان الثمرة لم تنضج تماما لتسقط فى حجره سهلة سائغة ، ومن ثم قبل التكليف استجابة لأمر حكومة الادارة فى الظاهر ، وتلبية لنداء غامض كان يهتف فى باطنه لاقامة امبراطورية شرقية المظهر أوروبية الجوهر ، على غرار الامبراطورية الهللينية العظمى التى اقامها الاسكندر الأكبر على أساس التعاليم الفلسفية التى خلفها آباء الفكر الاغريقى .

جاء المغامر الكورسيكى الى مصر وهو يحمل فى صدره طموحات هائلة وآمالا عريضة فى بناء دولة كبرى تتنفس سحـر الشرق وعبوقه ، وتنبض بتعاليم الثورة الفرنسية ، ولم يكن هناك ـ غير مصر ـ بموقعها الفريد بين القارات الثلاث ، تصلح لتحقيق الدولة الحلم ، والانطلاق منها الى الهنـد ليحطم كبريـاء الامبراطورية البريطانية التى استعصت عليه فى مكمنها المنعزل فى الجزر .. فلا بأس من ان يصيبها فى درتها الغالية .. الهند .

وكانت غاية آمال نابليون ان يتم له الاستيلاء على مصر فى صمت وهدوء ودون اللجوء الى ارتكاب فظائع دموية تفسد العلاقات الودية المرجوة بينه وبين الشعب المصرى ، فكان حريصا على كسب عواطف المصريين والادعاء بانه مسلم غيور ، فيحضر احتفالاتهم الدينية ، ويرتدى الجبة والقفطان والعمامة ، ويتزلف الى علمائهم ، وقد تعجب اذا قرأت المنشور الأول الذى وزعه على أهل مصر واستفتحه (باسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه) ٠٠ « ويا أيها المصريون قد قيل لكم اننى ما نزلت أرضكم الا بقصد ازالة دينكم ٠٠ فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ٠٠ ويا أيها العلماء والفضلاء والمشايخ والقضاة والأئمة واعيان البلد قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا فى روما وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين » ٠٠ وفى ختام منشوره يعلن بونابرت الى المشايخ والعلماء « انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهالى البلد ان يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغى عليهم أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال : أدام الله اجلال السلطان العثمانى ٠٠ أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى ٠٠ لعن الله المماليك ٠٠ وأصلح حال الأمة المصرية » ٠

فهل أتى هذا المنشور البليغ ثمرته ؟ وهل أفلح فى اقناع المصريين بوداعة نابليون وحبه للاسلام ؟ ان مجرى الأحداث يكشف لنا فى صراحة ووضوح عن عدم قبول الشعب المصرى لكل الادعاءات

الكاذبة التى حاول نابليون عن طريقها أن يضحـــك على عقــول المصريين ، وجاءت الثورتان اللتان قام بهما المصريون أصدق دليل على رفضهم للوجود الفرنسى ، وعدم تصديقهم لمزاعم نابليون بأن الفرنسيس (يحبون المسلمين) ويعبر مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أصدق تعبير عن تشكك المصريين فى الأفكار والوعود التى اذاعها بونابت بالرغم من تملقه للاســـلام ، وطعنه فى الكنيســة الكاثوليكية والتطاول على رئيسها ، ويعزو المؤرخ الكبير صــلاح العقاد الرفض المصرى الى أن القضية فى نظر المصريين لم تكن مجرد موقف ديني أو لا ديني ٠٠ بل ان الاختلاف فى التراث الحضارى والعادات والتقاليد جعل من المستحيل على المصريين ان يصدقوا دجل نابليون ٠٠ والحجة التى احتج بها بأنه حارب البابا وأطاح بهيبة الكنيسة ٠٠ ما كان من شأنها أن تؤثر فى مجتمع متدين كالمجتمع المصرى يفضل لنابليون ان يكون منتميا الى دين ٠٠ وليس خارجا على الدين ٠

ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضـــباط الذين صحبوه فى حملته كانوا يعلمون مدى كذبه ٠٠ وكانوا يسخرون منه وهو عاكف على ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به الى المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية ، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحرى (جوبير) الى وزير بحرية فرنسا والتى يقول فيها : لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرأون هذا المنشور الاسلامى الذى وضعه قائدنا الأعلى ٠٠ ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور ٠٠

بل ان نابليون نفسه اعترف فى أخريات أيامه بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل ٠٠ (ولكنه دجل من أعلى طراز) ٠٠ وعندما

كان يجتر ذكرياته وهو سجين فى ســـانت هيلانة اعترف لأحد أخصائه بما فعل ، وبرر سلوكه بأن «على الانسان ان يصطنع الدجل فى هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد الى النجاح .

وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب .. ولا يدركون الحقيقة الا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتون كمدا .

عمدة الاسكندرية

قبل ٢٤ ساعة من وصول نابليون بونابرت الى مياه الاسكندرية، كان الاسطول الانجليزى بقيادة الاميرال نيلسون قد وقف قبالة الساحل السكندرى يتحسس اخبار الاسطول الفرنسى الذى غادر بلاده تحت جنح الظلام الى جهة غير معلومة ، وكانت البوارج الانجليزية قد خرجت تتعقب غريمها اللدود لتغرقه فى مياه البحر الأبيض المتوسط . وكان مشهد المطاردة يبلغ فى بعض الأوقات درجة الاثارة عندما كانت المسافة بين الأسطولين لا تتجاوز مدى البصر ، وشاء القدر للأسطول الفرنسى أن يفلت من المطاردة فى عرض البحر لتكون نهايته المأساوية فى خليج أبو قير .

وكانت أنباء الحملة الفرنسية قد وصلت الى الاسكندرية عن طريق بعض القباطنة الذين شاهدوا مراكب نابليون فى مالطة ، وعلموا من بحارتها ان محطتهم الأخيرة فى الاسكندرية .. عندئذ ثارت خواطر أهل الثغر ، وبدأوا يستعدون لملاقاة الفرنجة ، وينفضون عن أنفسهم غبار الكسل الذى تراكم عليهم سنوات طويلة صدئت خلالها بنادقهم ، وشاخت مدافعهم ، وتهدمت الطوابى والأسوار من طول الرقاد .

وبهذه الروح المتوترة ، استقبل السيد محمد كريم عمدة الاسكندرية ، وفد الأسطول الانجليزى الذى هبط الى الساحل ليحذر أهلها من مداهمة نابليون لهم ، وعرض على العمدة أن يسمح لهم بالبقاء فى البحر للدفاع عن المدينة على أن يبيع لهم الماء والزاد بثمنه ، ولكن العمدة الغيور رفض العرض ، وقال للانجليز : هذه بلاد السلطان ٠٠ ولن نسمح للفرنسيين ولا لغيرهم باحتلالها ٠

ولم يشأ الانجليز ان يطول الجدل بينهم وبين حاكم الاسكندرية ، فقد كان همهم الأكبر تعقب أسطول نابليون ، فغادروا المياه المصرية فى اتجاه السواحل الفلسطينية يوم ٢٩ يونية ١٧٩٨ ، وفى اليوم التالى مباشرة كانت السفن الفرنسية تحط رجالها فى مياه الاسكندرية ، واقتربت احدى السفن من الشاطىء لتحمل قنصل فرنسا الذى أبلغ نابليون بما كان من أمر الأسطول الانجليزى مع عمدة الاسكندرية ، وقدم اليه تقريرا عن حالة الهياج التى عمت الأهالى منذ علموا باقتراب الحملة الفرنسية ، وكيف ان أهل المدينة والعربان يحملون السلاح دفاعا عنها ٠٠ وسارع السيد محمد كريم الى ابلاغ حكام القاهرة ــ مراد بك وابراهيم بك ــ بنبأ القوات الفرنسية التى نزلت على الساحل فى اتجاه العجمى ، طالبا أقصى ما يمكن من النجدة لمواجهة الأعداء ، ولكن الأمراء المماليك الذين بعد العهد بينهم وبين المعارك ، جعلوا اصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، ولم يردوا على استغاثات حاكم الاسكندرية وتركوه مع أهلها يواجهون البوارج والمدافع الحديثة بأسلحة هزيلة ، وضرب أهل الثغر أروع أمثلة البطولة وهم يحاربون الغزاة من بيت لبيت ، حتى أذلوا كبرياء العسكرية الأوروبية الصاعدة ، وبلغت المقاومة الوطنية عنفوانها عندما حاول نابليون أن يقتحم شوارع المدينة فأصابته رصاصة قاتلة افلت منها بأعجوبة ، فلجأ الى حارة ضيقة لا تكاد تتسع لشخصين يمران جنبا لجنب ، وكان يرافقه سكرتيره (بوريين) الذى يصف

هذا المشهد العصيب قائلا : وانهالت علينا طلقات الرصاص من احدى نوافذ البيوت ، فتقدم الحرس واقتحموا البيت فوجدوا رجلا وامرأة قابعين خلف النافذة وهما مستمران فى اطلاق النار فقتلهما الحرس ٠

أما عمدة المدينة السيد محمد كريم ، فقد ظل معتصما بقلعة قايتباى على رأس فريق من المقاتلين الشجعان حتى كلت قواهم ، ونفدت ذخيرتهم ، ورأى العمدة أن المقاومة أصبحت غير مجدية ، فكف عن القتال وسلم القلعة ، فكانت بسالته مثار اعجاب نابليون . فتلقاه لقاء كريما ، وأبقاه فى منصبه حاكما على الاسكندرية على أمل أن يتعاون مع قوات الاحتلال ، ولكن آماله فيه خابت ، بعد أن رفض ارغام أهل الثغر على دفع قرض اجبارى لسلطات الاحتلال ، فأسرها الجنرال كليبر ــ حاكم الثغر العسكرى ــ فى نفسه ، وانتهز فرصة قيام أهالى البحيرة بصد كتيبة فرنسية ، واتهم السيد محمد كريم بتحريضهم ، ثم ألقى القبض عليه وأودعه سفينة القيادة (لوريان) وبعث الى نابليون فى القاهرة يخبره بما فعل ، فبارك نابليون تصرف كليبر ، خصوصا وقد عثر فى قصر مراد بك ــ المملوك الهارب ــ على الرسائل التى كان حاكم الاسكندرية قد كتبها ليستنهض همم الحكام على صد الفرنسيين ، وطلب منه أن يرسل اليه الرجل مقيدا فى اغلاله ، وغادر محمد كريم سفينة الاسطول فى مركب صغير أقله الى رشيد ومنها الى القاهرة ، وفى اليوم التالى مباشرة غرق الأسطول الفرنسى فى مياه أبو قير بفعل الحمم التى صبها عليه أسطول نيلسون ، وكأنما شاء القدر لحاكم الاسكندرية أن يفلت من مذبحة الأسطول ليلقى مصيره فى مذبحة أخرى أعدها له نابليون عقابا له على شجاعته وصلابته ورفضه التعاون مع الاحتلال ٠

وأعدت للبطل محمد كريم محاكمة صورية انتهت بصدور الحكم

عليه بالاعدام رميا بالرصاص ، وصدق نابليون على الحكم ، ولكنه كتب له تذييلا قال فيه : يمكن للرجل ان يفتدى نفسه اذا دفع مبلغ ثلاثين ألف ريال خلال أربع وعشرين ساعة ٠٠ (!!) مما يكشف عن حالة الافلاس التى اعترت الحملة الفرنسية بعد غرق الأسطول ، ودفعت نابليون الى البحث عن المال بأى ثمن وبأى وسيلة ٠ وكان المشاع عن السيد محمد كريم انه يختزن ثروة طائلة من الذهب فى صفائح مدفونة تحت الأرض ، وظن نابليون ان الرجل سيهرع الى شراء حياته بالذهب ٠٠ ولكن خاب فأله ٠٠ وأظهر السيد محمد كريم تعففا عن المساومة على حياته ، وأظهر جلدا وشجاعة عندما سمع الحكم عليه بالاعدام ، ويروى المسيو (بوريين) الذى شهد المحاكمة ان المستشرق الفرنسى (فانتور) الذى تولى الترجمة ٠٠ نصح محمد كريم بأن يفتدى حياته بدفع الغرامة ، فما كان من الرجل الا ان قال قولا يكشف عن عمق ايمانه : « اذا كان مقدورا على ان أموت فلن يعصمنى من الموت ان أدفع هذا المبلغ ٠٠ واذا كان مقدورا لى الحياة فعلام أدفعه ؟! » وظل الرجل على اصراره الى أن نفذ فيه الاعدام رميا بالرصاص فى ميدان الرميلة يوم ٦ سبتمبر ١٧٩٨ ٠

وقد روى الجبرتى رواية غريبة عن السيد محمد كريم فقال انه بعد سماعه الحكم أرسل الى المشايخ والتجار فحضر اليه بعضهم فترجاهم واستغاث بهم لكى يجمعوا لـه الفـدية وصـار يقول : « اشترونى يا مسلمين ، ولكنهم لم يغيثوه ، فقد كان كل انسان مشغولا بنفسه » ٠

ورواية الجبرتى عن مسلك السيد محمـد كريم تختلف عن رواية المؤرخين الفرنسيين التى يرجحها الرافعى على رواية الجبرتى، لأن رواية الجبرتى لو كانت صحيحة لما فات الفرنسيين أن يذكروها، ولما ذكروا رواية تشرف خصما لهم حكموا باعدامه ، هذا من جهة ،

ومن جهة أخرى فان رواية (بورييني) رواية شاهد عيان ، ولم يكن الجبرتي شاهدا لهذه المحاكمة ، بل يغلب على الظن انه كان منزويا في بيته بالصناديقية في ذلك اليوم العصيب .

الشيخ صادومة

عاش المجتمع المصرى أواخر العصر العثمانى المملـــوكى أسوأ فترات حياته الثقافية والعقلية ، فقد انحطت الأخلاق ، واندثرت العلوم ، وفشا الجهل ، وسادت الخرافات والخزعبـــلات ، وخيم الركود على العقول والافهام ، وفقد العلماء روح الابتكار والتجديد ؛ وتجمدوا فى اطار التقليد والنقل عن الأسلاف ، وانطفأت الجذوة الخلاقة التى دفعت المسلمين الأوائل الى ارتياد آفاق العلوم واكتشاف أسرار الكون ، واقتصر الانتاج العقلى على القشور ، والاغراق فى التنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر والشعوذة ، حـــدث هذا فى الوقت الذى قطعت فيه الشعوب الأوروبية شوطـا بعيدا فى مجال الصحوة العقلية والثقافية والعلمية منذ عصر النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر الى عصر الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وشهدت هذه القرون الأربعة حركة احياء الحضارة الانسانية العالمية بقدر ما كانت ديجورا حالكا للشعـوب الشرقية ، فعاشت بمعزل عن تيار النهضة ، حتى فاجأتهم حملة نابليون وهم رقـود فأيقظتهم من سباتهم ، ونقلتهم من ظلام العصور الوسطى الى عتبات العصر الحديث .

وكان حظ المصريين من ركام الجهل والتخلف ٠٠ فادحا ، فقد سيطرت عليهم عصبة من الآفاقين والمشعوذين راحوا ينفثون سمومهم ويتحكمون في مصيرهم عن طريق الخرافات ، والشعب يبتلع هذه السموم ويصدقها ويظنها من الدين بعد أن فقد القدرة على التمييز بين الحق والضلال ، وحدث ان أشاع هؤلاء المبطلون انهم توصلوا عن طريق التنجيم الى معرفة موعد قيام القيامة ، وبلغ من فجورهم ان حددوا موعدها « بعد يومين » وصدق الناس الفرية ، وأخذوا يتهيأون لاستقبال القيامة حسب مواقفهم الخلقية ، فالصالحون منهم انكبوا على العبادة والتوبة والابتهال ، والفاسقون انغمسوا في العبث والمجون ليستمتعوا بالساعات القليلة المتبقية لهم في هذه الدنيا الفانية ٠٠ فلما مر الموعد المحدد دون أن يتحقق زيفهم ، راحوا يزعمون ان كبار الأولياء تشفعوا عند الله ليؤجل القيامة ٠٠ وقبل الله شفاعتهم ٠٠ !!

ويحكي الجبرتي هذه الواقعة تحت عنوان (من الحوادث الغريبة) : ففي يوم الاربعاء رابع عشر ذى الحجة عام ١١٤٧) أشيع في الناس بمصر بأن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشر ذى الحجة وفشا هذا الكلام في الناس قاطبة حتى في القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضا ويقول الانسان لرفيقه : بقي من عمرنا يومان ، وخرج الكثير من الناس والمخاليع الى الغيطان والمتنزهات ، ويقول بعضهم لبعض : دعونا نعمل حظا ونودع الدنيا قبل ان تقوم القيامة ، وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا ٠٠ وصاروا يغتسلون في البحر (النيل) ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم ٠ ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلي ، واعتقدوا ذلك ، ووقع صدقه في نفوسهم ، ومن قال خلاف ذلك أو قال : هذا كذب ! لا يلتفتون لقوله ، ويقولون : هذا صحيح ٠٠ وقاله فلان اليهودي وفلان القبطي وهما يعرفان في الجفور والزايرجات (التنجيم)

ولا يكذبان في شيء يقولانه ، وقد أخبر فلان منهم على خروج الريح الذي خرج في يوم كذا ، وفلان ذهب الى الأمير الفلاني وأخبره بذلك ، وقال له أحبسني الى يوم الجمعة ، وان لم تقم القيامة فاقتلني ونحو ذلك من وساوسهم ، وكثر فيهم الهرج والمرج الى يوم الجمعة المعين المذكور ، فلم يقع شيء ، وأصبح يوم السبت ، فانتقلوا يقولون : فلان العالم قال : ان سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعي تشفعوا في ذلك وقبل الله شفاعتهم ، فيقول الآخر : اللهم انفعنا بهم فاننا يا أخى لم نشبع من الدنيا ‥ وشارعون نعمل حظا ‥ ونحو ذلك من الهذيانات ‥

●●●

ولم يرد اسما البدوى والدسوقي في هذه الخرافة عفوا ‥ وانما جاءوا بقصد التلاعب بعقول الناس وعواطفهم ، وايهامهم بسطوة الأولياء وقدرتهم على التحكم في مصير الكون والتدخل لتأجيل القيامة !! فما بالك بمصائر الغلابة من بنى البشر الذين يتطلعون في كل لحظة الى قوة قاهرة تخلصهم من الضنك والفاقة وجور النظام الحاكم ، وكانت خيوط هذه القوة المزعومة فى أيدى الأفاقين من ادعياء التصوف الذين لبسوا المسوح والخرق ، وتظاهرا بالتقشف والزهد وساروا فى الأسواق يهذون بعبارات غامضة يعجز العقل السليم عن فهمها ويزعمون انها من الأسرار الخاصة بأهل الوجد والوصول ، وفى هذ المناخ المسموم راجت البدع والأباطيل تحت اسم الكرامات ، فلا يمر يوم دون ان يسمع أهل القاهرة عن ولى طار بلا جناحين أو شيخ طاف حول العالم فى غمضة عين ، وبلغ من سفه هؤلاء المشعوذين انهم نسبوا الى بعض الأولياء انهم يطلعون على اللوح المحفوظ ، ويحكى الجبرتى عن احدهم وهو الشيخ محمود الكردى الخلوتى انه « كان كثير المرأى لرسول الله صلى الله عليه

وسلم ، قل ما تمر به ليلة الا ويراه فيها ، وكثيرا ما يرى رب العزة في المنام ، ورآه مرة يقول له : يا محمود انى أحبك وأحب من يحبك ، فكان رضى الله عنه يقول : « من أحبنى دخل الجنة » .

واذا كان الجبرتى العالم المتدين الذى ولد فى أحضان التصوف يبدو مباركا ومصدقا لكرامات الأولياء ، الا انه اتخذ موقف الاستنكار للمنحرفين الذين تاجروا بالتصوف وخرجوا به من دائرة السلوك القويم الى مجال الدروشة والعبث والمجون ، وقدم لنا صورا وصفية ساخرة لهؤلاء البهلوانات الذين كانوا يسيرون فى شوارع القاهرة وهم عرايا وخلفهم جموع من الصبية والحرافيش والزعر وهم يحاولون الاقتداء بحركاتهم من حيث انتزاع الملابس و « التحنجل » فى المشى ، والهذيان بفاحش القول . والمؤسف ان هؤلاء الأدعياء نجحوا فى السيطرة على عقول العوام ، بل ان تأثيرهم امتد الى بعض العلماء .

ويقدم لنا الجبرتى نموذجا لهؤلاء المفسدين ممثلا فى الشيخ أحمد صادومة « وكان رجلا مسنا ذا شيبة وهيبة ، وأصله من سمنود ، وله شهرة عظيمة وباع طويل فى الروحانيات وتحريك الجمادات وكشف الحجب ومخاطبة الجن مشافهة ويظهر لهم بالعيان » وكان من أكبر اتباعه الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى افتاء الشافعية فأخذ يزعم ان الشيخ صادومة من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات .. وراح يروج له عند الأمراء والحكام .. ومع ذلك جاءت نهاية الشيخ صادومة على يد أحد هؤلاء الأمراء .. وهو الأمير يوسف بك الكبير ، فقد كان من أشد الناقمين على أصحاب البدع والأباطيل ، وحدث ان اختلى هذا الأمير باحدى جواريه فاكتشف وجود كتابة على مكمن العفة من جسمها ، فأصابه الذهول ، فلما سألها عن ذلك وهددها بالقتل ... اعترفت له بأن احدى السيدات

ذهبت بها الى الشيخ صادومة فكتب لها هذه الكلمات ليحببها الى سيدها !! فما كان من الأمير الا أن ارتدى ملابسه وهو يشتعل غيظا ومضى من فوره الى بيت الشيخ صادومة ومازال يضربه حتى مات .. ثم أخذ في تفتيش منزله وأخرج منه أدوات السحر والدجل ومن بينها تماثيل مخزية وهو يصيح في الناس الذين تجمعوا .. ويقول لهم : انظروا أفاعيل المشايخ .. !!

●●●

مؤرخ الشعب

لم يكن عبد الرحمن الجبرتى مؤرخا حكوميا يكتب ما يرضى الحاكم ، ولكنه كان مؤرخا شعبيا من الطراز الأول يسجل ما يراه فى أمانة ودقة ، دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفا من سخطها ، ومثل هذا المسلك الأخلاقى لم يكن مما يعجب الحكام ، لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات ، ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجدا ، ومن سوءاته عزا .. فان لم يفعلوا سخط عليهم وعصف بهم .. وهذا ما فعله محمد على الكبير عندما نمى الى علمه ما كتبه الجبرتى عنه فى صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدى الناس ، فلم يرحم شيخوخته .. وأوعز الى اعوانه فاغتلوا ابنه (خليل) أثناء سيره فى شارع شبرا ، وارتاع الرجل وهو يتلقى جثمان ابنه الصريع .. وفهم بذكائه دوافع الجريمة ، فامتلأت نفسه هما وكمدا،وظل البقية الباقية من أيامه يبكى ابنه حتى ابيضت عيناه من الحزن ، فكف بصره كما كفت يده عن الكتابة الى أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزينا مكلوما عام ١٨٢٥ .

لقد عاصر الجبرتي صعود نجم محمد علي خطوة بخطوة ٠٠ رآه جنديا مغمورا يغشى مجالس العلماء ٠٠ يتملق مشايخ الأزهر ويصانعهم ٠٠ ويتظاهر بالتقوى والورع ٠٠ ثم يتقرب من زعيم شعب القاهرة الطيب العفيف عمر مكرم ٠٠ ويقسم أمامه بأغلظ الايمان أن يكون العادل الشفوق اذا آل اليه أمر مصر ، ثم رآه وهو يتلقى الأمانة من اربابها ويتربع على عرش البلاد بارادة أبنائها ومشايخها وأولى الأمر فيها ، ثم رآه مرة ثالثة وهو يتنكر لايمانه وعهوده ومواثيقه ويتحول من حمل وديع الى نمر هصور يبطش بكل الذين أعانوه ، فأمر بنفي عمر مكرم الى دمياط وأوعز بقتل حجاج الخضرى الزعيم الشعبى الذى قاد شعب القاهرة ليهتف باسم محمد علي فى القلعة حتى خلصت له مصر من دون الآخرين ، ثم رآه مرة رابعة وقد أصبح الحاكم الفرد الذى لا ينازعه فى سلطانه أحد ، ولا يشاركه فى حكمه مشارك ، وباتت مصر المحروسة ضيعة خاصة يتصرف فى شئونها تصرف المالك فى ملكه !

● ماذا يفعل المؤرخ الأمين وهو يرى هذه التحولات الجسيمة تتلاحق أمام ناظريه فى سرعة مذهلة ؟ ماذا يفعل وهو يرى آماله فى « العدل » قد تحطمت على يد هذا الجندى الألبانى المغامر ؟ هل كان عليه أن ينافق ويداهن ويساير الحكم الجديد كما فعل المنافقون والأفاقون وخدام السلطة ؟؟

لم يكن الجبرتي يستطيع أن يسلك هذا المسلك المشين فى مسايرة الطغاة لأنه يتعارض مع خلقه أولا ٠٠ ويتعارض ثانيا مع منهجه فى كتابة التاريخ ٠ وقد أعلن منذ السطور الأولى فى كتابه (عجائب الآثار) أنه لم يقصد بكتاباته خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ٠٠ « ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسانى أو غرض جسمانى » ٠٠ ولذلك تصدى الجبرتى

لكل تصرفات محمد على غير هياب ·· ينقده ويدمغه ويصدر عليه أحكامه من منطلق ايمانه بفكرة « العدل » كما جـــاء بها الاسلام وبمعناها العريض الذى يتسع ليشمل « حدود الله » التى تحرم الجور والظلم والاعتداء على حرمات الأنفس والأموال والأعراض ·

●●●

لقد ساء الجبرتى أن يرى محمد على وقد تملكته نزعة الشره الى الأموال فيصادرها دون سند من الشريعة ، ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل حتى لو تطلب الأمر شراء المحاصيل من الفلاحين بأسعار زهيدة ، وفرضها على الناس بأسعار باهظة ، وساء الجبرتى أن يرى الحاكم الجديد ينهج نهج كل جبار طاغية فى كره النقد ، وابعاد النصحاء الصادقين · وتقريب المتزلفين المنافقين ، واسناد الوظائف الرئيسية الى شذاذ الآفـــاق من الأغراب الذين تكالبوا على فتات مائدته ·· انظر اليه وهو يصف محمد على فى جرأة محمودة فيقول · ان ولى الأمر اعتدى على مساتير الناس ، وأغلق البيوت المفتوحة لأن فى طبعه داء الحقد والشره والطمع والتطلع الى ما فى أيدى الناس وأرزاقهم ، ولم يكن له من الشغل الا صرف همته وعقله وفكرته فى تحصيل المال والمكاسب وقطـــع أرزاق المسترزقين ، والحجر والاحتكار لجميع الأسباب ·

ويتحدث الجبرتى عن أسلوب محمد على فى تقريب المنافقين وابعاد كل من يتجاسر على نصحه « ولا يتقرب اليه من يريد قربه الا بمساعدته على مراداته ومقاصده ، ومن كان خلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقا ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ــ ولو على سبيل التشفع ــ حقد عليه ، وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداه من لا يصفو أبدا » ·

ثم يعطينا الجبرتى صورة عن أخلاق وطباع محمد على السياسية فيقول : « وعرفت طباعه واخلاقه فى دائرته وبطانته فلم يمكنهم الا الموافقة فى المساعدة فى مشروعاته : أما رهبة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم ، واما رغبة وطمعا وتوصلا للرياسة والسيادة ، وهو الأكثر – وخصوصا أعداء الملة من نصارى الأرمن وأمثالهم الذين هم الآن أخصاء لحضرته ومجالسه ، وهم شركاؤه فى أنواع المتاجرة ، وهم أصحاب الرأى والمشورة ، وليس لهم شغل ودرس الا فيما يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدومهم » ٠

وساء الجبرتى أن يستخدم محمد على المكر والغدر والخديعة للايقاع بالمماليك وذبحهم فى القلعة رغم مقت الجبرتى لهم بسبب المظالم التى انزلوها بالرعية ، ورغم انه لم يخف شماتته فيهم حين دحرتهم جيوش نابليون ، الا انه لم يستطع مسايرة محمد على فى الفتك بهم ، كما لم يستطع تأييد محمد على وهو يوفد جيشا من اراذل الترك ليهدم الدرعية على رؤوس أصحابها من اتباع محمد ابن عبد الوهاب ٠٠ وكم حز فى نفسه أن تقوم هذه الحرب الطاحنة بين المسلمين ، وحز فى نفسه أكثر من ذلك ان يشهد موكب الأمراء السعوديين يطاف بهم فى شوارع القاهرة مصفدين فى الاغلال ، فيغضب قائلا : كيف تقتلون أناسا يقولون لا اله الا الله ٠٠ !!

●●●

●● هل كان الجبرتى متحاملا فى أحكامه على محمد على ؟!

ان معظم الباحثين الذين كتبوا عن الجبرتى لا يبرئونه من شبهة الضغينة ضد محمد على بسبب الاجراءات الصارمة التى اتخذها الوالى الجديد ضد الفئات الثرية فى المجتمع المصرى ، ولما كان الجبرتى ينتمى الى هذه الفئات فقد أصابه بعض ما أصابها من جور وظلم ٠٠ فامتلأت نفسه مرارة وحقدا ٠٠ ولكن الأمانة تقتضى مناقشة هذا الرأى فى اطار من الموضوعية والحياد ٠

العدل أساس الملك ..

كانت الأحكام القاسية التى أصدرها الجبرتى ضد الوالى محمد على انعكاسا أمينا لمفهومه لوظيفة الولاية وواجباتها كنظام للحكم .. وكان الجبرتى بحكم تكوينه الدينى وثقافته الاسلامية يفهم الولاية على أنها عدل ورحمة ورفق بالرعية قبل أى شيء آخر ، فاذا انتفى العدل من الدولة فقدت موجبات قيامها ، ولا يقبل فى ذلك عذرا بان يقال ان الحاكم اضطر الى تأجيل العدل بعض الوقت لكى يتمكن من اقامة المشروعات العمرانية الكبرى التى يتطلب قيامهـا مصادرة الحريات والأموال وحمل الرعية على الجادة حتى يزداد الانتاج ، ويعم الرخاء .

كان الجبرتى لا يفهم هذه الأعذار التى يطلقها بعض الباحثين عند حديثهم عن قسوة الجبرتى فى معاملة محمد على ، فيقولون إن الجبرتى عاصر بواكير عصر محمد على ، وهى فترة الانتقال من عهد الى عهد ، فكان طبيعيا أن يقع فيها من الظلم والقهر والعنف ما وقع، حيث كان الوالى مضطرا الى هدم أركان النظام القديم واقامة الدولة العصرية على أسس جديدة تستلزم تصفيـة الامتيازات الطبقية ، والسيطرة على اقتصاد البلاد ، واحتكار زراعتها وتجارتها وتسخير

أهلها وارهاقهم في اقامة مشروعات جبارة تعود عليهم بالنفع فيما بعد ٠٠ ثم يقولون ان الجبرتى مات عام (١٨٢٥) قبل أن تؤتى هذه المشروعات ثمارها ، وربما لو امتد به الأجل ـ وشهد آثار هذه المشروعات لكان أكثر رفقا بمؤسس مصر الحديثة ، ولجاءت أحكامه عليه أقل تحاملا وأكثر رشدا ٠

ولقد كان من الممكن قبول هذا الافتراض لو كانت أحـــكام الجبرتى على محمد على تتسم بالعمومية والشمول ، فيدمغ عهده كله ولا يرى فيه الا النقائص والعيوب ، ولكن الواقع كان خـلاف ذلك ، فالجبرتى لم يتجاهل الاشادة ببعض الأعمال الجليلة التى عاصرها في دولة محمد على ، ولم يغض النظر عن بعض الصفات الحميدة التى كان يتحلى بها الرجل ، فكان يصفه بالحركة والنشاط (بحيث لا يقر له قرار ويقول انه كان فى أيامه الأولى دائم الخروج الى نواحى القاهرة وزيارة شيوخ الأزهر وكان كثير الانفراد بالسيد عمر مكرم) ٠٠ ولا يخفى الجبرتى اعجابه بالمشروعات العمرانية التى أقامها محمد على قبل بناء سد الفرعونية الذى حال دون طغيان ماء البحر المالح على الأراضى الزراعية ، واصلاح بوغاز رشيد ، وحفر ترعة المحمودية ، وتعمير مدينة الاسكنـدرية ٠٠ ووصف هـذه الأعمال بانها (من همم الملوك) وقال عن صاحبها انه (كانت له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان ، ولو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والثقافة والتدبير والمطاولة ، لكان اعجوبة زمانه ، وفريد أوانه ٠

لم يكن الجبرتى اذن ناقما على الوالى على طول الخط ، ولا كان راضيا عن كل تصرفاته أو مبررا لكل فعل من فعاله كما يسلك المؤرخون الحكوميون ، وانما عبر عن رضائه عنه أو سخطه عليه في المواقع التى تستحق هذا أو ذاك ، وكان مقياس الرضا والسخط

عنده توافر شرط العدالة فاذا تحقق هلل وكبر ، واذا انتفى سخط وضجر ، ولقد طبق مؤرخنا هذا المقياس الموضوعى على مؤسس مصر الحديثة كما طبقه على كل الحكام الذين عاصرهم وما أكثرهم .

لقد عايش الجبرتى الحكم العثمانى طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وشهد حركة على بك الكبير ـ ثم اخفاقها .. وشهد الصراعات الدامية التى وقعت بعدها بين الأمراء المماليك وجعلت من مصر دويلات متناحرة ، وشهد مقدم الحملة الفرنسية ثم رحيلها ، وشهد عودة الشراذم العثمانية التى أشاعت الفوضى والارهاب فى أنحاء البلاد ، والتى انتهت بانفراد محمد على بالسلطة وهو فى كل هذه التقلبات يرى الحال تسير من سيىء الى أسوأ فيتمثل قول الشاعر:

رب يوم بكيت منه فلما   صرت فى غيره بكيت عليه

●●●

وعلى هذا يجب أن نفهم سر تباكيه على أيام المماليك وهو يرى الفساد والفجور والانحلال فى ظل الفرنسيين ، ثم نراه يتباكى على أيام الفرنسيين وهو يرى جحافل الانكشارية والوجاقلية والدلاة والأرنؤوط يستحلون حرمات البلاد ، وقد دخلوها بعد رحيل الفرنسيين فاعتبروا مصر أرضا مفتوحة من حقهم ان يستعبدوا رجالها ، ويسبوا نساءها ، ويهتكوا أعراض بناتها وغلمانها .. فاذا اشتكى المصريون الى الباشا أو وكيله قال لهم : (أناس قاتلوا وجاهدوا أشهرا وأياما وقاسوا ما قاسوه فى الحر والبرد والطل حتى طردوا عنكم الكفار وأجلوهم عن بلادكم . أفلا تسعونهم فى السكن ؟!) وحين سئل القاضى التركى فى شأن هذه الأعمال الاجرامية أفتى بان مصر جميعها أصبحت (دار حرب) وقد آلت ملكيتها جميعها الى السلطان (بحق الفتح) بعد طرد الفرنسيين منها .. ولكن

الجبرتى ـ المسلم المثقف الذى يفهم الشريعة فهما صحيحا خاليا من الخزعبلات والأباطيل ـ يرفض هذه الحجج الهابطة التى تحاول أن تقنن الفساد وتبحث له عن ذريعة فى اطـــار الدين ، ولم ينخدع الجبرتى بالشعارات التى كانت تتحرك تحتها هذه الفيالق المتوحشة وانما جاء حكمه عليها موضوعيا نابعا من ايمانه بأن الاسلام يأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وان الخروج على هذه القيم هو خروج على الدين ، وكان يرى أن هؤلاء الوحوش لا يؤمنــــون بالاســـلام ٠٠ (ولا يتدينــون بــدين ولا ينتحـلون مذهبا ، وكانت تصحبهم صناديق المكسرات ولا يسمع فى معسكرهم أذان ، ولا تقام فيه فريضة ، ولا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين) ٠

ويصف الارنؤوط بأنهم شر من مشى عـــلى الأرض ٠٠ وان الواعظ منهم لو رجع الى بلاده لرجع الى حالته التى كان عليها فى السابق ، فى الخـــدم الممتهنة والاحتطـــاب فى الجبل والتكسب بالصنائع الدنيئة ببيع الاسقاط والكروش والمؤاجـرة فى حمـل الامتعة) ٠

فاذا استتب الأمر لمحمد على واستطاع أن يستأصـــل هـذه الوحوش الكاسرة بالقتل حينا ، وبالنفى حينا ٠٠ ألم يكن ذلك شفيعا له عند الجبرتى فيخفف من غلوائه فى الحكم عليه ! خصوصا وقد عاش مؤرخنا خمسة عشر عاما فقط من بداية دولة محمد على ظهرت خلالها ملامح الدولة العصرية ، وتشكل الجيش المصرى الحديث على أنقاض الفرق المرتزقـــة ٠٠ هــــل كان عسيرا على مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى أن يتجاوز نطاق مفاهيمه الراسخة فيتعاون مع النظام الجديد لتحقيق أهدافه الكبرى والنهوض بمصر من أكفان القرون الوسطى الى أعتاب العصر الحديث ! سؤال ينتظر الجواب ٠

وجها لوجه ٠٠ !

كان الصراع بين مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى ، ومؤسس مصر الحديثة محمد على باشا صراعا حتميا لا يمكن تلافيه ٠٠ انه الصراع الازلى بين أنصار الحق والعدالة والحرية واحترام الكرامة الانسانية، وأرباب القوة الغاشمة ، الذين يستبيحـــون الحريـات ويمتهنون العدل ، ويبطشون بالحقوق العامة من أجل بناء الدولة القوية ٠٠ ثم لا يلبث البنيان أن ينهار وتتقوض أركانه لأنه خلا من اللبنـة الأساسية : قوة الانسان الفرد التى تتجـلى فى مناخ الحـــرية والاحساس بالعدل ، وتنكمش ثم تزول تحت نير الاستعباد والقهر والاستبداد ٠٠

تلك هى عبرة التاريخ على مدى العصور منذ وجد حكـام مستبدون ومحكومون ضعاف ، وذلك هو جوهر الصراع بين مؤرخنا المستنير ، وحاكمنا الطاغية ٠٠

لقد عايش الجبرتى عهود الظلم ممثلة فى المماليك والعثمانيين والفرنسيين ، ولقد داعبه الأمل فى زوال هذه الصفحة الكئيبة بعد أن يختار المصريون حاكمهم بارادتهم ، وراودت خواطره أحلام وردية

في عهد جديد يسلك في الرعية مسلك العدل والرفق ٠٠ وربما خدعته الوعود التى سكبها الثعلب الألبانى فى اذن زعيم الشعب الطيب عمر مكرم ، وليس من المؤكد ان الجبرتى كان واحدا من أهل الحل والعقد الذين صعدوا الى القلعة فى مايو ١٨٠٥ ليثبتوا محمد علي على عرش مصر ، ولكن المؤكد انه كان واحدا من جمهرة العلماء الذين أحسنوا الظن بالعهد الجديد ، وانتعشت آمالهم فى حكم جديد يغاير النظم السابقة التي أسرفت فى الظلم والطغيان ٠٠

●● ولكن ٠٠ كم كانت خيبة الأمل عنيفة مدمرة ٠٠ وهم يرون أحلامهم في العدل تتبدد !! فالحاكم الجديد لم يكن سوى نسخة معدلة من الطغاة السابقين ٠٠ يسلك نفس مسلكهم فى البطش ، بل يفوقهم فى سعة الحيلة والدهاء والخبث ٠٠ شيئا فشيئا أصبح هو المالك الوحيد لكل مقدرات مصر ٠٠ بدءا من رقاب البشر ٠٠ وانتهاء بالدراهم الشحيحة التى تدخل جيوبهم بعد شقاء النهار الطويل ٠٠ واكتشف الفلاحون انهم لم يتحرروا من ذل العبودية القديم ، وان نتاج كدهم وتعبهم هو حق مسلوب لحساب الحاكم ، فماذا يفعلون ؟ هربوا ٠٠ تركوا الأرض قاحلة وهاجروا الى المدن ليعملوا فى المهن الحقيرة ٠٠ فلما تعقبهم كرباج الحكومة زحفوا الى الشام فى هجرة جماعية ، كانت سببا فى حمله عسكرية شنها محمد علي لتعود بالفلاحين الهاربين ومعهم والى عكا ـ أحمد الجزار ـ عقابا له على أيوائه لهذه الجحافل الجائعة ٠٠

كان محمد علي يريد انشاء دولة حديثة قوية ٠٠ ووضع خطة طموحة لاقامة العديد من المشروعات الكبرى ، مثل شق الترع والمصارف وبناء السدود والقناطر ٠٠ ولكنه لم يعط أدنى اهتمام بالانسان المصرى الذى يقوم بتنفيذ هذه المشروعات ٠٠ كان الوالى يستخدم السخرة والكرباج فى اجبار المصريين على العمل فى ظروف بالغة القسوة ٠٠ كان الآلاف يهلكون جوعا وضنكا واعياء !! ٠٠ فما

قيمة المشروعات اذا أهدرت آدمية المواطن ؟! وكان محمد على يسعى الى انشاء جيش قوى من الفلاحين المصريين ·· وهذا هدف قومى جليل ·· ولكن كيف يمكن الفصل بين الهدف والوسيلة ؟ وكيف يمكن الاطمئنان الى الروح المعنوية لهذا الجندى ، ونحن نعلم الوسائل الوحشية التى كان يسلكها محمد على فى تجنيد الفلاحين ، وكيف كانت قواته الكاسرة تهبط على القرية كالاعصار المدمر فتاسر كل من يقع فى يديها من رجال وشيوخ ونساء وأطفال ، ثم تسوق الجميع فى حبال غليظة الى مراكز التجنيد قسرا ·· !! وكان محمد على فى حاجة الى المال فلم يترك سبيلا من سبل التحايل الا سلكه ، حتى جعل من نفسه شريكا لكل صاحب حرفة مهما بلغت دناءتها ، وتلفت المصريون فوجدوا أنفسهم فى غاية الضيق والفاقـــة ، فلما ذهب العلماء ــ أهل الحل والعقد ــ ليذكروا الحاكم بوعوده السابقة ، لم يجدوا منه سوى الازدراء الذى تحول بعد قليل الى حركة رجعيـــة لاخماد كل صوت معارض ، وتقريب كل منافق جهول من أجلاف الأرمن والترك واليهود ·

عندئذ صاح الجبرتى على لسان الأمير الشهير محمد بك الألفى وهو يلقى سلاحه الأخير ، ويودع الحياة مقهورا ، فخرج الى ربوة عالية على مشـــارف شبراخيت وتلفت الى الأفـق الدامى قائلا : « يا مصر ·· انظرى الى أولادك وهم حولك مشتتون ، متباعدون ، مشردون ، واستوطنك اجلاف الأتراك واليهود ، وأراذل الأرنؤود ؛ وصاروا يقبضون خراجـك ؛ ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك » ·· ولم يزل الألفى يردد هــذه المرثية حتى تحرك به خلط دمـوى ·· ثم تقيأ دما ·· فكانت آخر كلماته : « قضى الأمر ·· وخلصت مصر لمحمد على ·· وما ثم من ينازعه ويغلبه ·· » ·

● ● ماذا كان موقف الجبرتي وهو يرى آمالـــه في النظام الجديد قد خابت ؟ هل كان عسيرا عليه ان يساوم ٠٠ أو يداهن ٠٠ أو يجارى الحاكم المستبد الذى يرتكب الظلم بحجـــة بناء الدولة القوية ؟!

أجل ٠٠ كان عسيرا على الجبرتى الحـــالم دائما باطياف العدل ، والكاره أبدا لكابوس الظلم أن يساوم على مبادئه ، فكانت القطيعة النهائية بين قطبين متنافرين — على حد وصف المؤرخ الكبير أحمد خاكي — احدهما يمثل أسمى ما وصلت اليه فكرة العدل فى الاسلام ٠٠ بل فى تاريخ الأمم ، لدرجة انه كان يرى أن ما نزل بعشيرته وأهله المصريين من بلاء ، انما سببه انهم لم يرعوا حدود الله ، ولم يقفوا فى وجه الجبارين ، فلقوا جزاء ما قدمت أيديهم ٠٠ وما ربك بظلام للعبيد ، أما القطب الآخر فيمثل « القوة » بمعناها الغشوم : قوة السلاح والدهاء والخبث ، وهى القوة التى آلت الى العناصر التركية التى سيطرت على دار الاسلام منذ عصر الخلافـة العباسية ، ولم يكن لها مصلحة سوى استنزاف موارد البلاد ، فهى قوة لا تعرف الرحمة أو الشفقة بالرعية ٠ وكان محمد على آخر العنقود فى هذه السلسلة الحديدية ٠

وفى ضوء هذا التنافر ينصحنا الأستاذ خاكى بأن ننظر الى الرجلين كممثلين للحضارة الاسلامية ، الأول يمثل خير ما خلص له من الشريعة فى سياسة الناس ، والثانى يمثل أكثر الوســـائل فعالية — فى نظره — لحكم شعب لا حـول له ولا قوة ، وسوف نلاحظ أن هذه القطيعة بين الحاكم المستبد والمحـكومين الضعاف الجهلة ستسرى فى تاريخ مصر طوال القرن التاسع عشر وما بعده ، حيث كان المصريون — على حد وصف سعد زغلول — ينظرون الى الحكومة نظرة الطائر الى صائده ٠٠ لا نظرة الجندى الى قائده ٠٠

الأفندية في باريس

كان محمد على الكبير رائد الاستنارة العقلية والثقافية لمصر الحديثة ، رغم انه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ٠٠ فهو الذى وضع بيده البذرة الأولى التى أينعت وأثمرت تلك الشجرة الفيحاء التى أفاءت على مصر ظلال العلم والعرفان ، وهو الذى شيد صرح التعليم الحديث ممثلا فى مئات المدارس الابتدائية والتجهيزية (الثانوية) والعالية ، وتكونت من خريجيها طليعة الطبقة المثقفة التى صنعت مجد مصر ٠ ولا ننكر أن محمد على هو الذى حرر أولاد الفلاحين المصريين من ظلام الجهل الذى ضرب عليهم قرونا طويلة ، وهو الذى بعث بهم الى جامعات أوروبا لينهلوا من منابع العلوم الحديثة ، وهو الذى ساقهم ـ بالترغيب حينا وبالترهيب حينا آخر ـ الى المدارس العالية ليتعلموا فنون الهندسة والطب والزراعة والميكانيكا والطباعة والحفر والطبيعة والكيمياء ٠٠ بعد أن كان قصارى حظهم من التعليم أن يترددوا على الكتاتيب ليحفظوا القرآن الكريم ويتلقنوا مبادىء الكتابة والحساب ٠٠ ثم لا يلبثوا ان يرتدوا الى ظـــلام الأمية بعد حين ، أما من أسعده الحظ منهم بالمجاورة فى الأزهر ، فكان جل حصيلته قشورا من العلوم الشرعية لا تسمن ولا تغنى من جـوع ولا تفلح فى صناعة عالم ٠

أدرك محمد علي ــ هذا الجندى المغامر ــ أنه لا سبيل أمامه لبناء مصر الحديثة الا بالاعتماد على سواعد أبنائها ، بعد أن خذله الترك وتآمر عليه المماليك ، وأدرك أن السبيل الوحيد لنهضة المصريين هو خلق طبقة من أبنائهم تتعلم أسرار التقدم ، فانتقى النوابغ من خريجى المدارس وبعث بهم الى أوروبا ليكتشفوا هذا العالم الذى تحرك من حولهم وهم قعود ، ثم عادوا ليكونوا نواة الطبقة المثقفة التى قادت حركة التنوير .

وبلغ من اهتمام محمد على بأعضاء البعثات أنه كان يتقصى أخبارهم ويتتبع سلوكهم وتصرفاتهم وهم فى بلاد الغربة ، ويواليهم بالنصائح والارشادات مثلما يفعل الأب الحريص على مستقبل أولاده . ويكتب اليهم بين الحين والحين رسائل يستحثهم فيها على الاجتهاد والتفرغ للتحصيل حتى يعودوا الى وطنهم وهم على أحسن حال . وهذه رسالة أوردها رفاعة رافع الطهطاوى ــ الرائد الدينى للبعثة الأولى ــ فى كتابه المشهور « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » وتلمس فيها قلق الأب الذى ينتظر عودة ابنه وعلى رأسه تاج العلوم :

« قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم ، ننهى اليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم « ثلاثة أشهر » مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة . ومافهمنا منها شيئا ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا كثيرا ، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت ان كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد

والغيرة ، وجئتم الى مصر بعد قراءة الكتب ، فظننتم انكم تعلمتم العلوم والفنون فان ظنكم باطـــل ، فعندنا ولله الحمـد والمنـة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصـلون الشـهرة ، فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للانسان ان يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وان يجنى ثمرة تعبه ، فبناء على ذلك انكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا ، وتوجهنا اليكم لتتميزوا بين أمثالكم ، فاذا أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم ، وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ، ويكتب فى كل شهر ما يتعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وان قصرتم فى الاجتهاد والغيرة ، فاكتبوا لنا سببه ، وهو اما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم ، وأى تشويش لكم : هل هو طبيعى أو عارض ، وحاصل الكلام انكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرأوا هذا الأمر مجتمعين ، وافهموا مقصود هذه الارادة ، وقد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى الاسكندرية بمنة الله تعالى » .

نابغة الطب المصرى

كان الدكتور محمد على البقلى باشا أنبغ جراح وأشهر طبيب عيون انجبته مدرسة الطب المصرية التى أنشأها كلوت بك لحساب سيده محمد على باشا الكبير لتخريج أطباء يخدمون فى الجيش المصرى ، وبعد رحيل كلوت بك تولى البقلى باشا الاشراف على مدرسة الطب وأصبح كبير أطباء وجراحى مستشفى قصر العينى ، وقد كبر على الاطباء الآجانب ان يصل طبيب مصرى الى هذا المركز الرفيع فنقموا عليه ونجحوا فى تنحيته عن منصبه فى عهد عباس الأول فعين طبيبا فى أحد مستشفيات القاهرة فانتقلت معه شهرته ، وأصبح مستشفاه قبلة الجماهير من كل أنحاء مصر ، وكان مستواه الخلقى لا يقل عن مستواه العلمى ، اذ كان دائب العطف على الفقراء ويعفيهم من أجر العلاج اذا استشعر فيهم عجزا وفاقة ، أما عن نبوغه العلمى فتشهد عليه مؤلفاته التى كانت أولى المراجع بالعربية لطلبة الطب ومن أشهرها كتابه عن الجراحة الصغيرة وسماه « روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى » وطبع عام ١٨٤٣، وكتاب « غرر النجاح فى أعمال الجراح » عام ١٨٤٦ وكتاب « نشر الكلام فى جراحة الأقسام » وكتاب فى العمليات الجراحية الكبرى فى مجلدين وسماه «غاية الفلاح في أعمال الجراح »

كما شارك فى عام ١٨٦٥ فى اصدار أول مجلة طبية عربية فى مصر وهى مجلة « يعسوب الطب » وقد وصفه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية بالعالم النحرير والعلم الشهير ٠

●●●

ولد محمد على البقلى سنة ١٨١٥ فى قرية من قرى المنوفيـة اسمها زاوية البقلى اشتهرت بتخريج العديد من النوابغ فقال عنها على باشا مبارك « ان هذه القرية وان كانت صغيرة لكنها اختصت دون غيرها بمزية كثرة من ترقى منها فى الوظائف السنية والخدمات الميرية من علماء الشريعة والرياضة والحكمة والطبيعة ٠٠ » ٠

وتلقى محمد على البقلى علومه الأولى فى كتاب القرية فلما بلغ التاسعة انتقل الى كتاب أبى زعبل حيث أتم تجويد القرآن الكريم ، وانتقل بعدها الى مدرسة أبى زعبل التجهيزية التى كانت فى مستوى المدارس الثانوية وهناك ظهرت عليه علامات النجابة فكان أول فرقته فدخل مدرسة الطب ، وتتلمذ على كلـــوت بك الذى اكتشف فيه استعدادا طيبا لدراسة الطب فاق مستوى اقرانه ، فلما أتم دراسة الطب اختاره كلوت بك ضمن البعثة التى أرسلت الى فرنسا للتخصص فى العلوم الطبية ، فالتحق بمدرسة الطب بباريس ، وانصرف الى تحصيل العلم وأبدى من مخايل النبوغ ما جعله يتفوق على دفعته رغم كونه أصغرهم سنا ، وشهد له جميع أساتذته بالعبقرية وتوقعوا له مستقبلا باهرا ٠

وعاش الشاب محمد على البقلى فى باريس دون أن ينسى أهله فى زاوية البقلى ٠ فكان يترك لأمه خمسين قرشا من جملة الراتب الشهرى المخصص لطالب البعثة وقدره مائة وخمسون قرشا ويكتفى بجنية واحد يعيش به فى باريس ، ولما فرغ من دراسة الطب قـدم رسالته الجامعية عن الرمد الصديدى فى مصر ، وبعد حصوله على

الدبلوم فى عام ١٨٣٨ عاد الى وطنه فعين مدرسا للجراحة والتشريح بمدرسة الطب وكبيرا لجراحى المستشفى ، ونال رتبة (صاغ) فى الجيش ، وفى عهد عباس الأول تعرض للاضطهاد من جانب الاطباء الأوروبيين فنجحوا فى زحزحته عن مركزه المرموق فى مستشفى قصر العينى ، وفى عهد سعيد رقى الى رتبة القائمقام وعين كبيرا لاطباء الجيش ، ثم عاد الى منصبه كبير جراحى قصر العينى ووكيلا لمدرسة الطب ، وأنعم عليه سعيد برتبة أميرالاى وجعلـه طبيبـه الخاص بالاضافة الى مناصبه العلمية ؛ فلما تولى الخديـو اسماعيل عينه ناظرا لمدرسة الطب ورئيسا لمستشفى قصر العينى وشجعـه على اصدار مؤلفاته العلمية لتكون مرجعا لدارسى الطب .

●●●

ولقد كان من المفترض أن تمضى حياة هـذا الرائـد المصرى الكبير ــ وقد بلغ سن الشيخوخة ــ الى نهايتها فى هدوء وسكينة كما تمضى حياة أى عالم معطاء ، لولا السياسة الخرقاء التى سلكها اسماعيل فى التوسع الخارجى ، وتحميل خزانة مصر المرهقة أعباء مالية هائلة للانفاق على حروب ارتجالية ليس لها من هدف سوى اظهار الخديو ــ فى نظر الأوروبيين ــ بمظهر فرعون صاحب الذراع الطويلة التى تصل الى أقاصى الدنيا .

وكانت حملة الحبشة هى ذروة الخبال الذى أصاب اسماعيل ، ورغم الهزائم المتوالية التى منيت بها الجيوش المصرية على الحدود الحبشية ، فقد زين له مستشارو السوء والمنتفعون من خيراته أهمية غزو الحبشة لاعادة الهيبة المصريـة الى نفـوس الأوروبيين واذلال النجاشي الذى تصدى للطلائع المصرية ولم يسمح لها بالتوغـل فى أراضيه ، وانساق اسماعيل وراء هذه الأوهام والخزعبلات وجهز حملة أوكل قيادتها الى ضابط شركسى هو راتب باشا وعهد بقيادة

الأركان الى ضابط أمريكى اسمه « لورنج » وضمت الحملة خليطا من شتى الأجناس والملل من الضباط المرتزقة وكلهم طامع فى المرتبات الخيالية التي كان يدفعها اسماعيل ، ويكفى ان تعلم أن السفينة (الدقهلية) التي أقلت الحملة من السويس الى مصوع كانت أشبه بهيئة أمم بحرية ، وتدور على ظهرها اللغات : العربية والتركية والانجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية والنرويجية على ما يذكر المؤرخ الياس الأيوبى ، ولم يكن بينهم أى احساس مشترك بجدية الهدف الذى يمضون اليه سوى الاغتراف من خزانة مصر ٠

●●●

وطلب الخديو من الدكتور محمد على البقلى باشا أن يرافق الحملة فلم يسعه سوى القبول والطاعة ، وشـــاء قدره أن يشهد المذبحة الدموية الرهيبة عندما أحاط الأحباش بالقـوات المصريـة وانساحوا عليها من التلال كالجراد المنتشر ، واعملوا السيوف والحراب فى الجنود المصريين حتى أبادوهم ، وقادوا من بقى منهم على قيد الحياة الى معسكرات للاعتقال لاقوا فيها من صنوف الهوان والذل ما يندى له الجبين ، ويكفى ان تعرف من جرائم الأحباش أنهم كانوا (يخصون) الأسرى قبل تسليمهم ٠ ووقع الدكتور البقلى ومعـه جندى سودانى فى أسر جندى حبشى قادهما سيرا على الأقدام الى معسكر الأسرى وكان يقع على مسافة بعيدة ، وكان طبيعيا ان يعجز الدكتور البقلى باشا ــ وهو الشيخ الفانى ــ عن الهرولة ، فما كان من الجندى الحبشى الا أن أمر الجندى السودانى بقتل رفيقه لكى يتخلص من بطئه ومن اضطـــراره الى اطعـــامه ، وأذعن الجندى السودانى لتعليمات آسره ٠٠ فأزهق روحه ٠٠ ثم تركا جثته فى العراء وواصلا المسير ٠٠

عاشق النهر الخالد

عندما يتحدث المصريون عن الحملات التى تمت خـــلال القرن الماضى لاكتشاف منابع النيل ، فانهم يذكرون أسماء صموئيل بيكر وسبيك وجرانت واشباههم من الرحالة الأوروبيين ، وينسون أن أول محاولة علمية لاكتشاف منابع النهر انما قام بها ضابط مصرى عظيم هو الفريق محمد سليم باشا القبطان الذى تجـــاهلته كتب التاريخ الرســمية ، فلم تتحدث عنه من قريب أو من بعيد تأثرا بالعقدة التى أصبنا بها فى مراحل الضعف بسبب انعدام الثقـة بالنفس ، واعنى بها عقدة « الانبهار بالغرب » ٠٠ والتعلق بكـل ما هو غريب ٠٠ وجحود كل ما هو وطنى ٠٠ أو مصرى ٠٠ !!

ومما يضاعف من الاحساس بالألم ، ان الأروبيين كانوا أكثر تقديرا لهذا الضابط المصرى الشجاع الذى عشق النهر فقاد ثلاث حملات فيما بين عامى ١٨٣٩ ــ ١٨٤٢ الى أعالى النيل لكشف أسراره وفض مغاليقه ، وكان للنتائج التى أسفرت عنها حملاته دوى عظيم فى المحافل العلمية فى كل أنحاء القارة الأوروبية ، واليك مثالا مما كتبه مسيو « جومار » العلامة الفرنسى الذى جاء الى مصر ضمن رهط العلماء المرافقين لبونابرت ، ولم تنقطع صلته الثقافية بمصر بعد

عودته الى بلاده فاستعان به محمد علي في الاشراف على البعثات المصرية التي كان يوفدها الى باريس ، كتب « جومار » في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية يصف اكتشافات سليم القبطان بأنها : « باكورة ثمار الحضارة التي انبعث ضوؤها في مصر منذ ربع قرن ، وهي صالحة ، ولابد أن تبقى كذلك لتكون قاعـدة للاستكشافات التالية » كما وصفها الدكتور « فريدريك بنولا » الذى مثل مصر في مؤتمر الجغرافيا الدولى المنعقد في باريس عام ١٨٨٩ بأنها : « كانت السبب في الحصول على المعلومات التي وصـل اليها العلماء بعد ذلك ، بل هي الأساس الذى نبنى عليه حل مسألة النيل » وذلك بفضل ما قامت به من الدراسات الطبيعية والجغرافية لمجرى النيل الأبيض ، وما كشفت عنه من الجهات والقبائل في هذه المناطق النائية التي كانت حتى ذلك الوقت لا تزال مجهـولة ، ومهدت السبيل لارتياد هذه المناطق العليا للنيل ، والكشف عن منابعه وحل هذا اللغز الجغرافي القديم .

وعن شخصية المكتشف المصرى العظيم يقدم لنا الدكتور نسيم مقار في كتابه الوثائقي عنه صورة يكتنفها الغموض حول نشأتـه الأولى ، فالذين عاصروه أو رافقوه في حملاته الكشفية لم يتعرضوا كثيرا لنشأته وكل ما يعرف عنه أن أصله من جزيرة كريت ، وقد حضر الى مصر في صباه واندمج في المصريين واختلط بهم حتى صار مصريا ، والتحق بالبحرية المصرية على عهد محمد على حيث عمل ضابطا بحريا في ترسانة الاسكندرية ثم عهد اليه مؤسس مصر الحديثة بهذه المهمة التاريخية التي جعلت منه بطلا وخلدت اسمه في سجل التاريخ ، والأمر المثير للدهشة أن كل المعلومات المتوافرة حول شخصية سليم القبطان انما مصدرها الأوربيون الذين رافقوه في رحلاته الكشفية ، وسجلوا ملاحظاتهم عن أخلاقه وتصرفـاته وأسلوبه أثناء قيادة الحملات .

يقول المهندس الألماني « فرن » الذى رافقه فى الحملة الثانية :
« ان سليم كان طموحا راغبا فى الشهرة ، تواقا الى أن يحقق لنفسه مجدا كبيرا وفخرا عظيما ٠٠ وكان ـ على غير ما كنت اعتقد ـ شجاعا ذكيا نشطا مدركا لخطورة المنصب الذى يتولاه وعظم المسئولية الملقاة على عاتقه ، بصيرا بكل ما يحيط به وهو يمتاز باللباقة ، ويتحفظ فى كلامه مع رفقائه من المهندسين الفرنسيين ويحرص على استشارتهم فى المسائل الهامة واحترام آرائهم حتى لا يثير غيرتهم وحفيظتهم عليه » ٠

ومن خلال التقارير اليومية التى كان يكتبها سليم القبطان أثناء رحلته فى مجاهل النيل يكتشف الدكتور مقار أن الرجل كان متدينا شديد التمسك بأداء الشعائر الدينية واقامة الصلوات فى وقتها ، وعندما حل شهر رمضان المعظم والحملة تأخذ طريقها فى مجرى النيل الأبيض حرص القبطان على تأدية فريضة الصوم كاملة على الرغم من أن الدين يبيح الفطر للمسافر ، ولما حل عيد الفطر سنة ١٢٥٥ هـ أمر الجنود باطلاق المدافع من جميع السفن ورفع الأعلام ابتهاجا بالعيد ، وفعل نفس الشيء عندما حل عيد الأضحى وأدى صلاتى العيدين مع الضباط والعساكر على ظهور المراكب والذهبيات ، كما دفعته نزعته الدينية الى الحلم ، والنفور من العدوان ، ففى أثناء سير الحملة كانت تصادفه على شاطىء النيل الأبيض بعض الجماعات التى تميل بطبيعتها الى الشر ، وتقوم بمظاهرات عدائية نحو رجال الحملة ، فكان يمتنع عن اطلاق النار عليهم ، ويبادر الى اظهار نواياه الحسنة نحوهم ، فيرسل اليهم ترجمانه ليبلغهم رغبته فى مقابلتهم ليتحف كلا منهم ببعض الهدايا ، كذلك لم يكن سليم القبطان يميل الى الاستبداد ، وانما كان يميل بطبيعته الى الشورى ، وفى جميع المواقف التى تعرضت فيها الحملات الكشفية للمخاطر ، كان سليم يبادر الى عقد المجالس مع ضباطه

ومهندسيه للتشاور في الأمر ثم يصدر قراره في النهاية بناء على رأى الأغلبية ، ولكنه كان فى الوقت نفسه حازما صارما الى درجة ملحوظة في تطبيق اللوائح والعقوبات على كل من يتهاون من الضباط والعساكر ، أو من يغتصب من أحد المواطنين شيئا مهما كان تافها .

وكان من أثر هذه الصفات الشخصية القويمة أن نجح سليم القبطان فى أداء المهمة الجليلة التى خلدت اسمه وجعلته مقترنا باسم النهر الخالد ، فكانت حملاته طليعة الحملات اللاحقة التى تمت فى عصر اسماعيل مسترشدة بالنتائج العلمية الباهرة التى عاد بها سليم القبطان، وكان لها تأثير بعيد المدى في تطور أحوال المجتمع السودانى، ويكفى انها فتحت طريق الملاحة والتجارة فى مناطق النيل العليا وربطت بين شمال السودان وجنوبه ، وألقت الضوء على جنوب السودان الذى كان حتى ذلك الوقت يعيش في عزلة تامة عن المجتمع الانسانى .

●●●

أبو الاستبداد

كان أول مطلب للعرابيين ـ يوم مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ـ عزل رئيس الوزراء مصطفى رياض باشا ، لما يمثله من نزعة استبدادية وميل للحكم المطلق ونفور من الدستور وكل ما يمت الى الحياة النيابية والحقوق الشعبية بصلة • ويتفق المؤرخون على أن وجود رياض باشا على رأس الحكومة آنذاك ، كان من المسببات المباشرة للثورةالعرابية • فمن يكون الرجل الذى كان سببا فى قيام ثورة •

تختلف الأقوال حول نشأة رياض باشا ، فالكتاب الغربيون يزعمون أنه من أصل يهودى أناضولى ، ويستدلون على ذلك بملامحه ولهجته ومظهره • فقد كان قصير القامة محنى الكتفين له صوت يشبه الصرير ، ولكن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ينقض هذه المزاعم • ويرجع بنسب رياض باشا الى أسرة مصرية مسلمة هى عائلة الوزان • ويقول ان أباه كان ناظر (الضربخانة) دار سك النقود ، وجده هو حسن الوزان كبير الحكومة المصرية الذى مات سنة ١٧٠٩ •

ولكن المؤرخين لم يختلفوا حول النزعة الاستبدادية التى كانت

من المكونات الأساسية فى شخصية رياض ، الأمر الذى انعكس على مجرى الأحداث التى شهدتها مصر طوال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ٠٠ وهى الفترة التى تبلور فيها الصراع بين الحكم المطلق الذى يمثله الحكام ، وتطلع الشعب الى الحرية والمشاركة فى تقرير مصيره ٠ وكان رياض باشا من طراز الباشاوات الأتراك القدامى الذين كانوا ينظرون الى الشعب بعين الزراية ولا يعترفون له بحقوق على شئون الحكومة ٠

فاللورد ملنر يصف رياض بالغلظة والصرامة والعنف ٠٠ «لا يتأثر بأى مؤثر عاطفى أو شعور انسانى ، ليس لأنه معدوم الشفقة بعامة الناس ٠٠ ولكن لأن الشفقة لديه تشبه ما كان يشعر به منها خير أصحاب الاقطاعات فى العصور الوسطى نحو تابعيهم ٠ يتطرف فى الغلظة الى حد السماجة ، ليس فقط فى معاملته لمرؤوسية ، بل فى معاملته لأقرانه فى الرتبة والمكانة ٠ يطالب الجميع باحترام شخصه احتراما لا يرى ذاته مستعداً لمقابلة الغير بمثله ، ومع انه كان اداريا حازما وناجحا ، الا انه كان ذا كفاءة غريبة فى اثارة عداء الناس له ، ما ان يتربع على كرسى الوزارة حتى يتحول الى « قنفذ » كله شوك ينفر منه الخاصة والعامة » ٠

وهذه الأوصاف يؤكدها الرافعى بقوله ان من أبرز صفات رياض باشا التعاظم والكبرياء والزراية بالشعب ، يأنف من كل نصيحة لأنه لم يكن يرى نفسه فى حاجة الى استشارة النصحاء ، ويعزو الرافعى نزعة رياض الاستبدادية الى ضآلة حظه من التعليم ، فهو لم يتلق تعليما عاليا ولم يقف على مآثر الثقافة الأوربية مثل شريف باشا ، بل كان نصيبه من العلم مجرد قشور اقتبسها بذكائه الفطرى ومرانه وقوة ذاكرته فظل محدود الفكر ٠

وهذا التفسير من جانب الرافعى ليس دقيقا فى تبرير الاستبداد

فالتعليم ليس في كل الأحوال عاصما من الطغيان ، والثقافة ليست في جميع الظروف صنوا للحرية والديمقراطية ، وقد رأينا في تاريخنا القريب سياسيين بلغوا أعلى مراتب التعليم والثقافة ، ومع ذلك كانوا معاول هدم في النظام الدستورى مثل اسماعيل صدقى وعلى ماهر ومحمد محمود ، وفي المقابل نجد رجالا حظهم من التعليم ضئيل - كعبد الله النديم - وكان عشقهم للحرية وايمانهم بحقوق الأمة فوق الشك والريبة ·

وفي تصورى أن رياض باشا كان ابن عصره ونتاج البيئة التى نشأ فيها ، وهى بيئة كانت تسىء الظن بجموع المصريين وترى أن مصلحتهم فى بقائهم تحت وصاية الحكماء والعقلاء والعباقرة · كان الرجل ينتمى الى مدرسة الحكم المطلق التى تعطى كل السلطات لولى الأمر ليتصرف فى شئون الرعية وفق ارادته ، وتضع الشعب فى مرتبة التلاميذ المفروض عليهم السمع والطاعة للحاكم ، والخضوع لرئيس « النظار » وهى الصفة التى كانت تطلق على رئيس الوزراء وقتئذ ·

●●●

وليس معنى ذلك أن شخصية رياض باشا كانت مجمع النقائص والرذائل ، أو خلوا من الفضائل فمثل هذا الحكم يتنافى مع الطبيعة البشرية ، فضلا عن منافاته للواقع التاريخ ، فقد كان الرجل اداريا حازما ، محبا للعمل · يمتاز بالنزاهة والاستقامة والتعفف عن الرشوة · وهى صفات تستحق التقدير فى نظام جعل من الرشوة حقا مشروعا ·· غير ان أهم مآثر الرجل أنه استطاع خلال وزارته التى سبقت الثورة أن ينجز أعمالا جليلة ، فقد ألغى السخرة ، وأبطل الضرب بالكرباج فى تحصيل الضرائب ، ووضع نظاما دقيقا لجمع الأموال الأميرية على أقساط محددة بعد أن كان الفلاحون

يضطرون الى بيع محاصيلهم بأبخس الأثمان لتســـديد مستحقات الدولة ، وقرر توزيع مياه الرى توزيعا عادلا ، وألغى نحو ٣٠ ضريبة صغيرة كانت ترهق صغار الفلاحين وفى مقابلها قرر زيادة الضريبة على كبارهم لكى يتحقق بعض العدل بين الطبقـات ، واستصـدر قرارا بأيلولة قصور الخديو المخلوع (اسماعيل) وأفراد عائلته الى ملكية الدولة ٠

ومع الاعتراف بأهمية أعمال رياض باشـا ، فان المصريين لم يستريحوا اليه ، واستثقلوا عهده ، لأنه كان يتعامل معهم من برجه العاجى ، فبدت أعماله وكأنها صدقة من محسن كبير ٠٠ وفشل الرجل فى التعامل مع الجمـاهير لأنه لم يكن يؤمن بشىء اسمه الجماهير !

●●●

الأرستقراطية الحديثة

ان ظاهرة المتمصرين الذين أحبوا مصر وخدموهـــا بصدق واخلاص تستحق التسجيل . وهى تؤكد أن الولاء لمصر ليس مجرد كلمات جوفاء تتردد فى الأغانى والخطب والمقالات ، ولكنه احساس مستقر فى الضمائر والقلوب ويتجسد فى الأعمال والتصرفات ، ان الفترة التى نؤرخ لها شهدت صراعا حـــادا بين جموع المصريين المتطلعين الى العدل والحرية ، وجحافل الأجانب الذين تكالبوا على مصر يمتصون دماءها ويسرقون أقواتها . ومن خلال الصراع ظهرت نماذج رائعة لرجال أفذاذ ارتفعوا فوق العصبية وانتصروا لمبادىء الحق والعدل ووقفوا الى جانب المثل الانسانية العليـا رغم حداثة عهدهم بالتراب المصرى . فى هذا الصدد نذكر محمـــود سـامى البارودى وأديب اسحق ويعقوب صنوع وقاسم أمين والزعيم محمد فريد والشاعر أحمد شوقى وأولاد تيمور .. وكلهم أعطى مصر من الاخلاص بقدر ما أعطته من نعمة الوجود وعلى رأسهم جميعا يتربع شريف باشا .

الا أن « الحب » وحده لا يكفي لتفسير ظاهرة الولاء الوطني عند هؤلاء المتمصرين الأوفياء . فالولاء الذى يفتقـــر الى الوعى لا يثمر غير نعرات عاطفية جوفاء ، ولا بد أن هناك دوافع أخـرى أعمق جعلت هؤلاء ينشقون على الارستقراطية التركية التى أفرزتهم وينحازون الى المعسكر المصرى ، ويشكلون مع الأرستقراطية المصرية الحديثة « حلفا » غايته هز النظام الحاكم ليتفهم مغزى الارهاصات التى كانت تتفاعل فى أحشاء المجتمع المصرى ويبشر بولادة قـوى سياسية مصرية جديدة .

لقد رأت هذه الارستقراطيـة المستنيرة أن تغييرا جذريا قد حدث فى البنية الاجتماعية ، بسبب تطور نظام الملكية الزراعية . وكان من نتيجته ظهور طبقة من كبار الملاك المصريين . وكان من الطبيعى أن تبحث هذه الطبقة عن دور لها على المسرح السياسى على حساب الارستقراطية التركية المتعجرفـة التى يساندها الخديـو اسماعيل ، واشتد الصراع بين الطرفين ، وكان على الفئات المتمصرة بزعامة شريف باشا أن تختار . فاختارت الجانب المصرى ليس لأنه الأقوى ، ولكن لأنه الأبقى ، ولأنه الأكثر اتساقا مع حركة التاريخ ولأنه الأكثر اتفاقا مع المبادىء والأفكار العصرية التى تشبعت بها

●●●

ومن المؤكد أن العوامل الثقافية لعبت دورا فى تحريك مشاعر هذه الفئة ، فكلهم اتصل بأوربا ـ وفرنسا بالـــذات ـ وعـاصر التطورات الدرامية التى انتهت الى انتصار الليبرالية واندحار الحكم المطلق والنظام لاقطاعى ، وكانوا على ثقة بأن سنة التطور لابد أن تسرى على مصر ، وأن ريـاح التغيير لا بد آتيـة ، وأن عليهم أن يتحركوا حتى يتم التغيير سلميا ودون اراقة دماء ، أو حدوث صدع يهدد كيان الوطن ، وكانت غاية آمالهم أن يتخلى اسماعيل عن نزعته

الاستبدادية ، ويعمل على توسيع قاعدة الشورى لتستوعب التطورات الاجتماعية الجديدة ، كانوا يحلمون بالدستور وبالمجلس النيابى ؛ وبالوزارة المسئولة أمام البرلمان وبالحاكم الذى يملك ولا يحكم ، وكانوا يحلمون بالغاء السخرة والرق ، وسيادة المبادىء الانسانية واحترام كرامة الفرد . ولم يكونوا فى ذلك الوقت مسرفين فى أحلامهم .. ألم يقل اسماعيل ان مصر أصبحت قطعة من أوربا . ولكن وجه التمايز بينهم وبين اسماعيل ، أن الأخير لم يقتبس من معالم الحضارة الأوربية سوى مظاهرها المادية البراقة . دار الأوبرا وأفراح الأنجال وحفلات الليل المخملية وتشييد القصور الفاخرة على غرار قصور فرساى التى احترقت فى أتون الثورة .. أما جوهر الحضارة المتمثل فى احترام ارادة الشعب والامتثال لمبدأ سيادة الأمة .. فان اسماعيل لم يكن على استعداد لاقتباسه أو الاقتراب منه .

●●●

وهذا هو جوهر الخلاف بين راعى الارستقراطية التركية العتيقة ـ اسماعيل ـ الذى أدار ظهره لحركة التاريخ فاحترق ، وقائد الارستقراطية المصرية المستنيرة ـ شريف باشا ـ الذى قاد أول حركة دستورية نيابية فى مصر ليجنب البلاد مغبة ثورة دموية تأكل الأخضر واليابس ، فنجح حينا ، وفشل أحيانا حتى انتهى الصراع بقيام الثورة العرابية .. ثم وقوع الاحتلال الانجليزى .

طوفان الفساد

بعد اخماد الثورة العرابية ٠٠ عاد الخديو الخائن توفيق بالقطار من الثغر المحترق الى القاهرة المحتلة ٠٠ وكان فى استقباله بمحطة العاصمة قادة الجيش البريطانى الذين سبقوه الى القاهرة ومهدوا له طريق العودة ، وانطلق موكب الخديو الى قصر عابدين عبر الشوارع التي خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال ، لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة ، وبفعل القهر المسلح ، وأضحى الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة ، وسجين ينتظر النفى والتشريد ، والوطن كله ينزف دما من جراح الهزيمة ، وبدأ الظلام ينشر اعلامه السوداء على مصر المحروسة ٠ وكان على المصريين أن يعيشوا مرحلة الضياع كالأيتام على مأدبة اللئام ٠ لقد مضى ذلك العصر الذى جلجلت فيه صيحات النديم ، والأفغانى ، ومحمد عبده ، وصرخة عرابى فى وقفة عابدين ٠ وانطوت تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب وبدأت مرحلة الانحطاط والهبوط الى أسفل السافلين ٠ بات قصر الدوبارة ــ مقر المعتمد البريطانى ــ قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم بين حطام المعركة ، وأصبحت مصر نهبا لكل خوان أثيم ٠ ولم يقتصر الفساد على علية القوم ٠ وانما كان الفساد طوفانا تسرب الى كل

الشقوق ٠٠ وشمل كل الطوائف والطبقات ٠٠ فانحطت الأخلاق وشاع الجبن والذل والرياء ٠٠ وسادت شعارات النفعية والوصولية والانتهازية ٠٠ وانعدمت روح الانتماء الى الوطن وحلت محلها نزعة اللامبالاة وعدم الاكتراث والبحث عن المنافع الشخصية على اشلاء الوطن المحتل ، وأصبح الولاء للاحتلال والتنكر للوطن جواز المرور الى المناصب العليا ٠٠ والوجاهة الاجتماعية ٠

●●●

وبدأ الانجليز فى تنفيذ برنامج طويل المـــدى لتصبح مصر بمقتضاه مستعمرة بريطانية تحكم من لندن حكما مباشرا عن طريق « نصائح » يقدمها المعتمد البريطانى الى الخديو ٠٠ فلا يملك حيالها الا الاذعان وكان لابد من وزارة تدير شئون البلاد فى هذا الظرف العصيب ولم يكن هناك غير شريف باشا ليقوم بهذه المهمة الصعبة وسط الظلام الكئيب ٠٠ وقبل الرجل التكليف وكان عليه أن يتحمل المسئولية فى وقت انعدمت فيه المسئوليـــة الوطنية ٠ وكان عليه أن يعيد ترتيب البيت الذى تفكك وانهار تحت وطأة الاحتلال ٠٠ وكان عليه أن يحافظ على آخر ومضات الروح الوطنية قبل ان تذبل الى الأبد ، ومكث الرجل يمارس هذه المهمة الشاقة سنتين ، حتى اذا كشف الانجليز عن أنيابهم لفصل السودان عن مصر ـ لم يستطع شريف الصبر ، وأبى أن يكون أداة فى يد الاحتلال لسلخ السودان عن مصر ٠ وهو القائل « اذا تركنا السودان فان الســـودان لن يتركنا » وهو الذى ضمن الدستور نصا يتيح لأبناء السودان انتخاب ممثليهم فى مجلس النواب المصرى ، ايمانا منه بوحـدة المصير بين شمال الوادى وجنوبه ، عندئذ قـــدم شريف استقـــالته الثالثة والأخيرة ، وبعدها اعتزل الحياة العامة حتى وافاه الأجل بعد ثلاثة أعوام قضاها فى صمت ٠

هل تستحق هذه الاستقالة أن تدرج ضمن الأعمال الوطنيـة العظيمة ؟ لقد رفع الأستاذ الرافعي من شأن هذه الاستقالة واعتبرها من الأمجاد التي تذكر لشريف باشا ، ورأى فيها دليل الحياة واليقظة الوحيد في وقت تلاشت فيه كل دلائل المقاومة الأهلية ، وعاب على حكام مصر وكبرائها انهم لم يحذوا حذو شريف ولم يستقيلوا من مناصبهم احتجاجا على التدخل الأجنبي في شئون مصر ، فكان من نتيجة سكوتهم واذعانهم ان تعـــاقبت على البلاد وزارات الولاء للاحتلال والخضوع لأوامره ونواهيه ٠

●●●

هل كان شريف مخطئا حين قبل الوزارة تحت مظلة الاحتلال ؟ لم يتعرض الرافعي لمناقشة هذه القضية الهامة ، لأن الرافعي كان ـ بحكم موقفه العـــدائي من العرابيين ـ مناصرا لشريف ومبررا لكل تصرفاته حتى خلع عليه كـــل وصف حميد ، ونزع عنه أية نقيصة ، ولعل هذا الصمت المتعمد من جانب الرافعي جرنا الى سؤال آخر : هل خان شريف باشا الثورة العرابية ؟ فالثابت ان شريف لجأ الى معسكر الخديو حين وقعت الواقعة وتلاحمت سيوف الثورة العرابية مع قوات الغزو الانجـليزى ، وكان في معيته في رحلـة القطار من الاســكندرية الى القاهرة بعد فشـل الثورة ، وكان في رفقته أثناء ذهابه الى قصر عابدين ٠ ويقول الرافعي ان شريف لم يتمالك نفســه وهو يرى جنود الاحتلال ينتهكون شرف بلاده ٠٠ فاجهش بالبكاء ٠٠ ومع ذلك ، وايا كان نصيب هذه القصـة من الحقيقة ٠٠ فانها لا تعفينا من مناقشة هذا السؤال : هل خان شريف الثورة ؟ انها قصة تحتاج الى وقفة للتأمل ٠

الكبرياء الوطنية

فى حياة شريف باشا ثلاث استقالات شهيرة ، من المفيد أن نلم بها لأنها تكشف النقاب عن معدن الرجل ومنهجه فى الحكم ، واكتشافه اللحظة الفاصلة التى يتحتم فيها على رجل الدولة أن يتنحى اذا حدثت اهانة لشخصه أو مساس بكرامته الوطنية ٠

وظروف الاستقالة الأولى تلقى الضوء على جانب من شخصية شريف ، هو تمسكه بالكبرياء الوطنية فى مواجهة التدخل الأجنبى ٠ كان شريف باشا وزيرا للخارجية والحقانية (العدل) فى أواخر عصر اسماعيل حين بدأ النفوذ الأوروبى يسيطر على مقدرات البلاد بعد أن أوشكت خزانتها على الافلاس ، وكان من آثار ذلك ان وافق الخديو على تشكيل لجنة « التحقيق العليا الأوروبية » من جبابرة الاستعمار البريطاني وبعض اذيالهم من الفرنسيين ، ومعهم ـ للأسف الشديد ـ مصرى هو رياض باشا ، وكان من سلطة اللجنة استدعاء كبار رجال الدولة ، بمن فيهم الوزراء ، لمساءلتهم والتحقيق معهم ، فلما جاء الدور على شريف باشا رأى أن من العار على وزير مثله ان يقف كالمشبوه امام تلك الحثالة المتربصة باستقلال بلاده وتمريغ سيادتها فى التراب ، فرفض المثول أمام اللجنة التى رأت

فى عناده تحقيرا من شأنها ، فأصرت على احضاره ، وازداد الرجل تشبثا بموقفه ، وتوسط الخديو وطلب من شريف ان يجيب عن اسئلة اللجنة كتابة ، ولكن اللجنة أصرت على مثوله ـ شخصيا ـ امعانا فى اذلاله ، وحتى لا يكون قدوة لغيره من الوطنيين الأحرار ، عندئذ وجد شريف باشا إن العزة الوطنية تحتم عليه ان يستقيل ولا يحنى رأسه .. فاستقال .

وتبدو أهمية هذا التصرف ، الذى يتسم بالاباء والشمم ويرسخ قيمة الأنفة الوطنيـــة اذا قورن بمســـلك غيره من أعمدة الحـكم الاسماعيلى الذين فرطوا فى كرامتهم أمام الأجانب ؛ وكانوا لا يرون بأسا من التدخل الأوروبى فى شئون مصر بحجة أن هذا التدخـل سيقلم أظافر الخديو ويخفف من غلواء حكمه المطلق .

●●●

أما الاستقالة الثانية فقدمها شريف باشا وهو رئيس الوزارة الوطنية التى شكلت فى أعقاب مظاهرة عرابى فى ميدان عـابدين (سبتمبر ١٨٨١) وكان من مطالبها اسناد الوزارة الى شريف باشا ؛ وكان شريف فى ذلك الوقت يتزعـم جنـاح المثقفين فى الحركـة العرابية التى تبلورت فى حزب سيـاسى يحمــل اسم (الحزب الوطنى) ويضم فى صفوفه كل الأحرار على اختـلاف نزعـاتهم السياسية والفكرية .

قد يكون من الغريب انضواء رجل مثل شريف يعتنق الفكر الليبرالى بين صفوف العرابيين الثوار ، ولكن من السهل تفهم ذلك اذا تذكرنا أن الحركة العرابية فى ذلك الوقت المبكر كانت تسلك منهجا سلميا مع النظام الحاكم ، وتحاول تحقيق مطالبها بالتراضى مع الخديو ، بدليل ان عرابى واخوانـه اعلنوا ولاءهم للخديو بعد

المظاهرة ، وكان الجناح الليبرالى فى الحركة يرى امكانية الحصول على المطالب الشعبية دون حاجة الى تدخل الجيش · ولم يكن هؤلاء الليبراليون على استعداد لتقبل فكرة تدخل الضـــباط فى شئون الحكم . لأن ذلك سيؤدى ـ فى رأى الرافعى ـ الى انتقال الاستبداد من يدى الخديوى الى أيدى العصبة العسكرية وتحول الجيش عن مهمته الأصلية ويشجع على انتشار الخلل والاضطراب فى البلاد ·

اذن فلم يكن من المتوقع ان يستمر التعاون بين شريف باشا رئيس الوزراء ، والجناح العسكرى فى المجلس ويمثله محمود سامى البارودى وزير الجهادية ، بل كان لا مفر من الشقاق بين الفصيلين مع تداعى الأحداث ، وردود فعل كل منهما ، ووقع الخلاف حين قدم شريف باشا نص الدستور للخـــديو توفيق ، فثارت ثائرة بريطانيا وتابعتها فرنسا ، لأن الدستور كان يعطى مجلس النواب حق اقرار الميزانية العـامة للدولة ـ الدولة المصرية وليس الدولة البريطانية (!!) ـ ورأى عتاة الاستعمار فى هذا النص مساســا بالنفوذ الأوروبى فأقنعوا الخديو توفيق بالامتناع عن اعلان الدستور · وأراد شريف ان يتلافى الصدام بين الخديو ومجلس النواب لعلمه أن الخديو سوف ينحاز الى الانجليز ويخضع لأوامرهم ·· فاقترح تأجيل البت فى البند الخاص بالميزانية ·· ولكن العرابيين رفضوا الاستجابة لرأى رئيس الوزراء الذى رفض أن يكون اداة فى يـد الجيش وزعمائه ، فاستقال من رئاسة الوزارة وخلفه محمود سامى البارودى وفى عهده مضت الثورة العرابية الى منتهاها ·

●●●

الوطنية والخيانة

ما هو الخط الفاصل بين الوطنية والخيـانة ٠٠ ؟ وما هى المساحة المشروعة التى يسمح لرجل السياسة بأن يتحرك فيها ٠٠ فاذا تجاوزها انتقل الى معسكر الخيانة ٠٠ وحقت عليه اللعنة ؟؟ وأين هو الميزان الذى نحتكم اليه قبل توجيه الاتهام بالخيانة الى الخصوم ؟؟

ان موقف شريف باشا من أحداث الثورة العرابية يفتح الباب لمناقشة هذه القضية الجوهرية ٠ والذى حدث ان الرجل كان يمثل الارستقراطية الزراعية فى جبهـــة الثورة التى ضمت أشتاتا من العناصر الوطنية الطامحة الى نمط جديد فى الحكم يقوم على انقاض نظام الحكم المطلق الموروث عن محمد على ٠ وكان الجناح الليبرالى فى حزب الثورة بزعامة شريف يرى امكانية تحقيق هذا الهدف عن طريق الدستور وقيام حياة نيابيـة ، ودون سيطرة الجيش على الحكم ، وكان تصرف شريف وشيعته فى هذه المسألـــة نابعا من اقتناعهم المبدئى بأن انتقال السلطة الى العسكريين سيؤدى الى قيام ديكتاتورية عسكرية على انقاض ديكتاتورية الخديو ٠ وكان البلاد سوف تنتقل من استبداد مدنى الى استبداد عسكرى ، لا تحمـــد

عواقبه ٠٠ فلما احتدمت الأمور بين العرابيين والخديو ، انسحب شريف من جبهة الثورة وظل يراقب الأحداث حتى تطورت على النحو المعروف : فشل الثورة ووقوع الاحتلال ٠ « عندئذ انتقل شريف الى معسكر الأعداء الذين خانوا الثورة » فالى أى مدى يمكن تقبل هذا الحكم الذى انتهى اليه الأستاذ صلاح عيسى عبر رحلة من البحث الشاق تضمنها كتابه المهم عن الثورة العرابية ؟

●●●

منذ البداية يرى صلاح عيسى ان شريف باشا تعاون مع الثورة وهو يضمر احتواءها تمهيدا لاجهاضها ٠٠ ودليليه على ذلك انه رفض ترشيح الثوار له لتشكيل الوزارة أثناء مظاهرة عابدين ، ولم يقبل الا بعد شروط اشترطها أهمها : ابعاد قادة الجناح العسكرى ، وحمل أعضاء مجلس النواب على الاعتدال فى مطالبهم ، وانتهاج سياسة الحزم مع الجيش والأعيان على السواء ٠٠ ويرى الباحث ان هذه الشروط تتلاقى مع مطالب الاستعمار لتهدئة الأحوال فى مصر والانتقال بها من مرحلة الهدنة الى مرحلة الاستقرار ٠ هذا هو دليل الاحتواء ٠٠ أما عملية اجهاض الثورة فقد تمت ــ فى رأى الباحث ــ عن طريق مخطط دبره شريف باشا يتمثل فى أنــه «كان يعتزم ان يجمع حوله اعضاء مجلس النواب ليصبحوا بالتدريج اصحاب السلطة التنفيذية المشروعة لتصريف الشئون الداخلية ، ويجردوا الجيش ــ بهذه الطريقة ــ من الصفة التى ادعاها لنفسه فى الحركة الأخيرة (يقصد مظاهرة عابدين) بغير حق ، بحيث يصبح النواب هيئة ممثلة للأمة يستطيع الخديو والحكومة الاعتماد على تأييدها ضد سلطـة الجيش ٠٠ » ٠

وأنت حين تقرأ فحوى هذا الاتهام لا تملك الا أن تتساءل : هل اسناد السلطة الى مجلس النواب المنتخب جريمــة فى حق الثوار الذين كانوا يطالبون بقيام برلمان منتخب على النسق الأوروبى ؟ وهل نعتبر قيام النواب بتصريف الشئون الداخلية خطوة نحو عملية اجهاض الثورة ؟ ام انه لا يجــوز قيام « ثورة » الا على اكتــاف العسكريين ؟ واذا امكن تحقيق المطالب الوطنية عن طريق مجلس النواب ودون تدخل المؤسسة العسكرية ٠٠ ألا يتم التغيير وتتحقق الثورة » ؟؟

وفى رأى صلاح عيسى ان اصرار شريف باشا على اقصــاء العناصر المتطرفة عن جبهة الثورة كان يهدف الى أمرين ، الأول : منع انجلترا من استغلال سيطــرة المتطرفين كحجــة للاحتــلال ، الثانى : القضاء على تخوف شريف باشــا من أن تؤدى سيطرة المتطرفين الى تحقيق المكاسب للطبقات التى تمثلهــا هذه العناصر على حساب الطبقة الارستقراطية التى يمثلها شريف ٠٠ وللرد على هذا التخريج نقول : ان الحيلولة دون وقوع الاحتلال البريطــانى هدف مقدس ٠٠ يهون من أجله أى تصرف ، حتى لو كان ابعــاد العسكريين عن الحكم ٠ فقد كان الاحتلال البريطانى نكبة عصفت بالأخضر واليابس وامتصت رحيق مصر لمدة سبعين عاما أو تزيد ، أما عن مسألة المكاسب الطبقية ، فقد أثبتت الدراسات التى اجريت حول الأصول الاجتماعية للعسكريين العرابيين أن معظمهم ينتمون الى الشريحة الوسطى من ملاك الأراضى ، وكان يجمعهم بالارستقراطية الزراعية حلف هدفه المشاركة فى الحكم ، ونقل ملكية أكبر مساحة من الأرض الزراعية من أيدى الأجانب الى ايدى المصريين ، فلم يكن ثمة خطر على الشريحة الوسطى من الشريحــة الأعلى ، وانما كان

الخطر من جانب الملاك الأجانب الذين اتسعت ملكياتهم فى عصر اسماعيل ، وبعد .. الا ترى أن مسألة الاتهام بالخيانـــة ليست بالبساطة التى نمارسها أحيانا ؟ ..

●●●

اسماعيل ٠٠ الأفريقى

كان الخديو اسماعيل يقول ان مصر قطعة من أوروبا ، وكان يعنى بذلك أن تأخذ مصر حظها من ثمار الحضارة الأوروبية فى العلوم والفنون والثقافة والتقنين ، وأن تحقن مصر نفسها بالمصل الحضارى حتى يشتد عودها ، وتقوى على مواجهة تيار الحضارة العالمية الذى بلغ عنفوانه فى منتصف القرن التاسع عشر ، وبدهى ، فان اسماعيل لم يقصد بهذا التعبير أن تنسلخ مصر من روحهـا الاسلامية والشرقية ، أو تجتث جذورها الضاربة فى عمق التاريخ ، فتصبح امتدادا لفرنسا أو تابعا لانجلترا ٠٠ فقد كان اسماعيل من الحكام القلائل الذين أدركوا سر الموقع الذى تشغله مصر فى قلب العالم القديم ، واستوعبوا رسالتها الحضارية الموروثة تجاه الشعوب المجاورة لها ٠

●●●

لم يكن اسماعيل أوروبى النزعة ، كما يبدو من مظهـــره المتفرنج ، ولكنه كان يؤمن بأن مصر قطعة من أفريقيا ، وأن مصر هى النافذة الشمالية التى تطل منها القارة السوداء على العـالم

المتمدين • وكان يؤمن بمصر القوية المعطاء ذات الاشعاع الحضارى الذى يحمل مشاعل العلم والمعرفة والعمران والتقـــدم الى قلب القارة ، وقد ورث عن جده العظيم محمد على طموحه الى تجديد شباب مصر ، كما ورث عن أبيه ـ البطل المغوار ابراهيم ـ فـكرة الكيان الكبير فى عالم احتدم فيه الصراع بين القوى الأوروبيـة الاستعمارية التى خرجت كالمارد تلتهم كنوز القـــارة الأفريقية ، وتبنى مجدها وقوتها من ثروات الشعوب المقهـــورة ، لقد نجحت القوى العظمى فى تدمير العســكرية المصريـــة التى دقت أبـواب القسطنطينية ، وأفلحت فى قص أجنحة ابراهيم باشا التى انتشرت على روابى الشام وصحراء الجزيرة وساحل الخليج ، وأخمدت النفوذ المصرى المتوهج وحصرته داخل حدوده الضيقة • فجاء اسماعيل بعد ربع قرن ليستأنف حركة الفتوح المصرية ، ولكنه ولى وجهه شطر أفريقيا لثقته بأن البعد الأفريقى هو المجال الطبيعى للحضارة المصرية، وتوالت الحملات المصرية فى عمق القارة وشرقها •• فى وادى النيل وعلى ساحل البحر الأحمر ، تحمل مشاعل الحضارة ، وتقيم أسس العمران والمدنيـــة ، فارتفعت المآذن وبنيت المســاجد والمدارس والمستشفيات وشيقت الطرق البرية والسكك الحديدية ، وامتــدت أسلاك البرق والهاتف والبريد ، واستصــلحت الأراضى وانتعشت الزراعة والصناعة والتجارة ، واستتب الأمن والنظام ، وقامت نظم الادارة الحديثة حتى قال السير صمويل بيكر : ان السائح الأوروبى يمكنه أن يجوب تلك الأصقـــاع البعيدة دون أن يخشى على نفسه أكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس فى حديقة هايد بارك بلندن •

●●●

لم تكن حملات مصر على عهد اسماعيل استعمـــارا بالمعنى

الأوروبى البغيض ، ولكنها كانت تعميرا وتنويرا بالمعنى المصرى الموروث ، ويكفى هذه الحملات فخرا أنها استهدفت ازالة أحط وصمة فى تاريخ القارة الأفريقية ، وأعنى بها تجارة الرقيق ، فأخذت تتعقب هذه التجارة الممقوتة ، وتتصدى لمن يقف وراءها من أمراء وشيوخ قبائل وزعماء يتمتعون بالسطوة والنفوذ ويجنون منها ثروات طائلة ، ويكفى أن تعلم أن الدور المصرى فى مقاومة تجارة الرقيق كان من أسباب قيام الثورة المهدية وانقضاض الزعامات المحلية على الوجود المصرى فى السودان ، فقد هال كبار المزارعين التغيير الفجائى فى النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد الذى كان يعتمد اعتمادا رئيسيا على سواعد الرقيق ، وبعض المؤرخين يرى أنه كان ينبغى على اسماعيل أن يعالج مسألة الرقيق بالتدريج حتى لا تؤدى الطفرة الى هزة فى النظام الاقتصادى .

●●●

وأيا كان الرأى فى مسألة الرقيق ، فان الدور الحضارى المصرى مضى فى طريقه المرسوم طوال السنوات الأولى من حكم اسماعيل ، ومدت مصر نفوذها الى قلب القارة حتى منطقة البحيرات الكبرى (فكتوريا وألبرت) وفتحت مديرية فاشودة فى جنوب السودان ، واكتشفت بحيرة اطلقت عليها اسم (ابراهيم) ، وفتحت اقليم خط الاستواء ومملكة (اونيورو) وبسطت حمايتها على مملكة أوغندا وأعرب ملكها (أمتيسى) عن ولائه للعرش المصرى ، وعقد مع ممثل مصر معاهدة فى سنة ١٨٧٤ اعترف فيها بوضع مملكته تحت حماية مصر ، وأرسلت المعاهدة الى اسماعيل الذى أبلغ الدول أن مصر ضمت اليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت ، وفتحت مصر اقليم بحر الغزال ثم سلطنة دارفور ، واتسعت أملاكها بين الحبشة والبحر الأحمر وضمت محافظتى زيلع وبربرة

الواقعتين على خليج عدن فيما وراء باب المندب ، كما ضمت محافظتي سواكن ومصوع (عاصمة ارتيريا) ثم سلطنة (هرر) في الجنوب الشرقي من الحبشة . ودخلت سواحل الصومال-الشمالية في أملاك مصر حتى رأس (جردفون) على المحيط الهندى ، وبذلك انفسحت رقعة الأملاك المصرية سواء في وادى النيل حتى منطقة البحيرات ، أو على ساحل البحر الأحمر حتى المحيط الهندى ، وأصبح الساحل الغربى للبحر الأحمر من السـويس حتى باب المندب ، ومن باب المندب الى ساحل المحيط الهندى من ممتلكات مصر .

●●●

تلك كانت حدود مصر فى عهد اسماعيل ، فاستحق تمجيد المؤرخين الوطنيين له ، ومنهم الرافعى ، الذى وصف فتوح اسماعيل فى أفريقيا بأنها من مآثره التى تخلد ذكره فى تاريخ مصر القومى ، واستحق نقمة بريطانيا التى كانت ترقب بفزع تحركات مصر فى أفريقيا ، ولم يرقا لها جفن حتى أجهضت هذه الفتوح بعزل اسماعيل وبطرده من مصر عام ١٨٧٩ ثم باحتلالها مصر عام ١٨٨٢ ، وبدأت عملية تصفية ممتلكات مصر فى أفريقيا ، وعادت مصر الى عزلتها .. تلعق جراحها .. وتبكى حظها .. وتتذكر أيام مجدها القديم ..

صعيدية من لندن

كانت (لوسى دف جوردون) من الأجنبيات القليلات اللاتى وقعن فى غرام مصر فاحببنها حبا خالصا واتخذتها موطنا وسكنا ، وقد حتمت الأقدار على لوسى ان تقضى فى مصر السنوات السبع الأخيرة من عمرها فيما بين سنتى ١٨٦٢ ـ ١٨٦٩ فاندمجت فى نسيج المجتمع ، وخالطت الفلاحين فى قراهم الكئيبة ، وعاشت أوجاعهم وبؤسهم بلا استعلاء أو غطرسة ، حتى وصفت نفسها بأنها مصرية عربية ، ووصفها البعض بأنها مسلمة ، ورغم أنها عاشت فى الأقصر بين أحضان الآثار القديمة ، الا ان هذ الآثار لم تقع فى بؤرة شعورها مثلما حدث لمعظم الأجانب الذين استوطنوا مصر ، ولأنها كانت تؤمن بأن الأحياء أجدى من الأموات فقد صرفت كل همها فى مخالطة أحفاد الفراعنة وهم يعانون الضنك والشقاء والتعاسة ، وكانت تدفعها رغبة جياشة فى التشبث بالحياة ، والانتصار على المرض اللعين الذى ينهش صدرها ، وجمعت بينها وبين أهل مصر وحدة الألم ، وقوة الانتصار على العدم ، فأقبلت على الحياة بكل طاقتها ، ورحب بهما أهل الأقصر ترحيبا حارا ، وأنزلوها منزلة التكريم ، وأطلقوا عليها من الألقاب ما يتكافأ مع نبلها ، فقد كانت تستقبلهم فى بيتها والبشاشة تملأ وجهها

فسموها « البشبوشة » ، ورأوها تشاركهم احتفالهم بموالد الأولياء فسموها « الشيخة » وتلقوا العلاج على يديها فسموها « نور » .

كانت لوسى تنتمى الى عائلة انجليزية ارستقراطية ، فقد كان أبوها أحد رجال الفقه القانونى بجامعة لندن ، وكانت أمها على درجة عالية من الثقافة وكان بيتهما ملتقى كبار رجال الفكر والسياسة والأدب من أمثال شارلز ديكنز وتوماس كارليل وجيمس ميل والد المفكر السياسى الشهير جون ستيوارت ميل الذى كان رفيق صباها ، وهيأت هذه البيئة للفتاة نضجا عقليا وذهنيا ، وألسبتها خصالا راقية تتمثل فى حب العدل والتسامح وشجاعة الرأى والنظر الى الأمور نظرة موضوعية خالية من التعصب والهوى . فلما بلغت لوسى سن الزواج اقترنت بالسير اكسندر دف جوردون وأنجبت منه ابنة ، وطافت الأسرة فى أنحاء القارة الأوربية وهى يومئذ تفور بالجدل والصخب فى أعقاب الزوبعة التى خلفتها حروب نابليون ، وشاركت لوسى فى هذه الحياة الفكرية الخصبة ، وبينما هى تخوض هذا المعترك الثقافى تمكن منها داء السل اللعين وهى فى ريعان الشباب فى وقت لم يكن الطب قد توصل بعد الى علاجه علاجا ناجعا ، فنصحها الأطباء بالابتعاد عن الأجواء الباردة فذهبت الى جنوب افريقيا ، ولكنها لم تتقدم صحيا ، فعادت الى انجلترا فنصحوها بالذهاب الى مصر ، فشدت الرحال الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة ، ثم أقلها مركب نيلى الى صعيد مصر حيث استقر بها المقام فى الأقصر وأقامت فى بيت يسمى (بيت فرنسا) يقع على تل من الرمال كان يغطى معبد الأقصر ويطل على مسجد أبى الحجاج من ناحية ، ويطل على النيل من ناحية أخرى .

وفى هذا البيت العتيق الذى كان أشبه بالدوار عاشت لوسى حياة غاية فى البساطة ، تتودد الى الناس ، وتعطف على الفقراء ، وتعالج المرضى ، وتناقش العلماء والمشايخ ، وتشارك الناس أفراحهم

فتغمر نفسها السعادة ، وتقاسمهم تعاستهم فتذوب روحها أسى ولوعة ، وعلى مدى السنوات السبع التى عاشتها ظلت رسائلها تتوالى على زوجها وأمها وابنتها تحكى فيها كل صغيرة وكبيرة من حياتها فى قاع المجتمع المصرى ، وتقدم صورة واقعية للحياة الريفية بلا زيف أو مبالغة ، وقد بقيت هذه الرسائل وديعة عند أسرتها فى انجلترا حتى أخرجها الى النور أحد أحفادها فنشرها فى مجلد أنيق فى عام ١٩٦٩ بمناسبة مرور مائة عام على وفاتها ، وقد ترجمها الى العربية المؤرخ المعروف أحمد خاكى ونشرها فى كتاب تحت عنوان (رسائل من مصر) وهو يرى فى الرسائل وثيقة قيمة للتاريخ الاجتماعى تصف قطعة من حياة الريف المصرى فى أواسط القرن التاسع عشر ، بل يراها من بعض نواحيها وثيقة دينية وسياسية يجدر بالباحثين فى التاريخ ان يعيروها دراسة دقيقة ، لأن دراسة المجتمع نفسه واحساسات أفراده وتصرفاته من الزم ما يكون للمؤرخ ، وقد استطاعت رسائل (لوسى دف جوردون) ان تقدم لنا هذه المعلومات الدقيقة لأنها كانت تحكى الأحداث الصغيرة التى كانت تصادفها ، وكانت لوسى دائبة على التجوال فيما حولها من القرى ، والاستماع لما يلقيه عليها القوم من قصص فتكتبها الى زوجها أو أمها أو ابنتها • وباحث التاريخ يستطيع ان يجد انه كان هناك تفاعل بين الحكومة المركزية فى القاهرة وهذه القرى النائية فى صعيد مصر ، فقد كان الأهلون متأثرين بسياسة الحكم فى بداية عصر اسماعيل ، فالرسائل اذن وثيقة سياسية اجتماعية تعرض خبرات شخصية مباشرة ، وهى من ناحية أخرى وثيقة دينية لأنها تتحدث عن أثر الاسلام فى المصريين ـ ولكن وراء هذا الأثر ما تأصل فى ثقافة المجتمع المصرى من أثر التاريخ الفرعونى ومعتقدات الفراعنة •

وعندما أدركت لوسى ان الموت يسرى فى جسدها ، تقبلت حكم القضاء بروح راضية ، وأبحرت بها السفينة شمالا من الأقصر الى حيث توقفت قبالة حلوان ، والتف من حولها بحارة السفينة وخادمها الأمين (عمر أبو حلاوة) الذى ظل الى جوارها طيلة السنين السبع ، وكتبت آخر رسائلها الى زوجها تقول فيها : لا تبتئس ولا ترسل الى ممرضــة ، فأنا ألقى من العنـاية ما هو فى الأمكان ، والريسان (رمضان) ، و (يوسف) قويان عطوفان ، أما (عمر) فهو كما كان دائما ، لقد بلغ بى الألم الجثمانى ما لا أود أن يشهده الآخرون ٠٠ بارك الله فيك يا أعز الأحباب ٠٠ كم هو مؤسف انك لم تقم بما كنت قد عزمت عليه من قدومك الى أعلى صــفحة نهر النيل ٠٠ قبل لى كل أحبائى ٠٠ وتشارلى العزيزة ٠٠ اننى أشفق على عينيها ٠٠ أظن اننى لا أستطيع ان أجيد الكتابة ـ فخطى ردىء ـ فأنا مجهدة مسهدة فارقنى النوم وصدرى يتمزق من السعال ٠٠ اغفر لى أخطائى ٠٠ كم وددت لو اننى رأيت وجهك العزيز مرة أخرى ٠٠ لكننى لست أود ذلك الآن ٠٠ لست أريدك الآن هنا بأية حال من الأحوال ٠٠

. . . . . .

وفى اليوم التالى كتبت صورة برقية الى زوجها تنعى فيهــا نفسها ٠٠ وتركت فراغا بين الكلمات يكتب فيه تاريخ الوفاة ٠٠ وانتابتها نوبة شديدة من السعال فاستسلمت لأمر الله ٠٠ وكانت آخر كلماتها « لتكن مشيئتك » وبعدها أسلمت الروح ٠

عصر الشهداء

كانت الكنيسة المصرية منذ نشأتها حصنا للوطنية ، ورمزا للصلابة والصمود فى وجه السيطرة الأجنبية الدخيلة ، ومقاومة العقائد الوثنية الفاسدة ، وعلى امتداد عهود القهر الرومانى ، التى استطالت سبعة قرون الا ربع قرن ، كان المصريون يلوذون بكنيستهم كلما أوجعتهم ضربات الرومان ، فيجدون فى رحابها طمأنينة الايمان واستقلال الرأى والضمير ، ورفض الذل والمهانة ، والتمرد على جبروت الحاكم مهما كانت فظاعة البطش والتنكيل ٠

فى كنيسة الاسكندرية امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية ، فأكسبها ذلك قوة روحية ومادية جعلت منها ندا مناوئا للامبراطورية الرومانية فى وقت بلغت فيه هذه الدولة غاية القوة والاقتدار وآلت الى ممتلكاتها دول ذوات مجد عريق ومنها مصر ، وتحول أبناء العز القديم الى اتباع وعبيد للأراض ، يعملون ويكدحون من أجل مجد روما ، ورفاهية السادة الأشراف الذين جعلوا من الامبراطور الها يعبد وتقدم له القرابين ، ولفقوا من بقايا العقائد الوثنية الرجعية دينا فرض على شعوب الامبراطورية أن يعتنقوه ٠

فى ذلك العصر الوثنى الكئيب ، كان المصريون ينكفئون على

ذواتهم فيجدون نفحات الايمان تسرى فى أوصالهم منذ عرفوا عقيدة التوحيد قبل قرون من ظهور نجم روما وبيزنطة ، فلما ظهرت النصرانية دينا الهيا يدعو الى عبادة الاله الواحد الصمد ، ونبذ عبادة البشر لاذ به المصريون واعتنقوه • وأصبحت مصر مصدر قوة واشعاع للدين الجديد ، منها تخرج قوافل التبشير ، وفى صحاريها الصامتة تقام صلوات وصوامع وبيع يذكر فيها اسم الله ، وظهرت الرهبانية احتجاجا عمليا على السلطة الوثنية التى ترغمهم على ما يكرهون ، وهج الرهبان الى فجاج الصحراء فرارا بدينهم من طغيان دولة لا يضمرون لها سوى البغض والاحتقار ، ولا تضمر لهم سوى المهانة والاذلال •

عندئذ أدرك الأباطرة أن المسيحية هى الأفعى التى تهدد مجد الامبراطورية • وأن رأس الأفعى هى مصر ، ولذا كان نصيبها من العنت والاضطهاد متناسبا مع دورها الطليعى فى زعزعة أركان الامبراطورية سواء فى مجال العقيدة الدينية أو فى مجال السلطة الزمنية ، فانهالت مطارقهم على رأس الكنيسة لما كانت تحمله من روح العناد وبث نزعة التمرد فى نفوس المصريين ، فلما جاء عام ٢٨٤ ميلادية اعتلى عرش بيزنطة الامبراطور دقلديانوس ، فاقسم برأس آلهته الوثنية أن يؤدب المصريين أدبا يجعلهم عبرة لكل متمرد جسور ، وجاء بنفسه الى مصر شاهرا سيفا ظل يعمله فى رقاب المسيحيين حتى سالت دماؤهم انهارا ، وبر بالوعد والوعيد الذى قطعه على نفسه بأن تغوص سنابك خيله فى بحر من دمائهم ، ولقد تحمل المصريون هذه المجزرة الرهيبة بما فطروا عليه من صبر على المكاره ، وثبات فى الشدة ، حتى اذ انجلت المحنة كان حريا بالأقباط أن يجعلوا من سنة ارتقاء هذا الامبراطور المفترس عرش بيزنطة بداية للتقويم القبطى ، وأن يجعلوا من دماء الشهداء التى أريقت

بداية لحلقة جديدة من التاريخ المصرى المجيد ، وهى الحلقة المعروفة بعصر الشهداء ٠

ولقد ذهب دقلديانوس ، وجاء من بعده أباطرة اعترفوا بالنصرانية بعد أن رفعوا عنها الاغلال ، ثم جاء من بعدهم أباطرة اعتنقوا النصرانية ، وجعلوا منها دينا رسميا للامبراطورية ، وقامت فى بيزنطة كنيسة خلعت على نفسها صفة القيادة والريادة لما سبقها من كنائس ، وكان المفترض أن يتوقف اضطهاد المصريين بعد هذا التحول الكبير فى ديانة الدولة المتسلطة ، ولكن الاضطهاد لم يتوقف من جانب الرومان ولم يتوقف السخط والعناد من جانب المصريين ، وكان سبب الصراع الجديد يرجع الى الخلافات المذهبية التى نشأت بين الفرق المسيحية حول طبيعة السيد المسيح ، لقد تغير سبب الاضطهاد ولم يتغير نوع الاضطهاد الذى شقى به المصريون فى ظل دولة تزعم أنها تعتنق المسيحية ، كانت كنيسة بيزنطة الرسمية تستنكف أن يبقى لكنيسة الاسكندرية سلطانها الروحى والأدبى الذى صنعته عبر أجيال وأجيال من صمودها وثباتها فى وجه الطغيان ٠ وكانت الكنيسة المصرية تتمسك باستقلالها الدينى والوطنى وتأبى ان تساوم على رأيها فى قضية تتعلق بالعقيدة لمجرد الاذعان والخضوع لسلطان الكنيسة الامبراطورية ٠

وحين اكتشف الأباطرة ان هذا الخلاف المذهبى هو غطاء يخفى تحته ضغائن المصريين تجاه الدولة الحاكمة ضاعفوا من ضرباتهم لأتباع الكنيسة الوطنية وأبعدوهم عن الوظائف العامة حتى يضربوهم فى أرزاقهم ويرغموهم على النزول عن كبريائهم ، ولكن كل هذه الضغوط لم تفلح فى زحزحة المصريين عن عنادهم أو تغيير موقفهم الرافض للسيادة الرومانية على مقدراتهم الدينية والوطنية وفى ذلك يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد ٠

« ان اللازمة التى لا فكاك منها تبرز على الأثر كلما اجتمعت

الأسباب اللاهوتية والأسباب القومية فى جانب ، وهـــذه القوة المتجمعة من غيرة الدين وحماسة القومية هي التي اعتصم بها المصريون زمنا فى وجه الدولة الرومانية قبل ايمانها بالمسيحية ، وبعد ايمانها بالمسيحية ، لقد اضـطهد المصريون من قبــل من جانب الأباطرة والقياصرة الوثنيين والمتدينين ، ولم يكن هذا الاضطهاد خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، فلما وجدت للمصريين كنيسة قائمة ․․ وكانت هى الدين والدولة فى وقت واحد ، أو كانت هى الزعامة التى تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانها ومشيئتها فى وجه القوة المفاجئة » ․․

حتى اذا أوشكت شمس الامبراطـورية على الغروب ، كان الخلاص منها قد أصبح حلما يساور زعماء الكنيسة الوطنية ، وساد الناس شعور واحد وهو شعورهم بالغضب الالهى على هذه الدولة الظالمة وانتظار الجزاء العادل من الله ، فلما تقدم المسلمون لحرب الروم شاع فى المشرق كله أن هزيمتها حق ، وان غلبة المسلمين عليها عدل ، وان القضاء الالهى ينفذ فى مستحقيه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية ․

خير أجناد الأرض

كان المصريون على موعد مع الفتح الاسلامى بحكم الجوار للارض المقدسة وقد ترامت الى أسماعهم أنباء الهزائم المتواترة التى منيت بها الجيوش الرومانية فى الشام وفلسطين ، وبلغتهم مأساة هرقل وقد أرغم على الجلاء عن القدس فوقف على أسوارها يلقى عليها نظرة الوداع الأخير وفى عينيه دموع الذل والانكسار ، وتناقل المصريون فيما بينهم قصة الخليفة عمر بن الخطاب الذى حضرته الصلاة وهو فى صحن الكنيسة الكبرى ببيت المقدس فغادرها ليصلى على درجها منفردا حتى لا تؤول الى ملكية المسلمين ذكرى لصلاة الخليفة فيها ، وتسامع المصريون بصيغة العهد الذى كتبه الخليفة المنتصر لبطارقة بيت المقدس واعطاهم فيه الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم : لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، حتى الروم المهزومون شملهم العهد فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه ، ومن أقام منهم فهو آمن ٠

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها المصريون عن الاسلام والمسلمين ، فقد تلقى المقوقس رسالة النبى صلى الله عليه

وسلم التى يدعوه فيها الى الاسلام ، وتلقى النبى جواب المقوقس مؤذنا بالأمل غير قاطع بالاباء ، اذ يقول فيها : « فهمت ما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام ٠٠ وقد أكرمت رسلك وبعثت اليك بجاريتين لهما مقام فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام » ٠ وقال النبى لصحابته الأقربين « ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » ثم قال : « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض » فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولم يا رسول الله ٠ قال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » ٠

فمصر لم تكن بعيدة عن الدعوة المحمدية منذ البداية ، ولم يكن الاسلام طارئا مفاجئا لمصر عندما أشرفت عليها جيوش المسلمين « فما كان من مسلم فى حياة النبى عليه السلام ، أو بعد وفاته ، الا وهو يعلم أن مصر مفتوحة للمسلمين على يقين ، وانما هو الأوان المحتوم ، فى يوم غير معلوم » على حد تعبير الأستاذ العقاد ٠ ولقد جاء الأوان المحتوم وليس فى مصر من يود بقاءها فى حوزة الدولة الرومانية بعد الذى كان منها من طغيان وجور وظلم ، كل ذلك أسماء الى المصريين فى دينهم ودنياهم وجعلهم يتعجلون اليوم الدى تزول فيه هذه الدولة الظالمة ، فلما تقدم جيش الخلاص بقيادة عمرو بن العاص رحب به المصريون وقدموا له كل ما فى مكنتهم من عون ٠ وفى ذلك تقول الدكتورة سميرة بحر فى كتابها (الأقباط فى الحياة السياسية المصرية) : ولا شك أن أقباط مصر قدموا العون للمسلمين أثناء فتحهم لمصر ، وان كان هذا لا ينفى حدوث بعض المقاومة ، فمن الواضح انه لم يكن للأقباط مصلحة فى الدفاع عن سيد (الدولة البيزنطية) الذى أذاقهم مر العـذاب فى محاولته القضـــاء على استقلالهم ٠

ومع الفتح الاسلامى بدأت حلقة جديدة من حلقات التاريخ المصرى أهم ما يميزها روح التسامح وحسن العشرة بين أتباع محمد واتباع المسيح ، واختفت صور الاضطهاد التى شغلت التاريخ القبطى طوال عهد الاحتلال الرومانى ، ولم نسمع على مدار التاريخ الاسلامى عن حادث مشابه لتلك الفظائع التى أودت بحياة الكثير من الأقباط وجعلتهم فى عداد الشهداء الذين تعتز الكنيسة بسيرهم ، وتحرص على ذكر بطولاتهم فى اجتماعات الصلاة الدورية ، فلا يمضى شهر دون الاحتفال بذكرى واحد منهم ، وكان موقف الحكام المسلمين فى ذلك متمشيا مع مبادىء الاسلام التى تقوم على أساس من احترام العقائد ، ورفض القسر والاكراه فى أمور الدين ، وجاء النص القرآنى صريحا فى تحريم الاكراه ، ولم يكن لأى حاكم مسلم مهما بلغ من الجبروت أن يجبر أحدا على الاسلام ٠

وفى ظل الاسلام استعاد المصريون نزعتهم الأصيلة فى الاعتدال وكراهة التعصب ، وتشربوا عناصر التراث الاجتماعى والثقافى فى العادات والتقاليد حتى ليصعب على الغرباء تمييز المسلم عن المسيحى فيما يمارسه من عادات فى أفراح الزواج والولادة والمآتم والجنازات والمعيشة اليومية ، وقد لفتت هذه الظاهرة نظر جبـار الاحتلال البريطانى ــ كرومر ــ فأشار اليها فى كتابه (مصر الحديثة) بهذه الكلمات : القبطى الحديث من قمة رأسه الى أخمص قدميه فى السلوك واللغة والروح مسلم ، وان لم يدر كيف ؟ فالقبطيـات محجبات كالمسلمات ، والأطفال الأقباط تاقلموا بشكل عام ، وعادات الزواج والوفاة مشابهة لتلك المتبعة لدى المسلمين ٠

ويضيف الدكتور ميلاد حنا الى هذه الصورة بعض الرتوش الفولكلورية فيقول : ولقد أوجد التاريخ المشترك والتواجد المتداخل أعيادا دينية مشتركة ، فالأيام الأولى للسنة الهجرية (عاشوراء) يحتفل بتقاليدها فى أغلب بيوت الريف المصرى الأقباط والمسلمون

وعندما يحل المولد النبوى يطالب الطفل القبطى بالحصان وتبكى الطفلة القبطية لتحصل على (العروسة الحلاوة) ويجمع شم النسيم الذى يأتى عقب عيد القيامة مباشرة كلا من الأقباط والمسلمين انطلاقا من تراث يعود الى أيام الفراعنة وعيد الحصاد • وحول ضريح سانت تريزا تتجمع المسلمات والقبطيات وفاء لنذر أو طلبا لحاجة •

وعلى اختلاف عهود الحكم الاسلامية كان الأقباط موضع التقدير والاعزاز من جانب الحكام ، وبلغ بعضهم فى المناصب العليا شأوا عظيما ، مثل عيسى بن نسطوروس الذى كان وزيرا للخليفة الفاطمى العـــزيز بالله بن المعز لدين الله ، وفى الحـكم التركى المملـوكى شغل بعض الأقباط مناصب رفيعة ، يقول الدكتور زاهر رياض فى كتابه (المسيحيون والقومية المصرية) ان الأقباط كانوا من أشد المقربين الى على بك الكبير والى مصر فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، فقد كان المعلم رزق اليد اليمنى لعلى بك ، واليه يرجع الفضل فى التنظيم المالى الذى استند اليه على بك سواء فى مصر أو فى سوريا ، كما كان المعلم يعقوب والمعلم الياس بقطر أكبر عون لمراد بك فى محاولة الخروج على السلطان •

ومن الشخصيات القبطية المرموقة قبل عصر محمد على المعلم ابراهيم الجوهرى الذى يصفه الجبرتى بأنه كان رجلا عظيما فى خلقه وفى عمله سخيا كريما •

أما أخوه جرجس الجوهرى فقد كان أحد البارزين فى دولة محمد على الى جانب المعلم رزق أغا الذى تولى حكم الأقليم الواقع وراء فرع دمياط ، والمعلم غالى الذى عهد اليه بمسح عموم أراضى مصر ، وبطرس غالى أغا ناظر شونات الغلال ، وعيد فرج أغا حاكم دير مواس ، وميخائيل عبده حاكم الفشن ، ومكرم أغا حاكم أطفيح ، وتكلا سيداروس حاكم بهجورة وأنطون أبو طاقية فى الشرقية ،

وعبود كاتب الخزانة ، وكان الباشا يحبه ويثق به ويقول له « لولا الملامة لقلدتك الدفترداريه » وهو المنصب الذى كان يتولاه ابنه ابراهيم باشا ٠

يابهية وخبرينى ٠٠ !

انتشرت فى أرجاء مصر فى بداية هذا القرن أسطورة (ياسين وبهية) ، وشاعت على ألسنة الجماهير أغنية : يا بهية وخبرينى ٠٠ عاالى قتل ياسين ٠٠ ! حتى باتت جزءا من التراث الشعبى كسيرة أبى زيد الهلالى وأدهم الشرقاوى وحسن ونعيمة ٠٠ يتغنى بها شاعر الربابة فى المقاهى الشعبية ، وفى حلقات السمر التى يقيمها الفلاحون فى جرن القرية خلال أمسيات الصيف الندية ، وتتملكهم النشوة وهم يتابعون بطولات ياسين وأعماله الخارقة من أجل مقاومة الظلم ونصرة البؤساء ، ثم يخيم عليهم الحزن حين يفجعون بمصرعه على أيدى « السودانية من فوق ظهر الهجين » ٠

وظلت أسطورة ياسين وبهية مجالا خصبا لخيال المؤلفين عبر الأجيال ٠٠ كل جيل يضيف اليها ما يوافق ظروفه السياسية والاجتماعية ، ويحقق حلم الشعب فى ظهور البطل حتى لو كانت القصة الأصلية خالية من كل عناصر البطولة والشرف ، وقد يدهش أصدقاء ياسين اذا عرفوا أن بطلهم الأسطورى لم يكن سوى مجرم سفاح يحترف مهنة القتل بالأجر ويتعيش من دماء الضحايا والأبرياء ٠٠ وسوف تزداد دهشتهم اذا عرفوا ان قاتل ياسين هو

المجاهد الاسلامي المعروف اللواء محمد صالح حرب باشا وزير الحربية ورئيس جمعية الشبان المسلمين يرحمه الله ٠

وقبل الحديث عن القتيل ٠٠ نتحدث عن القاتل ٠

ولد اللواء محمد صالح حرب فى احدى قرى (دراو) بمديرية أسوان من أب كان يعمل مديرا للخبخانة (مخزن السلاح) فى أسوان ، وينحدر من أصل سودانى من دنقلة ٠ ودخل الصبى المدرسة الابتدائية فى أسوان وكان زميله فى الفصل الكاتب العملاق عباس محمود العقاد ، وبعد حصولهما على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٣ انطلق العقاد نحو العاصمة باحثا عن المجد فى عالم الأدب والصحافة ، أما صالح حرب فقد آثر الجيش ليحقق أمنيته فى أن يكون قائدا مرموقا ، فالتحق بمدرسة خفر السواحل ، وبعد تخرجه فيها اشتغل فى الصحراء الغربية وذاق الأمرين من صلف الضباط الانجليز الذين كانت لهم السيادة الكلية على الجيش مما غرس فى نفس الضابط الشاب بذور الكراهية للاستعمار خصوصا بعد قيام الحرب العالمية الأولى ، وفى عام ١٩١٥ ظهرت الحركة السنوسية فى ليبيا بقيادة أحمد الشريف السنوسى لمقاومة الاحتلال الايطالى ، ففر صالح حرب الى بنى غازى واندمج فى الثورة السنوسية ، حتى أصبح قائدا لجيوشها فحكمت عليه السلطات البريطانية فى مصر بالاعدام ، وكانت الخلافة العثمانية فى ذلك الوقت تعانى سكرة الاحتضار فى مواجهة قوات الحلفاء ، وأصبحت فى حاجة الى مساندة الحركات الاسلامية الفتية ، فبعث الخليفة وحيد الدين غواصة تركية حملت الشريف السنوسى وصالح حرب وأعوانهما الى استانبول ، ولكن الأحداث تلاحقت بسرعة رهيبة فانهارت المقاومة العثمانية ودخلت جيوش الحلفاء عاصمة الخلافة ، ففر السنوسى وصالح حرب الى الأناضول ، وعملا مع قوات كمال أتاتورك فى مقاومة الاحتلال البريطانى ، وظل صالح حرب ــ وكان له من اسمه نصيب كبير ــ

يحارب فى صفوف الثورة الكمالية حتى تم لها النصر على الخلفاء وأطاحت بالخلافة الهزيلة ، وفى تلك الأثناء كانت ثورة مصر ١٩١٩ قد أتت ثمارها ، وشكل سعد زغلول أول وزارة وطنية ، وكان من أوائل أعماله اصدار مرســـوم بالعفو عن السياسيين المسجونين والمنفيين ، فعاد صالح حرب الى وطنه ، وانضم الى صفوف الوفد ورشحه سعد زغلول فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٦ فى مسقط رأسه أسوان فنجح واستطاع أن يحصل لابناء دائرته على مرسوم بمجانية التعليم ، وبعـد حل المجلس عين وكيـلا لمصلحة السجون ثم مديرا لخفر السواحل ثم وزيرا للحربية فى حكومة على ماهر التى تشكلت عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية ، ثم اختتم حياته العامة رئيسا لجمعية الشبان المسلمين التى تحولت فى عهده الى بؤرة للاشعاع الدينى والثقافى حتى لقى وجه ربه فى عام ١٩٦٨ فكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الجهاد ضـد الاستعمار والكفاح من أجل رفعة الاسلام .

●●●

أما عن قصة الرجل مع ياسين فقد تضمنتها مذكراته التى نشرها الدكتور محمود دياب فى كتابه (أبطال الكفاح الاسلامى المعاصر) وقد وقعت أحداثها حين كان صالح حرب فى بداية حياته العملية بالجيش وذهب الى وادى حلفا ضمن بعثة عسكرية لشراء سرب من الجمال للخدمة فى سلاح الهجانة . وفى أثناء عودة الضابط الشاب على رأس قطيع الجمال تسامع عن قصة ياسين .. أعنف شقى وأجرأ مجرم مشى على أرض مصر فى زمنه ، فقد اتخذ القتل حرفة ، وازهاق الأرواح تسلية .. وكان يطرب كل الطرب عندما يسمع اسمه يردده الناس فى خوف وفزع وهلع ، ويتمنى أن يكون مثل أبو زيد الهلالى .. وامتد نشاطه الاجرامى على طول مديريتى قنا

وأسوان ٠٠ وفشلت جميع الحملات التى أوفدتها الحكومة للقبض على ياسين حيا أو ميتا ٠

وبينما كان الضابط الشاب صالح حرب يستريح مع قطيعه من الجمال فى بعض الأودية المتاخمة لجبال أسوان ، أبلغه أحد أتباعه أنه رأى بدويا نائما على بطنه عند احدى المغارات وفى يده بندقية ، فلما ذهب يستطلع الخبر فوجئ بوابل من الرصاص ينهمر من ناحية المغارة فأدرك على الفور أن القدر وضعه وجهـا لوجه أمام ياسين ، وانه لن يخرج من المنطقة كما دخلها ٠٠ فاما قاتلا واما قتيلا ٠٠ وخطرت للضابط الشاب فكرة جريئة ٠٠ فاستدار نحو قمة التل الذى يعلو فتحة المغارة وأسـقط حبلا تتدلى منه حزمة من البوص المشتعل ، وحملت الريح الدخان الى فوهة المغـارة وشعر ياسين بالاختناق فاضطر الى الخروج منها ، ودارت معركة حامية الوطيس ٠٠ « وكان سلاح الهجانة فى ذلك الوقت سلاحا بارعا فى التنشين الماهر واصابة الهدف ، فاذا أربع رصاصات فى المليان ٠٠ ورأينا الشقى يلقى بسلاحه ، فجرينا نحوه ، فاذا به قـد انتهى بعد أن استقرت احدى الرصاصات فى قلبه ٠٠ ودخلنا المغارة المظلمة على أعواد الثقاب ٠٠ ففوجئنا بامرأة تصرخ ومعهـا طفل يولـول ٠٠ فأخرجناهما ، واتضح ان المرأة المسكينة زوجة الشقى ، والولد ابنه ، فلما علمت الزوجة بمقتل ياسين اندفعت تزغرد وتقول فى حماس : بركة لى ٠٠ بركة لى ٠٠ وحسبت أنها تتصنع الفرح خوفا منا ٠٠ ولكنى علمت انها جادة لأنها كانت تعيش معه فى خـوف وبـلاء ٠٠ » ٠

وانتهت حياة ياسين ٠٠ السفاح المحترف ٠٠ وبقيت أسطورته فى وجدان الجماهير التى تبحث دائما عن بطل يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، فاذا لم تجده فى الحقيقة ٠٠ صنعته فى الخيال ٠

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

في غضون العام الأخير من القرن التاسع عشر طالع الرأى العام المصرى على صفحات (المؤيد) سلسلة من المقالات الجريئة تتحدث عن طبيعة الاستبداد السياسى وأثره فى انحطاط الأمم حيث تتحول الشعوب الى قطيع يسوسها مستبد غشوم . وكانت المقالات مجهولة المؤلف الذى رمز لاسمه بحرف (ك) . وكان هذا الابهام مثيرا للشغف والفضول ، وتساءل الناس عمن يكون هذا الكاتب المقدام الذى يطرق موضوعا طالما تجنبه الكتاب خشية التنكيل ، وايثارا للسلامة والتعايش مع حكام ظلمة لم يتعودوا سوى سماع عبارات التمجيد والتعظيم والتسبيح بحمدهم .

كانت الدول العربية آنئذ تخضع لسيادة الدولة العلية التى يجلس على عرشها أستاذ فى الاستبداد : السلطان عبد الحميد الذى تنكر للدستور ورجاله وزج بهم فى غياهب السجون ، وبث عيونه فى أنحاء الممالك والولايات يطاردون الأحرار ويخمدون أنفاسهم بالسم تارة ، والخنق تارة ، وكان نصيب الشام من أذى السلطان كبيرا .. أما مصر فكانت قد تخلصت من قيود الرق العثمانى ، وسرى فيها لهيب الوعى الوطنى ، وترددت فيها صيحات الحرية

والعدالة منذ وقت مبكر ، وظهرت فيها رموز الاستقلال متمثلة فى دستور عصرى وصحافة حرة وتمثيل برلمانى ، وأصبحت مصر قبلة الأحرار والمفكرين الشوام الذين ضاقت عنهم أوطانهم ، فشدوا الرحال الى أرض الكنانة حيث الحرية والسعة والأمن والرخاء .

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبى من طليعة المفكرين الأحرار الذين ظهروا في الشام فحركوا ركود الحياة السياسية ، وأيقظوا بنى قومهم من سباتهم فأصدر العديد من الصحف فى مسقط رأسه (حلب) ، وجعل منها سوط عذاب على الظلم والظالمين ، وصوتا طليقا للمستضعفين والمنكوبين ، وكان جواسيس السلطان بالمرصاد لكل ما يكتبه الكواكبى ، فالصحف التى يحررها تصادر أو تجمع لتحرق ، والولاة العثمانيون يلفقون له القضايا ليقضى معظم أيامه فى السجون ، فلما بلغ به اليأس مبلغه راودته نفسه بالرحيل عن وطنه ، ولكنه كتم وجهته عن أهله واخوانه ، وزعم لهم انه سيقصد استانبول للسياحة ، ومع ذلك ساورهم الخوف من أن يذهب الى مصر فيحرم الى الأبد من العودة الى وطنه ، فلما جن الليل جمع الكواكبى أوراقه وغادر وطنه متمثلا قول الشاعر :

واذا نكرتنى بلدة ونكرتها   خرجت مع البازى على سواد

وما هى الا أيام حتى كانت مقالات الكواكبى تتصدر الصفحات الأولى من (المؤيد) فيتردد صداها فى انحاء الشرق .. ويهتز منها عرش السلطان فزعا .. يقول كامل الغزى الصديق المقرب من الكواكبى : « وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوما لم نشعر الا وبصدى مقالاته فى صحف مصر ، وأخذت جريدة (المؤيد)تنشر له حلقات كتاب « طبائع الاستبداد » الذى لم يطلعنا عليه مطلقا ، بخلاف كتاب « جمعية أم القرى » فقد أطلعنا عليه مرارا ، ثم انه طبع الكتابين المذكورين ، وقام لهما فى البلاط

السلطاني ضجة عظيمة ، وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية .. وبلغنا انه بعد دخوله مصر بأيام قلائل ، التف حوله جماعة من أدباء الأتراك زعموا أنهم من طائفة « تركيا الفتاة » وما هم في الحقيقة الا جواسيس يرقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها الى استانبول .. » .

وعاش الكواكبى فى القاهرة معززا مكرما فى جوار الامام الحسين ، وقد أحاط به كوكبة من أحرار الشرق الذين يتطلعون الى اليوم الذى تتخلص فيه أوطانهم من أكفان الذل والاستعباد ، ويعبرون عن آمالهم بالكتابة والخطابة وبكل ما يملكون من وسائل البيان ، وسرت أفكار الكواكبى فى الجماهير العطشى الى الحرية مسرى الماء فى الأرض القاحلة ، وتلهف الناس على مطالعتها لما كانوا يجدون فيها من صدق وجرأة فى نقد الحكام الطغاة ، وبرغم القيود المحكمة التى فرضتها السلطات العثمانية فقد وجدت كتابات الكواكبى طريقها الى الشعوب العربية فى الشام والعراق واليمن والبحرين وشمال افريقيا .. وباتت مقالاته عن الاستبداد بمثابة مشاعل تهدى المقهورين الى طريق الخلاص ، ولم يكن الخلاص سوى الثورة على الاستبداد فى كل أشكاله السياسية والاجتماعية والتربوية ، ولم يكن من المعقول أن يستمر هذا القلم الجرىء فى اثارة الغافلين وتنبيه النائمين ، وانما المعقول فى ظل تقاليد الاستبداد والبطش أن يخفت الصوت قبل أن يعلو ضجيجه ، وفى مساء الخميس ١٤ يونيو ١٩٠٢ كان السيد عبد الرحمن الكواكبى يجلس فى مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية ومعه من أصدقائه المقربين : السيد رشيد رضا والأستاذ محمد كرد على والشيخ ابراهيم سليم النجار ، وطلب الكواكبى — كعادته — فنجانا من القهوة المرة فارتشفه ، ولم تمض نصف الساعة الا وقد أحس بالألم يمزق احشاءه ، فنهض فى الحال ومعه ابنه كاظم فى عربة حنطور الى الدار ، وظل يتقيأ حتى قارب لليل منتصفه ،

ثم اصابته نوبة قلبية فاحس ابنه بالخطر فهب يستدعى أقرب طبيب بالحى ، فلما عاد بصحبة الطبيب وجد أباه قد فارق الحياة ، بعد أن طوى فيها خمسين عاما ، كانت من أقصر الأعوام زمنا .. ولكن من أخصبها جهادا ونضالا فى سبيل الحرية والعدل والكرامة الانسانية .

وسرى الخبر صباح الجمعة فى مدينة القاهرة . فأمر الخديو عباس الثانى أن يدفن الكواكبى على نفقته الخاصة وأن يعجل بدفنه فى قرافة باب الوزير بالقرب من القلعة ، وارتجل شاعر النيل حافظ ابراهيم بيتين من الشعر نقشا على شاهد قبره .

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا ... عليه فهذا القبر قبر الكواكبى

أما السلطان عبد الحميد فلم يكد يتلقى نبأ وفاة الكواكبى حتى تنفس الصعداء ، وأوفد أحد أعوانه فى مهمة سرية الى القاهرة، فقصد الى البيت الذى كان يقيم فيه بالحسين ، وجمع ما تبقى فى مكتبه من أوراق ، وبعث بها الى قصر يلدز ، وظن عبد الحميد انه استراح الى الأبد من ازعاجات الكواكبى ، ولكن الأقدار خيبت ظنونه ، فما هى الا بضع سنين حتى انهار عرش عبد الحميد ، وأطاحت به ثورة جارفة ألقت به فى أعماق السجون ليقضى ما تبقى له من عمر مقهورا مدحورا ، وبقيت أفكار الكواكبى شعلة وضاءة فى قلوب الأحرار ، وانشودة يتغنى بها عشاق الحرية فى أنحاء الشرق .

المستبد عدو الحق

كان السيد عبد الرحمن الكواكبى مفكرا تقدميا بالقياس ، الى عصره ، فقد شغل نفسه بقضية كانت مركونة فى أضابير العقل العربى منذ عصر ابن خلدون ، فجاء احياؤها نشازا اذا قورنت بالقضايا التى كانت تشغل بال علماء الدين فى أخريات القرن التاسع عشر ، فقد كانت اهتماماتهم موزعة بين التصوف وبحوث البلاغة والبيان والبديع والنحو والصرف والخلافات الفقهية فى الفروع ومدى مشروعية استخدام الصنبور (الحنفية) فى الوضوء ، فاذا تبحروا عقليا بحثوا فى أمور الحياة الأخرى ولا يقربون شيئا من شئون الحياة الدنيا .

وكان هذا القصور العقلى يلقى تشجيعا من الحكام لأنه يصرف الرعية عن التفكير فى القضية الأساسية : قضية نظام الحكم ومدى تطابقه مع المبادىء الأساسية التى جاء بها الاسلام كالعدالة والحرية والشورى والمساواة والوفاء بالعهد واحترام الكرامة الانسانية ، وهى القضية التى استحوذت على تفكير الكواكبى فجعلها قضية عمره ، ومحور كتابه العظيم (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) فظهر كنقطة ضوء فى عتمة الفكر السياسى وكان أثره فى العقل العربى

لا يقل عن أثر (العقد الاجتماعي) لروسو (وروح القوانين) لمونتسكيو في العالم الغربي ، فقد بدأت الشعوب العربية تتنبه الى واقعها المرير من خلال التشريح الذي قدمه الكواكبي للعلل والأمراض التي تعاني منها الأمة الاسلامية ، وقدم لنا هذا المفكر الجريء تشخيصا وافيا استقاه من قراءة عميقة للتاريخ الاسلامي كما استقاه من الواقع الذي لمسه بنفسه بعد سياحة عريضة في البلاد الاسلامية ، لم تكن سياحة للترويح عن النفس ، ولكن لتقصي الحقائق والتعرف على حال هذه الشعوب ، فكان اذا هبط بلدا خالط أهله في معاشهم وفكرهم وسلوكهم ، وتعرف الى مصادر أرزاقهم وكوامن ثرواتهم الزراعية والمعدنية وأسلوبهم في العمل ونظام حكمهم .

ومن حصيلة هذه المعارف النظرية والعملية توفرت للكواكبي رؤية عميقة لواقع الشعوب الاسلامية انتهى فيها الى ان أصل الداء يكمن في نظم الحكم المطلق التي أطبقت على رقاب الشعوب وخنقتها بالذل والاستعباد ، وصاغ الرجل أفكاره في عبارات واضحة جريئة لا تحتمل لبسا ومفادها أن ما أصاب الدول العربية من انحطاط وتخلف انما مرجعه وقوعها تحت وطأة حكومات غاشمة وحكام طغاة مغتصبين معتدين وضعوا كعوب أرجلهم على أفواه الملايين من الناس فمعنوها النطق بالحق والمطالبة به .

وكم كنت أود أن أقدم للقارىء العزيز ملخصا وافيا للأفكار التي تضمنها كتاب (طبائع الاستبداد) ، لولا أن رفوف مكتبتي لا تضم هذا السفر الخطير الذي يحرص كل عاشق للحرية وكل مبغض للاستبداد على اقتنائه . فالكتاب اختفى منذ عشرات السنين ولم تحفل دور النشر باعادة طبعه اتقاء لبطش الحكومات العربية فهي بطبعها لا تحب ذيوع مثل هذه الكتب التي توقظ الغافلين وتنبه المظلومين الى حقوقهم المهدرة ، ولذلك سأقدم ملخصا للعرض الوافي

الذى كتبه العلامة الكبير أحمد أمين عن الكواكبى ضمن فصول كتابه (زعماء الاصلاح الاجتماعى فى العصر الحديث) ٠

فكتاب طبائع الاستبداد يدور حول تعريف الاستبداد بأنه صفة للحكومة المطلقة العنان التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب ، ويأتى هذا من كون الحكومة مطلقة التصرف ، ولا يقيدها قانون ولا ارادة أمة ، وربما كانت الحكومة مقيدة بشىء من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ودهائها ابطال هذه القيود والسير على هواها ، والحكومات بطبعها ميالة الى الاستبداد ، لا يصدها عنه الا وضعها تحت المراقبة الشديدة . ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها ٠

فالمستبد عدو الحق ، وعدو الحرية وقاتلها ، وهو يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتذلل وتتملق ، وعلى الرعية ان تدرك ذلك فتعرف مقامها منه : هل خلقت خادمة له ٠٠ أم هى جاءت به ليخدمها فاستخدمها ؟ والرعية العاقلة مستعدة ان تقف فى وجه الظالم المستبد ، تقول له : لا أريد الشر ، ثم هى مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ، فان الظالم اذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه ٠

وقد بحث الكواكبى بحثا مستفيضا فى علاقة الاستبداد بالدين ، ونقل عن الفرنج رأيهم فى ان الاستبداد فى السياسة متولد عن الاستبداد فى الدين أو مساير له ، فكثير من الأديان تبث فى نفوس الناس الخشية من قوة عظيمة لا تدرك كنهها العقول ، وتهددهم بالعذاب فى الحياة الأخرى ، ثم تفتح بابا للخلاص والنجاة بالالتجاء الى الأحبار والقسس والمشايخ ، بالذلة لهم ، وطلب الغفران منهم ، والمستبدون السياسيون يتبعون هذه الطريقة فيسترهبون الناس بالتعالى والتعاظم ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال حتى لا يجدوا ملجأ الا التزلف لهم وتملقهم ، وعوام الناس يختلط عليهم فى

أذهانهم الاله المعبود والمستبدون من الحكام ، فيتشابه عندهم استحقاق التعظيم ، وينزهونهم عن سؤالهم عما يفعلون ، ولا يرون لهم حقا في مراقبتهم على أعمالهم كما انه ليس لهم حق في مراقبة الله فيما يفعل !! ولهذا خلعوا على الحاكم المستبد صفات الله مثل ولى النعم ، والعظيم الشأن ، والجليل المقتدر ٠٠ وما الى ذلك ، وما من مستبد سياسى الا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله ، أو تربطه برباط مع الله ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله ٠٠ !!

ولقد رأى الكواكبى ان الاسلام فى جوهره الأصيل لا ينطبق عليه هذا القول ، فهو مبنى على قواعد الحرية السياسية متوسطة بين الديمقراطية والارستقراطية ، فهو مؤسس على أصول ديمقراطية (أى مراعاة المصلحة العامة) وعلى شورى ارستقراطية (أى شورى الخواص وهم أهل الحل والعقد) ، فالقرآن مملوء بتعاليم تقضى باماتة الاستبداد والتمسك بالعدل والخضوع لنظام الشورى ، ثم لا يعرف الاسلام سلطة دينية ، لا اعترافا ، ولا بيع غفران ، ولا منزلة خاصة لرجال الدين ،ولكن دخل عليه من الفساد ما دخل على كل دين ، فتفرقت كلمة المسلمين ، وانقسموا شيعا ، وتحول الحكم من نظام شورى الى الاستبداد ، فصغرت نفوس الناس وخفت صوتهم ، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو المبدأ الذى به يراقب أولو الأمر فى الأمة ، فصار أمر المسلمين الى ما نرى ٠

ويلاحظ أحمد أمين أن الكواكبى لم يتعرض للرد على الشطر الأول وهو ما يوحيه تصوير الله بالقوة والعظمة من خضوع النفوس للمستبد ، ويرى أحمد أمين أن الاسلام ــ بجعله (لا اله الا الله) محور الدين ــ كان كفيلا أن يذكر المسلمين دائما بأن العزة لله وحده ، وأن النفوس لا يصح أن تذل لأحد سواه ، وان هذه الكلمة توحى بالضعف أمام الله ، والقوة أمام من سواه ، ولكن بتوالى القرون

وبفساد العقائد ، أصبحت (لا اله الا الله) عند أكثر المسلمين كلمة جوفاء لا روح فيها ، تبعث الضعف ولا تبعث القوة ، وتبيح ان يشرك مع الله الحاكم المستبد والرئيس المستبد ، بل المال والجاه والمنصب ، فكل هذه وأمثالها أصبحت آلهة مع الله .. !!

الاستبداد أصل كل فساد

عكف السيد عبد الرحمن الكواكبى على دراسة أحوال الشعوب الاسلامية ، فهاله ما كانت عليه فى أخريات القرن التاسع عشر من تخلف وانحطاط واملاق .. وانتهى من نظرته التشريحية الدقيقة الى أن الاستبداد هو أصل كل فساد ، وسبب كل نقيصة ، والسوس الذى ينخر جسد الأمة فيسلبها رواءها ونضارتها ويحيلها جلدا على عظم .

فالحاكم المستبد يخشى العلم ، لأن العلم نور ، وهو يريد أن تعيش الرعية فى الظلام لأن الجهل يمكنه من بسط سلطانه ، وهو لا يخشى علوم اللغة والأدب ولا علوم الدين المتعلقة بالحياة الآخرة ، بل هو يستخدم العلماء من هذا القبيل لتأييده فى استبداده ، يسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدته ، انما ترتعد فرائصه من علوم السياسة والاجتماع والتاريخ والفلسفة العقلية ونحو ذلك من العلوم التى تنير الدنيا وتثير النفوس على الظالم ، وتعرف الانسان حقيقته كانسان له حقوق ومطالب ، وكيف ينالها ويستخلصها من الحاكم السارق .

والحاكم المستبد تسره غفلة الشعب ، لأنه يتمكن بغفلتهم من

الصولة عليهم : يغصب أموالهم فيحمدونه على ابقـاء حيـاتهم ، ويضرب بعضهم ببعض فيصفونه بحسن السياسـة والكياسـة ، ويسرف فى أموالهم فيقولون انه كـريم ، ويقتلهـم ويمثل بهم فيقولون انه رحيم ، وان نقم عليه بعض الأباة ، قاتلهم بهم كأنهم بغاة .

ويضع الكواكبى أيدينا على حقيقة غريبـة تقول ان الحـاكم المستبد يخشى رعيته كما تخشاه رعيته ، بل خوفه منهم أشد ، لأنه يخافهم عن علم ، وهم يخافونه عن جهل ، وقد اعتاد المؤرخون المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار حذره ، وقياس درجة عدله بمقدار طمأنينته ، كما يستدلون على أصالة الاستبداد فى الأمة بترف حكامها ، وامعانهم فى البذخ ، وقد تـكون اللغة دليلا على تفشى الاستبداد بما تحويه من ألفاظ التعظيم والتفخيم وعبارات الخضوع والمذلة كاللغة الفارسية .

ويرى الكواكبى أن الاستبداد لا يكون مقصـورا على الحاكم الفرد ، ولكنه يتفرع منه الى المستويات الدنيا : الى الشرطى .. الى الكناس .. الى الفراش .. ولا يكون كل صنف من هؤلاء الا من أسفل طبقته لأنه لا يهمهم الترفع باستجلاب محبة الناس ، انما يهمهم اكتساب ثقة رئيسهم المستبد ، والوزير فى الحكومة الاستبدادية هو وزير المستبد الأعظم لا وزير الأمة ، وكذلك من تحته من أعوانه ، فالهيئة كلها شركاء فى جريمة الضغط على الأمة وظلمها وقتل روح الاباء والعزة فيها ، وخلق نوع من السـيادة الكاذبة ، وتجعل أولى الأمر سلسلة تبدأ من المستبد الأعظم الى الشرطى فى الشارع ، كل يخضع لما فوقه ، ويستبد بمن تحته ، وعلى العكس من ذلك الحكومة الديمقراطية ، فهى تشعر كل شخص فى الدولة بالعزة التى يحميها العدل ، وبأن له نصيبا فى حكم بلاده ، وصوتا مسموعا فيما يجب أن يعمل ، وما يجب أن يترك ، وأن حكومته ليست قائمة الا برأيه

ورأى أمثاله • ان شعروا يوما بجورها اسقطوها ، سلطة الرأى العام فيها فوق سلطان الحكومة والبرلمان وكل سلطان •

وعرض الكواكبى بعد ذلك لأثر الاستبداد فى فساد الأخلاق ، فالاستبداد يضعف الأخلاق الفاضلة ويفسدها ، لأنه يفقد الانسان عاطفة الحب ، فهو لا يحب قومه لأنهم عون الاستبداد عليه ، ولا يحب وطنه لأنه يشقى فيه ، وهو ضعيف الحب لأسرته لأنه ليس سعيدا فيها ، وهو لا يركن الى صديقه لأنه قد يأتى عليه يوم يكون فيه عونا على الاستبداد ومصدر شر له •

الانسان فى ظل الاستبداد لا ينعم بلذة العزة والشمم والرجولة ، فلا يذوق الا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها ، والاستبداد يقلب الأخلاق ، فيحيل النصح تطاولا ، والشهامة تجبرا ، والحمية تطرفا وطيشا ، والانسانية حمقا ، والرحمة ضعفا ، والنفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفا ، والبذاءة دماثة وظرفا •

والاستبداد أفسد عقول المؤرخين ، فسموا الجبابرة الطغاة عظماء أجلاء ، كما أفسد أخلاق الناس فأرغمهم على ألفة الرياء والنفاق ، وأعان الأشرار على فجورهم وجعلهم فى مأمن حتى من الانتقاد والفضيحة ، ولأن معظم أعمالهم تظل مستورة ، لا يجرؤ الناس على قول أمامهم خوف العقاب •

ثم عرض الكواكبى لأثر الاستبداد فى تربية الأمم والأفراد • فالحكومة العادلة تعنى بتربية الفرد منذ كونه جنينا ، وذلك بسن قوانين للزواج الصالح ثم بالعناية الصحية للطفولة ، ثم بانشاء المدارس وتسهيل الاجتماعيات والاهتمام بالقدرات الجسمانية والنفسية والعقلية للأفراد • وفى ظلها يعيش الانسان حرا نشيطا يسره النجاح ولا تحزنه الخيبة ، وفى الحكومة المستبدة يعيش « طفلا

خامدا ضائع القصد حائرا .. ويصير كالأسير المعذب يسلي نفسه بالسعادة الأخروية ، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة ، وقد جنى على المسلمين علماؤهم فافهموهم أن الدنيا سجن المؤمن ، وأن المؤمن مصاب ، واذا أحب الله عبدا ابتلاه ، وهكذا مما ابتدعوه ، ويتغافلون عن الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » ، وحديث « اذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها » وكان من أثر هذه المثبطات أن حولت الأذهان من معرفة أسباب الشقاء الى القائها على عاتق القضاء والقدر ، وقد أحكموا هذه المكيدة باختراع الأحاديث التي تجعل الخضوع للحاكم المستبد .. دينا ، وعلى الجملة فالتربية الصحيحة عند الكواكبي لا تتحقق في ظل الاستبداد .

ولا يقف هذا المفكر الجليل عند حد تشريح طبائع الاستبداد ، انما يرشدنا الى سبيل الخلاص من هـذا الداء الوبيل ، فيرى أن الاستبداد لا يقاوم بالقوة ، انما يقاوم باللين ، وبالتدريج ، يبث الشعور بالظلم ، وهذا بالتعليم والوعي ، ذلك لأن الاستبداد محفوف بأنواع القوات : قوة الجند ، وقوة المال ، وقوة رجال الدين ، وقوة الأغنياء ، فاذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصد الناس ، وانما الواجب المقاومة بالحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة ، والاستبداد مع اعتماده على هذه القوات كلها يضعف أمام الوسائل المحكمة في قلبه ، كما قيل : كم من جبار عنيد صرعه مظلوم صغير .. !!

ويجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة البديل ، ومعرفة الغاية معرفة دقيقة واضحة ، ومتى وضحت الغاية المرسومة يجب السعي في اقناع الناس بها واستجلاب رضاهم عنها وحملهم على النـداء بها ، ويجب أن ينشر ذلك في كل الطبقات حتى يصبح عقيدة فيتلهفوا جميعا على نيل الحرية وتحقيق المثل الذي ينشدونه .. عندئذ لا يسع المستبد الا الاجابة طوعا أو كرها .

هذا مجمل لأفكار الكواكبى حاول أن يوقظ بها قلوبا غلفا ٠٠ وأسماعا صما ٠٠ وليس من شك فى أنهـا آتت ثمارهـا فازالت أصناما وأطاحت بطواغيت ٠٠ ورسخت معانى الحرية والكرامة فى نفوس أبناء الشرق *

تحرير المرأة المصرية

كان صدور كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين بمثابة القاء حجر فى بركة راكدة فتحركت مياهها الآسـنة واهتزت أمواجها ، وتطاير رذاذها لينال من سمعة الرجل وكرامته ، حتى ان الخديو عباس الثانى أمر بوضع اسمه على قائمة الممنوعين من دخول قصر عابدين بالرغم من مركزه القضائى الرفيع ٠٠ وبعدها انهال الطاعنون يسلقون الرجل بألسنة حداد ٠٠ ويرمونه بأبشع التهم التى بلغت حد الالحاد والمروق من الدين ٠

انظر الى هذه الصورة الوصفية التى يسجلها الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته عن الزوبعة التى صاحبت ظهور الكتاب : « فى سنة ١٩٠١ وقع حادث لفت أنظار الناس جميعا وأثار ضجة كبرى ، ذلك أن قاسم بك أمين المستشار بمحكمة الاستئناف نشر كتابا عنوانه » تحرير المرأة « طلب فيه تعليم المرأة ورفع الحجاب عنها ، وكان تعليم المرأة يومئذ أمرا ادا ، لا يقوم عليه رجل حريص على احترام الجمهور المصرى له ، أما رفع الحجاب وخروج المرأة سافرة الى المجتمعات فكان القول به أدنى الأشياء الى تحليل ما حرم الله ان لم يكن الشرك بالله (!!) فقد كانت المرأة يومئذ محكوما عليها

بألا تتعلم وألا تخرج من بيتها الا لضرورة ملحة ، والا محجوبة الوجه ، والمرأة المصرية التى كان يجرى عليها هذا الحكم لم تكن المرأة الفلاحة المضطرة بحكم الحياة الى مشاركة زوجها فى عمله ، بل المرأة التى يستطيع زوجها أو أهلها أن يعفوها من مشقة الخروج من البيت. فكان ظهور هذا الكتاب حادثا ــ بل حادثا خطيرا ــ اضطربت له آراء الهيئات الدينية واضطرب له كثير من المتعلمين أنفسهم .

● ● ●

واذا كان قاسم أمين قد دخل تاريخ مصر الاجتماعى على أنه محرر المرأة حتى أطلق اسمه على كثير من مدارس البنات ، الا أن الدراسات الحديثة تكشف عن أن قاسم أمين لم يكن أول الرواد الذين ارتادوا هذا الحقل الملىء بالألغام ، وانما سبقته جهود حثيثة قام بها آباء الاستنارة الفكرية الذين وضعوا اللبنات الأولى فى صرح المجتمع المصرى الحديث وهو يعانى آلام المخاض ، ويشق طريقه بصعوبة من خبايا العصر التركى الى مشارف العصور الحديثة ، وكان على رأس هؤلاء جميعا أبو الرواد رفاعة رافع الطهطاوى الذى حمل راية التنوير فى شجاعة وثبات ، ودعا الى تعلم المرأة واتاحة الفرصة أمامها لتعمل الى جانب الرجل ، ورأى فى تعليمها وعملها تكريما لها ورفعا لمكانتها .

يقول الدكتور محمد كمال يحيى فى كتابه (الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية فى العصر الحديث) ان قضية تعليم المرأة لم يكن مقيضا لها النجاح لو لم يتصد لها المفكرون والكتاب من عامة المصريين ومثقفيهم بالتحليل والاقناع ، ويأتى على رأس هؤلاء رفاعة الطهطاوى الذى طالب فى كتابه (تخليص الابريز) بتعليم المرأة قائلا : لقد اقتضت التجربة فى كثير من البلدان أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره .. بل لا ضرر فيه أصلا .. ودخول البنات والغلمان

للمدارس واجب قانونا فى جرمانيا ـ بل ان أوروبا كلها تعلم البنات والبنين على قدم المساواة وان لم يكن ذلك بقانون ـ وهذا هو السر فى أن بلادهم الآن هى أقوى البلدان •

ولم تكن دعوة الطهطاوى الى عمل المرأة صادرة عن رؤية خيالية أو شطحة فكرية بل عن ايمان عميق بهذه القضية ، خاصة عندما أكد فى كتاب له بعنوان (المرشد الأمين للبنات والبنين) وخصص فيه فصلا كاملا عن « تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان » واذا كانت دعوة الطهطاوى الى تعليم المرأة قد لقيت استجابة محدودة من جانب مؤسس مصر الحديثة ، واذا كانت مصر قد شهدت فى عهد محمد على أول نواة لتعليم البنات ، فان أفكار الطهطاوى وجدت صداها العميق عند اسماعيل ، ذلك العاهل المستنير الذى قاد النهضة الثقافية والعلمية بلا منازع ، وفى عهده انتشرت مدارس تعليم البنات بمعاونة رشيدة من رائد آخر هو على باشا مبارك الذى كان يرى أن من حق الفتاة أن تتبحر فى العلم الى غايته ، وكان يرى أن الحياة بين الزوجين شركة يتعاونان فيها على العيش بالعمل والكسب ، فقرر بهذا حقها فى التعليم ، ثم فى العمل الذى تقدر عليه • وحين يتعرض على مبارك لقضية الحجاب والسفور ينتهى فيها الى أن القدوة الصالحة والنصح الرشيد هما منبع الخير وأصل الفضيلة ، وكان فى نفس الوقت يميل الى سفورها وان لم يصرح بذلك ، وترك لغيره بعده أن يجهر به ، فلم يمض ربع قرن حتى قام قاسم أمين يدعو الى « تحرير المرأة من وقر الحجاب وقيوده التى تعزل المرأة عن الحياة العامة وتحول بينها وبين أن تكون عونا لزوجها وشريكا له فى مواجهة الحياة » •

ويقدم لنا الدكتور كمال يحيى رائدا ثالثا من رواد تحرير المرأة فى القرن التاسع عشر هو عبد الله النديم مما يدل على أن قضية المرأة كانت هدفا من أهداف اصلاح المجتمع فى مفهومه العام ،

ولم يتخلف النديم عن مفكري عصره في تأييد تعليم البنات ، ومع أنه كان من مؤيدى سياسة الحجاب والتمسك به ، فقد أيد تعليم البنات أمور الدين وشئون الأسرة وأصول الحياة الزوجية والتدبير المنزلى ، وعارض تعليمهن الموسيقى والرقص واللغات الأجنبية ٠

ان الحديث عن موقف رائد الرواد رفاعة الطهطاوى من قضية المرأة يتطلب القاء الضوء على تلك الوثيقة الهامة التى تكشف بوضوح عن الارتباط العميق بين أفكار رفاعة وسلوكه الشخصى ، لقد كان الرجل يكن احتراما عميقا للمرأة ويؤمن بحقها فى المساواة والعدل ، فلما تزوج بنت خاله حرر لها هذه الوثيقة الموجودة فى دار المحفوظات ونصها كما يلى :

« التزم كاتب هذه الأحرف رفاعة بدوى رافع ـ لبنت خاله المصونة ، الحاجة كريمة ، بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلى الأنصارى أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من نساء أو تمتع بجارية أخرى ـ فان تزوج بزوجة أيا كانت ـ تكون بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة ـ وكذلك اذا تمتع بجارية ملك اليمين ، ولكنه أوعدها وعدا صحيحا لا ينقص ولا يحل انها ما دامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها ولأولادها ولخدمها وجوارها ، ساكنة معه في محل سكناه ، لا يتزوج بغيرها أصلا ، ولا يتمتع بجوار أصلا ، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدهما بقضاه » ٠

وهذه الوثيقة واضحة الدلالة على أن الطهطاوى لم يكن من أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون ٠

عبيد وجوار

كان الرقيق يشكل عنصرا أساسيا فى كيان البيت المصرى خلال القرن التاسع عشر ، وقلما كان يخلو بيت ارستقراطى من العبيد والجوارى الذين يتناسب عددهم ، مع ثـراء رب البيت ، وقدرته على دفع أثمانهم والانفاق عليهم ما داموا ملك يمينه ، فثمن الصبى أو البنت السوداء كان لا يزيد على ١٢ جنيها ، أما الرقيق الحبشى فأغلى درجة ، اذ يتراوح ثمن الصبى بين ٢٠ و ٣٠ جنيها ، وثمن الفتاة الحبشية تحت سن ١٨ يصل الى مائة جنيه ، واما الرقيق الأبيض من الجوارى الشركسيات الجميلات فكن باهظات الثمن ، اذ يختلف ثمن الجارية بين ٢٠٠ و ٥٠٠ جنيه ، ويصل فى حالة جمالها الأخاذ الى ألف جنيه ، فلا يقدر على اقتنائهن سوى غلاة الموسرين كالأمراء ومن يلوذ بهم من الشرائح العليا فى المجتمع ٠

وقد وجد بين المصريين من كان لديه القدرة على تملك مئات الجوارى من شتى الأصناف والألوان والأجنـاس ، مثل اسماعيل صديق باشا « المفتش » الصعلوك الذى رفعته الأقدار من حضيض الفاقة الى مجتمع الملوك ، فعاش عيشة البذخ والسفه ونسى حياة الحوارى والجحور ، فلما انقلب عليه الخديو اسماعيل ، أخوه من

الرضاعة ، وقتله غيلة ، وجدوا بين تركته الاسطورية سبعمائة جارية « .. ما بين حورية شركسية بيضاء ذات ثمن يفوق كل تقدير ، وخمرية مسكرة ، وسمراء غانجة ، وحبشية شعرية ذات عين بقرية ، وبرونزية موشومة ذات نهود سفرجلية ، وسودانية فحماء متقدة الدم » على حد وصف المؤرخ الياس الأيوبى ، وقد أشرف الخديو اسماعيل بنفسه على توزيع هذا القطيع الانثوى ، فاختار أجملهن خلقا وأخفهن دما ، وأمهرهن صناعة والحقهن بالحريم الخاص بالخديو ، وأهدى بعضهن الى أصفيائه من كبار ضباط الجيش وكبار رجال الدولة ، « اما لكى تقع نقطة من دم صديق على كل منهم ، واما — وهو الأقرب الى المعقول فى رأى الأيوبى — لكيلا يفوت البغاث شيء من فضلات النسر » أما الباقيات فقد عرضن للبيع فى سوق النخاسة ليشتريهن من يريد أن يقتنى أثرا من آثار فرعون الصغير . أما الخديو نفسه فكانت قصوره تحوى حوالى ألفين من الجوارى الحسان .

وكان لتجارة الرقيق تنظيم محلى فى مصر ، على ما يذكر الدكتور محمد كمال يحيى ، وكان معظم هؤلاء التجار من أبناء مصر العليا أو السودانيين المقيمين فى مصر ، وفى القاهرة بصفة خاصة . كما كان هناك بدو وقرويون من مديرية البحيرة ومغاربة اشتغلوا بهذه التجارة ، وفى بعض الأحيان اجتذبت هذه التجارة بعض النساء فاحترفنها — وكان تجار الرقيق الأسود يختلفون عن مستوى زملائهم تجار الرقيق الأبيض ، فالأولون كانوا ينتمون الى مجموعة من طوائف الحرب ذات الوضع الاجتماعى المنخفض ، بينما كان المشتغلون بتجارة البيض من تجار خان الخليلى .

وكان جلب الرقيق الأسود يجرى عن طريق القنص والخطف بواسطة عصابات تقوم بهذا العمل الاجرامى فى حملات شبه عسكرية ثم تبيع ايرادها الى شركات تجارية تتولى حمل الرقيق عن

طريق النيـل فى مراكب ترفع رايات دول أجنبيـة لكى تحتمى بامتيازاتها ، أو عن طريق الصحراء الى أسيوط ومنها الى القاهرة والاسكندرية والمدن الكبرى ، أما جلب الجوارى البيض فكان فى معظمه يتم بالتراضى عن طريق الشراء من الآباء الذين يعرضـون أولادهم وبناتهم للبيع تخلصا من نفقاتهم ، وعلى أمل أن تتاح لهم فرص الحياة الرغدة فى قصور السلاطين والأمراء ، فلربما بلغ أحدهم مركزا مرموقا فى وظائف الدولة ، ولربما أصبحت احداهن السيدة الأولى فى قصر سيدها اذا نجحت فى الاستئثار بقلبه واضـحت محظيته المفضلة ، أو زوجته اذا أنجبت فاعتقت ٠

وكان هناك صنف ثالث من الرقيق لا هو من العبيد ولا من الجوارى ، أولئك هم (الخصيان) الذين كان الأمراء يعهدون اليهم بخدمة « الحريم » دون خوف على أعراضهن بعد أن أزيلت من أجسام الصبية أعضاء التناسل وكانت عملية الخصى البشعة تجرى داخل بعض الاديرة فى صعيد أسيوط يقوم بها الرهبان المتمرسون مقابل أجر كبير يتناسب مع خطورة هذه العملية التى كانت تنتهى غالبا بوفاة الصبى ، فمن نجا منهم من الموت سيق الى سوق النخاسة ليباع بسعر يفوق سعر غيره من أصناف الرقيق ٠

أما الجارية البيضاء فكانت تخضع داخل بيت النخاس لبرنامج طويل المدى تلقن أثناءه مبادىء الدين والقراءة والحساب ٠ ثم تتعلم شئون التدبير المنزلى كالطهى والحياكة وأصول التعامل مع السادة ، فاذا كانت تتمتع بموهبة خاصة كالصوت الجميل جاءوالها بمعلمين متخصصين يدربونها على الغناء والعزف على العود ، وكل اضافة الى قدراتها ترفع من سعرها ، فاذا انتهت مرحلة التدريب والاعداد يبدأ عرضها على سماسرة يبحثون عن هذا النوع المتميز لتحتل مكانها فى قصور العلية الموسرين ٠

أما بقية الجوارى اللاتى لا يتمتعن بمواهب خاصة ، فكان يعهد اليهن بالأعمال التافهة وفق تقاليد العصر ، فواحدة وظيفتها « قهوجى كالفه » لتقديم القهوة ، وأخرى لحمل الملابس على اليد ، وثالثة لتقديم الشراب ، ورابعة وظيفتها « سفرجى كالفه » أى اعداد المائدة للطعام ، وهناك « شمورجى كالفه » ووظيفتها تحضير الملابس للسيد .

وكان اقتناء الرقيق فى البيت المصرى من مظاهر الابهة والفخفخة والرغبة السقيمة فى تقاليد الارستقراطية التركية ، فتحول البيت المصرى الى مسخ من الحريم التركى يموج بألوان من الجوارى والعبيد والخصيان لمجرد التشبه بالسادة الترك دون أن تكون هناك حاجة عملية لحشد هذا الكرنفال المتعدد الألوان اذ كان رب البيت لا يعرف فى الغالب أسماء جواريه ولا يعيرهن التفاتا ، خاصة اذا كانت سيدة البيت من الحرائر فلا تسمح لزوجها بأن يلعب بذيله مع هذه الفراشات الجميلة . ولذلك كانت الزوجة تتفانى فى ارضاء زوجها وتقوم على خدمته بنفسها دون جواريها حتى لا تسمح لواحدة منهن باغرائه والاستحواذ على قلبه .

فلما أوشك القرن التاسع عشر على الغروب ، كانت الدعوة الى عتق الرقيق قد أصبحت مطلبا انسانيا تردد فى كل أنحاء العالم الذى كان يعترف بالرق ووصل صداه الى مصر ، واستجابت الدولة لدواعى العصر فأصدرت التشريعات التى تحرم جلب الرقيق . وقامت الحملات لمطاردة النخاسين ، وأنشأ الخديو اسماعيل مدرسة خاصة لتعليم عدد من الفتيات الريفيات الفقيرات شئون الخدمة المنزلية ليكن بديلات عن الجوارى المرغوب فى عتقهن . وبدأ المجتمع المصرى يجد فى التخلص من الرقيق . ولكن المشكلة التى لم يفكر فيها أحد هى : أين تذهب الجوارى بعد عتقهن ، وليس لهن جذور

في المجتمع ولا يعرفون لهن آباء ولا أمهات ولا اخوة ؟؟ وكانت النتيجة المؤسفة هي اضطرار معظم الجوارى الى احتراف البغاء !!

●● نفس المازق الذى وقع فيه سبارتاكوس قبل ١٧ قرنا عندما قاد ثــورة تحرير العبيــد دون أن يفكر فى مصـــيرهم بعد التحرير !! فعادوا الى الرق مرغمين ٠٠ !!

مصر الجديدة

كانت ضاحية مصر الجديدة أول امتداد صحى مدروس للتوسع العمرانى الذى شهدته مدينة القاهرة فى مطلع القرن العشرين ، فجاء تأسيسها على نمط الضـــواحى التى أقيمت حول العواصم الأوروبية لامتصاص الزيادة الطبيعية فى عدد سكانها وتلافى حدوث انفجارات داخلية فى بنية المدن القديمة ، ويقوم مفهوم الضاحية فى غرف علماء العمران على أساس أن تكفل الضاحية لسكانها المسكن الصحى النظيف ، وتوفر لهم كل احتياجات المعيشة الطبيعية من علاج وتعليم وترفيه بحيث لا يهبطون قلب المدينة الا مرة واحدة فى اليوم عن طريق ترام سريع (مترو) يحمل سكان الضاحية فى الصباح الى أعمالهم ويعود بهم بعد انتهاء العمل ، ومعنى ذلك أن التفكير فى انشاء ضاحية مصر الجديدة جاء مصاحبا لظهور الترام فى شوارع القاهرة عام ١٨٩٦ وما أثاره هذا الترام من طفرة اجتماعية وعمرانية هائلة .

وفى عام ١٩٠٥ أسست شركة بلجيكية لانشاء حى جديد فى المنطقة الصحراوية التى تقع شمالى القاهرة ، والأمر الجدير بالتسجيل والتقدير أن هذه الشركة الأجنبية ــ ومعها الحكومة المصرية ــ اتجهت

الى تعمير الصحراء ، ولم يخطر ببالها أن تعتدى على المناطق الزراعية المتاخمة للقاهرة ، والتى كانت مصدر الغذاء الرئيسى لسكانها ، والمؤسف أن ما حرصت عليه الشركة الأجنبية هى والحكومة الوطنية ـ كان مجال تفريط من جانب الحكومات المصرية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، حيث تركت الحبل على الغارب لظهور الأورام السرطانية فوق الأرض الزراعية فى مدينة الأوقاف والهرم وعلى امتداد النيل من بنها الى حلوان ..

واختارت الشركة البلجيكية منطقة صحراوية كان لها وجود تاريخى فى العصر البطلمى ، وهى منطقة (هليوبوليس) التى قامت على أرضها جامعة فلسفية تخرج فيها أساطين الفكر اليونانى : أبقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس فضلا عن نوابغ العلماء فى الطب والسياسة والبلاغة والحكمة ، وكان اطلاق اسم هليوبوليس (أى مدينة الشمس) على الضاحية الجديدة بهدف اضفاء الصبغة التاريخية عليها ، ولكن الأهالى استثقلوا الاسم فأطلقوا عليها من تلقاء أنفسهم اسم : مصر الجديدة .

وبدأت الشركة مشروعها العمرانى على مساحة ٢٥ كيلو مترا مربعا أى ما يوازى حوالى ٦٠٠٠ فدان اشترتها من الحكومة المصرية بسعر جنيه واحد للفدان ، ثم قامت بتقسيمها وطرحها للبيع لمن يريد بسعر أربعين قرشا للمتر الواحد على أن تتكفل الشركة بأعمال بناء العمارات والفيلات ويسدد الملاك الجدد ثمن الأرض والبناء على أقساط متهاودة بفائدة ٣٪ للأرض و ٥٪ للمبناء ، ولقيت الشركة اقبالا منقطع النظير لدرجة أنها حين طرحت اسهمها للاكتتاب العام تهافت المصريون والأجانب على شرائها حتى تمت تغطية ثمن الأسهم ٨٣ مرة ، منها ٤٥ مرة فى الاسكندرية وأربع مرات فى انجلترا وبلجيكا ، والباقيات فى القاهرة ، وبلغت قيمة الأموال التى جمعتها الشركة أكثر من مليونين ونصف مليون جنيه ، وشرعت الشركة

فى تشييد المساكن وتأجيرها واغراء أهالى القاهرة على سكن الضاحية الجديدة عن طريق الاعلانات فى الصحف • وهذه صيغة إعلان نشرته الصحف فى شهر سبتمبر ١٩٠٩ :

« واحة عين شمس – هليوبوليس » للايجار بجانب الجامع الجديد والتراموای الذی سینشأ قريبا ، بيوت على الطراز التركى ، مؤلفة من ثلاث غرف ، أو أربع ، وفسحة وفرن ، الأجرة من ٦٠ الى ١٤٠ قرشا •

ويبرز لنا الباحث المعروف محمد سيد كيلانى فى كتابه (ترام القاهرة) مراحل نشوء هذه الضاحية الجميلة ، فقد بدأ تسيير الترام السريع (المترو) سنة ١٩١٠ ليربطها بقلب العاصمة ، بالاضافة الى خط الترام (الأبيض) الذى كان ينتهى عند العباسية ، وخط آخر الى الزيتون • وكان ثمن التذكرة فى المترو من ميدان الخازندار الى مصر الجديدة سبعة مليمات للدرجة الثانية ، وعشرة مليمات للدرجة الأولى ، ثم زاد بعد الحرب العالمية الأولى الى عشرة مليمات للدرجة الثانية و ١٥ مليما للأولى • ثم يقدم لنا وقائع الاحتفال الذى أقامته الشركة بمناسبة افتتاح مسجد مصر الجديدة برئاسة الأمير حسين كامل نائبا عن الخديو عباس الثانى ، وبحضور جمهور من كبار العلماء والموظفين والأعيان الوطنيين والأجانب وبعض السياح والسائحات • وبعد تلاوة القرآن الكريم وقف بوغوص باشا نوبار نائبا عن رئيس مجلس ادارة الشركة البارون أو مبان والقى خطبة شرح فيها الغرض من انشاء مدينة صحية فى ضواحى القاهرة وسط الصحراء ، تتمتع بجفاف الهواء وتتوافر لها كل أسباب المعيشة والرفاهية والاحتياطات الصحية ، وتتصل بالقاهرة بقطارات سريعة تمكن سكانها من الوصول الى مقار أعمالهم فى بضع دقائق •• (!!)

وقال بوغوص باشا نوبار : « مع أن العمل فى هذه الضاحية لم يبدأ الا من نحو أربع سنوات ، فانه قد ظهرت فى عالم الحقائق مدينة عصرية تسطع فى أرجائها شموس الكهرباء ، ورفعت فيها القصور السامقة وتوافرت فيهـا أنواع الرياضات ، واجتمع لهذه المدينة الحافلة بالسكان ما يربو عدده على الثلاثة الآلاف (!!) وهذا العدد يزداد كل يوم زيادة مطردة ، ونظرا الى أن أغلب سكان مصر الجديدة هم من المسلمين الذين أحلهم فى هذا البلد ما وجدوه فيه من أسباب الراحة ، رأينا ان نقدم لهم شيئا أجل من هذا كله ، فأقمنا لهم مسجدا يؤدون فيه فرائض دينهم وهو المسجد الذى نفتتحه اليوم ، وتجاوزنا عن ادارته الى ديوان الأوقاف » ٠

ولم تغفل الشركة عناصر الترفيه والترويح عن سكانها فأقامت لهم مدينة للملاهى أطلقت عليها اسم « لونابارك » وجمعت فيها كل ما هو عجيب ومثير حتى تقاطر عليها أهل القاهرة ، فكانت وسيلة ذكية لجذبهم واطلاعهم على معالم المدينة الجديدة واقناعهم بسكناها بدلا من التكدس فى الأحياء القديمة ٠ وينقل محمد سيد كيلانى وصف صحيفة « المقطم » للدهشة التى علت وجوه المصريين وهم يتنقلون من فرجة الى فرجة ومن لعبة الى لعبة ٠٠ فكان قوم يمشون فى كهوف وهم يهتزون اهتزازا شديدا ، بقوة خفية ، قيل انها الكهربائية ، فيضحكون من رؤية بعضهم البعض ويضحكون سائر الناظرين اليهم ، وقوم يمشون على شبه نول الحائك ، فيتحرك بهم الى الأمام ، وطورا الى الوراء ، كانهم يرقصون وما هم براقصين ، وقوم يمشون أمام مرايا مستوية ومقعرة ومحدبة ، فتريهم صورهم مشوهة تشويها مضحكا ، فتارة يكونون صغارا كالقزم ، وتارة طوالا كالجبابرة ٠٠ وكلما مروا أمام مرآة ضحكوا وقهقهوا ٠٠ وأضحكوا الذين حولهم أيضا ٠٠ » ٠

ولما كانت الأجواء المصرية المشمسة قد شجعت عالم الطيران

الفرنسي لويس بيير موليا على أبحاثه فقد حرصت شركة مصر الجديدة على تخليد ذكراه في نصب تذكاري ، ولم تغفل أن تخلد معه ذكرى رائدي الطيران العربيين : الجوهري وعباس بن فرناس ، ونقشت على قاعدة النصب تلك الأبيات التي نظمها شاعر النيل حافظ ابراهيم :

ان يركب الغرب متن الريح مبتدعا
ما قصرت عن مداه حيلة الناس

فان للشرق فضل السبق نعرفه
للجوهري وعباس بن فرناس

قد مهدا سبلا للناس تسلكها
الى السماء بفضل العلم والباس

سلطان المادحين

لا أذكر أننى ذهبت الى الاسكندرية دون أن تقودنى قدماى الى تلك البقعة الطاهرة من أرضها ، حيث تتلاصق المساجد العتيقة وتنطلق المآذن السامقة كأنها القلاع الساهرة على حماية المدينة .. فهذا مسجد مولاى أبى العباس المرسى سيد الثغر وحارسه بلا منازع ، والى جواره مسجد تلميذه ومريده سيدى أبى عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن البوصيرى ، الذى يعرفه العامة باسم « الأباصيرى » .

ولا أذكر أننى دخلت مسجد البوصيرى دون أن تكتحل عيناى بقراءة « بردته » المسطورة بماء الذهب على جدران المسجد ـ ولا أذكر أننى قرأت البردة أو سمعتها الا انسابت من عينى الدموع ، وارتج القلب واهتز الوجدان .. احتراما وتعظيما وخشوعا لمقام سيدى وسيد البشر أجمعين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

البردة : تلك المنظومة التي فتح الله على صاحبها فى لحظة من لحظات التجلى ، فدخلت قلوب المؤمنين فى كل أرجاء الأرض ، وشعشعت فى نفوسهم كما يشع النور فى جنبات الظلام ، من منكم

يسمع البردة دون أن يهيم اشتياقا الى الملأ الأعلى ، ويحن حنينا الى عالم الطهر والنور ·· نحن لسنا بازاء أبيات من الشعر مرصوصة وهزيلة كما تبنى البيوت فى أيامنا ·· ولكننا بازاء عاشق عفيف جرفه الحب الالهى فغاص فى بحر الحقيقة وعاد لينثر أمامنا هذه اللالىء المشعة حبا وجمالا ·· رجل كانت متعته الوحيدة فى هذا العالم مدح الرسول ، والتقرب الى الله بهذا الحب المستكن فى شغاف القلب :

هو الحبيب الذى ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم
مبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

ولا تحسبن البردة هى القصيدة الوحيدة التى صاغها البوصيرى فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو صاحب « الهمزية » التى مطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طولتها سماء

وكان يعلم أن كعب بن زهير قد حظى بالشرف الأسنى عندما ألقى قصيدته الشهيرة أمام الحضرة النبوية الشريفة ، والتى مطلعها (بانت سعاد فقلبى اليوم منبول) فتهفو نفس البوصيرى الى هذا المقام الشريف · وتشرئب روحه الى الطلعة المحمدية فينشىء قصيدة على نفس الوزن والقافية التى صاغ بها كعب قصيدته ويسميها (ذخر المعاد فى معارضة بانت سعاد) ويقول فى مطلعها :

الى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول
فى كل يوم ترجى أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسويف محلول

وتمضى الأيام وينتظر الرجل لحظة التجلى كى يطفىء لواعج الظمأ الذى يكوى فؤاده ، ولكن الأيام تمضى ولا يدرك مناه ،

فيعلم أنه لا يزال مشغولا بأمور الحياة ، وأن عزيمته لا تزال فى حاجة الى مجاهدة ورياضة ، فلا ييأس ، وانما يزداد قربا وتوسلا من الحبيب بقصيدة مطلعها :

أمدائــح لى فيــك أم تســبيح   لولاك ما غفر الذنوب صفوح

ومرة أخرى يطول ليل الرجل ، ويتضاعف عذابه ، وتثقل الهموم قلبه ، ويعلم أنه لا سبيل الى غايته الا بالتجرد عن متاع الدنيا ، فيهاجر الى الله بقلبه ووجدانه ، عندئذ تتجلى له أنوار الحقيقة ، ويشعر البوصيرى بأنه ولد من جديد ، ويطلق البوصيرى على قصيدته « البردة » تشبها بما فعله كعب وتطلعا الى القرب من الذات النبوية ٠

يقول الرواة ان البوصــيرى نظم قصيدته بعــد أن أصيب بالشلل ، واستشفع بهــا الى النبى والى الله أن يعافيــه ٠ وكرر انشادها ثم نام فرأى النبى صلى الله عليه وسلم يمسح على وجهه بيده المباركة وألقى عليه البردة فانتبه ٠٠ فاذا بالحياة تدب فى جسمه المشلول ٠٠

لقد كان الامام البوصيرى موصول الصلة بالسماء ، ولكنه لم يكن مقطوع الصلة بدنيا الناس ، فبعد تخرجه فى الأزهر عمل موظفا بجهاز جباية الضرائب فى مدينة بلبيس كبرى مدن الشرقية فى القرن السابع الهجرى ، وهى وظيفة تغرى من يشغلها بأن يصبح من أصحاب الثراء العريض بين عشية وضحاها ٠٠ ولكن البوصيرى ـ الشاعر الصوفى الرقيق ـ كان يحمل بين جنبيه قلبا يقظا وضميرا حيا ويدا عفيفة ٠٠ فنشأ من كل ذلك حجاب بينه وبين المال الحرام٠

ولكن يبدو انه كان من الصعب على موظف صغير يتمتع بهذا السمو الخلقى ـ ان يمكث طويلا بين حيتان البيروقراطية المصرية التى تستحل الرشوة والاختلاس ، وترى فى نهب أموال الدولة

عملا مشروعا لا يوقع صاحبه فى دائرة الاثم والتجريم ، فترك البوصيرى جهاز الضرائب وتقلب بين عدد من الوظائف الحكومية ، عساه أن يجد الوظيفة التى تكفل له حياة شريفة فى اطار القيم التى يعتنقها ، ولكن موجة الفساد الادارى التى انتشرت فى العصر المملوكى لم تحقق له أمنيته ، فترك سلك الحكومة واتجه الى العلم والفقه بعد أن سجل تجربته فى هذه الأبيات :

خبرت طوائف المستخدمينا	فلم أر فيهمو رجلا أمينا
فكتاب الشمال همو جميعا	فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عهدنا	بهم فكأنما سرقوا العيونا

● ● ●

ولكن الشاعر الزاهد لم يجد مبتغاه فى مجتمع العلم والعلماء ، واصطدم بتلك الزمرة الفاسدة من أدعياء العلم وتجار الدين واكتشف ان هذا المجتمع لا يختلف كثيرا عن سابقه ، فضاقت نفسه بضعاف النفوس من ذوى الضمائر الميتة الذين يسخرون علمهم لمن يدفع ، ويؤولون نصوص الشرع خدمة لأصحاب الجاه والمال .

عندئذ أدركه اليأس من اصلاح الحال ، فهاجر بدينه الى الاسكندرية ليجد الملاذ والأمان والسكينة عند أستاذه ورائده أبى العباس المرسى ، وكانت تلك بداية الطريق الصحيح لمن أراد أن يعيش طاهرا فى مجتمع الذئاب .

وللبوصيرى قصائد طريفة فى وصف أدعياء العلم لا تخلو من روح الفكاهة والسخرية واليك نموذجا منها :

تنسـك معشر منهـم وعـدوا   مـن الزهـــاد والمتورعينـــا
وقيل لهـم دعــاء مستجـاب   وقد ملأوا من السحت البطونا
وما أخشى على آمـــوال مصر   ســـوى من معشر يتأولونـــا

وأنت تلمس فى هذه الأبيات روح السخرية والتنكيت التى كانت ظاهرة واضحة عند كل شعراء مصر الصوفيين ، لقد كانوا على درجة رفيعة من الزهد والورع والتقوى والصلاح ، ولكنهم لم يتخلصوا من مصريتهم الأصيلة فى حب الدعابة والمرح ·· وليس أدل على ذلك من تلك القصيدة الطريفة التى نظمها الشاعر الصوفى العظيم عبد العزيز الدرينى ، وحكى فيها متاعبه وأوجاعه لزواجه من امرأتين ، ظنا أنه سينهل من بحر العسل ·· ولكنهما اجتمعتا عليه وأذاقتاه طعم الحنظل :

تزوجت اثنتين لفـرط جهـلى   عسى بزواجهـــن تسر عينـى
فقلت أعيش بينهمـا خروفـا   أنعـم بـين أكـــرم نعجتـين
فجاء الحال عكس الحال دوما   عذابـــا مؤلمـــا بـين اثنتين
رضا هذه يحرك سخط هـذى   نقـــار دائـم فى الليـــلتين
اذا ما شئت أن تحيا سـعيدا   مـن الخـيرات مملـوء اليدين
فعش عزبا وان لم تســتطعه   فواحـــدة تكفـى عســكرين

قصيدة الاستقبال

عاد الخديو عباس حلمى الثانى من رحلة الحج عام ١٩٠٢ فوجد فى استقباله قصيدة مجهولة المؤلف من أعنف شعر الهجاء ، وأقوى ما قيل فى التهجم على الأسرة العلوية التى اعتبرها الشاعر نكبة على مصر والمصريين وأخذ يعيرها بأصلها الوضيع فى (قولة) ، وينهال على عباس تهكما اذ طمح فى أن يكون خليفة للمسلمين ! وذاعت القصيدة على ألسنة الناس ، وباتت حديث المقاهى والمنتديات بعد أن قرأوها على صفحات مجلة (الصاعقة) التى كان يصـــدرها الصحفى أحمد فؤاد المشهور بالصاعقة نسبة الى صـــحيفته التى تخصصت فى اقذع ألوان الهجاء والسخرية .

يقول كاتب القصيدة التى دخلت تاريخ الأدب الحديث باسم قصيدة « الاستقبال » مخاطبا الخديو بعد قـــدومه من الأقطـــار الحجازية :

قدوم ولكن لا أقول سعيـــــد ... وملك وان طـــال المدى سيبيد

يذكرنا مرآك أيام أنزلت ... علينا خطوب من جدودك سود

رمتنا بكم « مقدونيا » فاصابنا ... سهام بـــلاء وقعهن شديد

فلما توليتم طغيتم وهكـذا اذا أصبح « القولى » وهو عميد
أعباس ترجو أن تكون خليفـة كما ود آبـاء ورام جـدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنـا نكون ببطن الأرض حيث تسود

وثارت ثائرة الخديو ، وطلب من سلطات التحقيق أن تباشر مهامها ، فالقت القبض على صاحب المجلة فقال انه لا يعرف اسم مؤلف القصيدة ، وادعى انه نقلها سمعا عن الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى ، وبعد القبض على المنفلوطى نفى انه ناظم القصيدة ، ولكنه لم يكشف النقاب عن اسم صاحبها ، وازاء هذه المعلومات المبتورة لم تجد النيابة بدا من تقديمهما الى المحاكمة فكان نصيب كل منهما السجن ستة شهور مع النفاذ .

ولم يقنع عباس الثانى بهذه النهاية ، وانصرف همه الى معرفة المؤلف المجهول ، وكان عباس كأى حاكم شرقى يعتمد على الجواسيس الذين ينقلون اليه همسات الناس فى مخادعهم ، كما كان بارعا فى تدبير الدسائس والمؤامرات وهو الذى وصفه اللورد كرومر بأنه كان أستاذا فى هذا الفن . وأطلق عباس عيونه فى سوق الأدب حتى عرف ان كاتب القصيدة هو السيد توفيـــق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ونقيب الاشراف وزعيم بيت السادة البكرية أحـد بيوت العلية الذين يحظون بشرف الانتساب الى الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ويضعون أنفسهم فى منزلة تضارع منزلة البيت المالك نفسه ، ان لم تعل عليه .

وكان توفيق البكرى أديبا وشاعرا وباحثا يجمع بين الثقافـة العربية الرصينة ، والثقافة الغربية الحديثة ، وقـد تلقى تعليمه المبكر فى المدارس الأجنبية جنبا الى جانب عباس حلمى وغيره من امراء البيت العلوى ، وان كانت هذه الزمالة القديمة لم تمنع سليل بيت الصديق من أن يطمح الى ما هو أكبر من المناصب الدينيـة

الرفيعة ٠٠ ويرنو الى عرش مصر ، وكان قصره الفخيم بالخرنفش مثابة يؤمها علية القوم ، وسفراء الدول الأجنبية ، وعلى رأسهم المعتمد البريطانى ، يحرصون على غشيانه فى المناسبات والأعياد الدينية حرصهم على الذهاب الى قصر عابدين ، ولقد أدت كل هذه الملابسات بنقيب الاشراف الى أن يعامل صاحب العرش معاملة الند للند ، وليس معاملة التابع لسيده ، وكان عباس من جانبه يرقب بحذر مطامح النقيب وما يمثله من خطر على عرش تنوشه سهام الاحتلال من جانب ، ودسائس الخلافة من جانب آخر ، ولكن ماذا عساه أن يفعل مع رجل هذه مكانته ؟!

●●●

لقد كان من العسير على الخديو عباس أن يعامل عميد البيت البكرى معاملة السوقة حين يتطاولون على الذات العلية ، فهؤلاء ينتظرهم سيف القانون ، أما هذا السيد السند فلا مناص من أن يكون جزاؤه متكافئا مع منزلته السامية ، وكانت جعبة عباس عامرة بشتى ألوان الدسائس التى تناسب كل المستويات ، فكان حظ النقيب دسيسة مفادها الحط من كرامته ، وتلويث سمعته الخلقية عند أتباعه ، واسقاط هيبته الدينية عند من يراهنون به فى مجال السيادة والشرف سواء فى عاصمة السلطة الشرعية (استانبول) أو عاصمة السلطة الفعلية (لندن) ، وجادت قريحة الخديو بفكرة خبيثة فأوعز الى احد أدباء القصر أن يستدرج البكرى الى كتابة قصيدة فى أحد موضوعات الغزل الفاحش ٠ واليكم تفاصيل المؤامرة كما يرويها شيخنا عباس محمود العقاد :

كان حفنى ناصف أقرب الأدباء صلة بالسيد البكرى ينشده ويستمع اليه ٠٠ فلما ذهب يزور السيد واقبل هذا ينشده من جديد نظمه ، تعمد حفنى أن يستثيره وقال له : أيها السيد ! انك ممن

لا ينبغى لهم الشعر ، فدعه لنا وحسبك فخار الشرف والجاه ! وحمى غضب السيد فتحداه ان يجاريه فى نظمه ان استطاع ، وقبل حفنى التحدى على شريطة أن يكون موضوع القصيدة شخصيا لا يستعار من ناظم آخر فى باب من الغزل المحظور ، فكتب البكرى أبياتا فى المعنى المقترح بخطه وكتب حفنى أبياتا فى معناها ، ثم أخذ أبيات البكرى فأظهر الاعتراف برجحانه عليه فى فن الشعر فوق رجحانه عليه فى الحسب والنسب ! وذهب الى النافذة يوهم السيد انه يمزق الورقتين ويلقيهما حيث تلقى المهملات ، ولكنه مزق ورقته وأبقى الورقة الأخرى فى جيبه ، ثم أسرع بها الى القصر ليسلمها الى الخديو فاسلمها الخديو الى لورد كرومر فى أول لقاء بينهما ، فكانت آخر العهد بدعوة السيد البكرى الى حفلات الوكالة البريطانية ، وآخر عهد بزيارة العلية من رجال الدولة لقصر الخرنفش .

دنشواى الصغيرة

ينفرد حادث دنشواى (١٣ يونية ١٩٠٦) بمكانة خاصة فى تاريخ الكفاح المصرى بسبب الفظائع التى ارتبطت به ، والبشاعة التى تم بها تنفيذ أحكام الجلد والشنق فى الفلاحين المصريين على مشهد من أهليهم فى أحد اجران القرية البائسة ، فظل دوى الحادث يتردد فى أنحاء مصر والعالم حتى أفاق المجتمع الدولى على وحشية الاحتلال البريطانى ، واستخدامه أحط وسائل القمع والتنكيل بالفلاحين العزل ، وكان حادث دنشواى من الأسباب الرئيسية التى عجلت برحيل جبار الاحتلال ايفلين بيرنج ـ الشهير باسم لورد كرومر ـ عن مصر فى العام التالى مباشرة · وصدق فيه قول أمير الشعراء أحمد شوقى :

أيامكم أم عهد اسماعيلا ... أم انت فرعون يسوس النيلا ؟

أم حاكم في أرض مصر بأمره ... لا سائلا أبدا ولا مسئولا !

يا مالكا رق العباد بباسه ... هلا اتخذت الى القلوب سبيلا

لما رحلت عن البلاد تشهدت ... فكأنك الداء العياء وبيلا

ولكن تاريخ مصر الحديث ينطوى على حادث شبيه بحادث دنشواى دون أن يكون له حظ شهرته ، ربما لأن حادث دنشواى الصغيرة وقع بعد خمس سنوات فقط من كارثة الاحتلال ، وهى الفترة التى بلغ فيها الاحتلال ذروة عنفوانه ، وخمد بالتالى صوت المقاومة الوطنية ، وربما لأن الأحكام التى صدرت عقب حادث دنشواى الصغيرة خلت من أحكام الاعدام ، وهو الفارق الرئيسى بين الحادثتين وباستثناء هذا الفارق ، فقد تطابقت وقائعهما جملة وتفصيلا •

وقد بدأت أحداث دنشواى الصغيرة فى اصيل يوم ٢٧ مارس ١٨٨٧ عندما توجه ضابطان من جيش الاحتلال من لواء ويلز لصيد السمان فى الحقول المتاخمة لأهرامات الجيزة ، وأثناء الصيد أصاب الرش بعض الأهالى تصادف مرورهم على ظهور الجمال ، فتوجهوا نحو الضابط المعتدى فحاول منحهم بعض البقشيش ، ولكنهم رفضوا محاولة الاسترضاء ودارت بين الطرفين مشادة حامية هجم أثناءها الفلاحون على الضابط لانتزاع البندقية من يده ، ولكن دفعة من الرش انطلقت واستقرت فى رأس أحد الفلاحين فأردته قتيلا •• وسرعان ما طار الخبر الى أهالى قرية « الكنيسة » فهرع أهل القرية الى موقع الحادث ، وانقض أهل القتيل على الضابطين ، فأطلق أحدهما بندقيته فأصابت أشخاصا آخرين ، ولكن الأهالى تغلبوا عليهما واقتادوهما الى القرية حيث انهالوا عليهما ضربا •• ثم تدخل الخفراء لحماية الضابطين حتى وصول رجال البوليس وأطلقوا سراحهما •

وبمجرد وصول أنباء الحادث الى علم السلطات البريطانية ، توجه كولز باشا نائب مفتش عام البوليس على رأس مفرزة من رجال البوليس العلنى والسرى وقاموا باعتقال ٤٥ شخصا من مشايخ وأهالى القرية اشتبه فى اشتراكهم فى الحادث ، وعقد نوبار باشا

رئيس الوزراء ووزير الداخلية اجتماعا طارئا حضره وزير الخارجية ومدير الجيزة وشفيق بك منصور نائب المدعى العام لدى المحاكم الأهلية للتشاور فيما ينبغي عمله لاسترضاء سلطـــات الاحتلال ، واستقر الرأى على أن يعهد بالقضية الى محكمة مخصوصة تشكل من مدير الجيزة ونائب المدعى العام وضابط انجليزى كان يشغل منصب الملحق العسكرى .

ويعلل الدكتور محمد جمـــال الدين المســـدى فى كتابه عن (دنشواى) احالة القضية الى محكمة مخصصة بعدة أسباب : منها عدم الثقة فى امكان خضوع المحاكم الأهلية للضغط ، واصدار أحكام فيها ترضية كافية لسلطات الاحتلال ، كما كان يفترض ان تتعرض تلك المحاكم لمسئولية الضابطين عن الحادث مما يجعل المحاكمة عامل اثارة ضد الاحتلال البريطانى فى مصر ، يضاف الى ذلك أن سلطات جيش الاحتلال كانت تصر على أن تلقى الخناقـــات بين المصريين وأفراد جيش الاحتلال معاملة خاصة تكفل السرعة والشدة فى توقيع العقاب .

ورغم أن تقرير الطبيب الشرعى عن تشريح جثة الفلاح القتيل قد أسفر عن وجود سبع عشرة (رشة) فى رأسه ، مما يدل على انه أصيب من مسافة قريبة جدا .. الا أن السلطات لم تبحث فى مسئولية الضابطين القاتلين ، ولم توقع عليهما أى عقاب .. وانتهت المحاكمة بادانة ستة من الأهالى وثلاثة من مشايخ القرى ، فحكم على المشايخ بالسجن والغرامة، وعلى الأهالى بالسجن والجلد عددا يتراوح بين ٢٥ و ٥٠ جلدة بواسطة (القطة الانجليزية) وهى تختلف عن الكرباج المصرى المصنوع من الجلد المزدوج ، ويضرب به على الرجلين والاليتين ، أما القطة فلها تسعة أفرع فى كل منها عقدة والضرب بها على الظهر ، وقد وصف مراسل جريدة (ستاندرد) البريطانية وقائع تنفيذ الأحكام على النحو التالى :

« فى الساعة الثالثة من بعد ظهر الخميس اتجهت فصيلتان من لواء ويلز الذى ينتمى اليه الضابطان اللذان وقع عليهما الاعتداء الى القرى التى ينتمى اليها المحكوم عليهم ، واصطفوا لمشاهدة تنفيذ الأحكام ، كان هناك أيضا بليغ بك على رأس البوليس السوارى المصرى ، والنقيب فريمان على رأس بعض رجال البوليس الحربى البريطانى ، وهم مجموعة من الرجال فارعى الطول تم اختيارهم من بين فرق الفرسان المختلفة ·· وقد قيد المحكوم عليهم الى العروسة المعروفة ، ونفذ فيهم أحكام الجلد سجانون انجليز أشداء من سجن الجيزة ، وكان التنفيذ علنا على مشهد من الفلاحين بالقطة الانجليزية ·· وبعد أن تم جلد بعض المحكوم عليهم عند احدى القرى ، تحرك الجميع الى قرية أخرى وجلد عدد آخر من المحكوم عليهم أمام أهالى القرية ، وبعد أن تم تنفيذ أحكام الجلد ألقى قائد لواء ويلز كلمة قصيرة قال فيها : ان الانجليز حضروا الى مصر لحماية الأوروبيين بالاضافة الى حماية الوطنيين ، وانهم بذلوا دماءهم فى سبيل هذا البلد وتملأهم الرغبة فى حفظ النظام فيهـا ، لذلـــك فلو وقعت اضطرابات أخرى فان المتسببين فيها سيلقون عقابا أشد مما لقيه المحكوم عليهم » ·

وعقب مراسل الصحيفة الانجليزية على الحادث بقولـــه انه بمجرد بدء موسم الصيد يهرع الأوربيون من مختلف الجنسيات الى الحقول ويتلفون مزروعات الفلاحين ، وقد تكررت شكوى الفلاحين من ذلك دون جدوى ، لأن الامتيازات الأجنبية تحـول دون عمـل شيء ، وهذا ظلم صارخ ، ثم أضاف : « وقد سمعت اليوم أن بعض مشايخ القرى قالوا انهم سيشنقون بدون رحمة أول أوروبى يسيء التصرف ، وهو يصطاد وذلك انتقاما لما حدث للأهالى ·· » ·

ويبدو ان تقسيم الحظوظ ينطبق على حوادث التاريخ كما يجرى على البشر ، فقد اندثر حادث دنشواى الصغيرة من ذاكرة التاريخ ، ولم يحفل به أحد من الباحثين باستثناء الدكتور المسدى ، وبقى حادث دنشواى الكبيرة ماثلا فى الأذهان محفورا فى وجدان المصريين يذكرهم دائما بالتضحيات الجسيمة التى بذلوها دفاعا عن أموالهم وكرامتهم وأعراضهم ٠

نشأة الأحزاب المصرية

كان فى مصر ـ قبل ثورة ١٩١٩ ـ ما لا يقل عن عشرة أحزاب سياسية توالى ظهورها بدءا من عام ١٩٠٧ ، ولو ان الساحة المصرية قد شهدت محاولات مبتسرة لتشكيل أحزاب سياسية فى غضـون الثورة العرابية مثل (جمعية مصر الفتاة) و (الحـــزب الوطنى) القديم ، وكلاهما كان يضم نخبة المثقفين والضباط الذين حملوا فى قلوبهم حلم الثورة والاصلاح ، ولكن هذه التشكيلات المبكرة لا ينطبق عليها وصف الحزب السياسى بالمفهوم الليبرالى على النحو الذى عرفته أوروبا الحديثة باعتبار الحزب « جمعيـــة تم تنظيمها على أساس تحقيق مبدأ معين أو بلوغ غاية سياسية بعينها وذلك بواسطـــة السيطرة على الحكم بالوسائل الدستورية » .

هذا المفهوم الليبرالى للأحزاب السياسية لم تعرفه مصر عمليا الا فى مطلع القرن الحالى ، وان كانت الظاهرة التى تستلفت النظر هى ان كبار هذه الأحزاب ولدت فى أحضان الصحف الوطنية التى كانت تصدر بالفعل قبل سنوات من نشأة الأحزاب ، وكانت الصحف قد ضربت جذورها فى التربة المصرية وهيأت الأرض لاستقبال النبت الجـديد . وبذلـك كانت الصحف بمثابـة الرحم الذى تخلقت فيـه

نطقة الأحزاب السياسية حتى حان وقت مخاضها مما يؤكد أهمية الدور التاريخي للصحافة المصرية في ظهور الأحزاب ٠

فصحيفة (المؤيد) التى أصدرها الشيخ علي يوسف عام ١٨٨٩ أفرزت حزب (الاصلاح على المبادىء الدستورية) الذى لم يظهر الى الوجود رسميا الا فى ٩ ديسمبر ١٩٠٧ ، وصحيفة (اللواء) التى أصدرها الزعيم الشاب مصطفى كامل عام ١٩٠٠ سبقت اعلان قيام (الحزب الوطنى) بسبع سنين ، وكذلك (الجريدة) التى نطقت باسم كبار ملاك الأراضى وجماعة المثقفين المتغربين كانت الوجه الوحيد المعبر عن (حزب الأمة) الذى لم يتعد نفوذه الصالون الأنيق المخملى الذى كان يتردد عليه قادة الحزب ٠

واذا كان من المستحيل نشوء الاحزاب السياسية من فراغ ، فقد وقعت أحداث هامة جعلت من ظهور الأحزاب ضرورة تاريخية للقيام بدورها في مرحلة زمنية معينة ، ويضع المؤرخون حادث (طابا) فى عام ١٩٠٦ علامة البداية لولادة الأحزاب المصرية ، عندما حاولت تركيا سلخ طابا عن السيادة المصرية فتدخلت انجلترا لاحباط المحاولة وابقاءالحال على ماهو عليه ، ومع ذلك وقف الرأى العام المصرى الى جانب تركيا ضد انجلترا ٠٠ !!

وكان هذا الموقف الغريب ـ فيما يرى أستاذ الصحافة الدكتور عبد اللطيف حمزة ـ دافعا لعدد كبير من المثقفين المصريين الى اصدار صحيفة مصرية تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص نحو تركيا أو احدى السلطتين الشرعية (الخديو) والفعلية (الاحتلال) وان تكون ملكا لشركة من الأعيان أصحاب المصالح الحقيقية الذين ظن كرومر انهم راضون عن الاحتلال ٠ وهكذا ولدت (الجريدة) كرد عملى على حادث طابا ، وبعدها بأيام ولد حزب الأمة فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ ولكن الدكتور يونان لبيب رزق أستاذ

التاريخ الحديث يرى أن اتخاذ حادثة معينة كأساس لظهور فترة جديدة من الحياة السياسية تختلف عن الفترة السابقة ، انما هو اغفال لطبيعة التطورات التى تمخضت أخيرا عن هذا التغيير أو جهل بها ، وبناء على ذلك يرى أن نشأة الحياة الحزبية فى مصر كانت فى النهاية نتاجا وتعبيرا عن تطورات اجتماعية وتغييرات فكريـة واضحة ، وهو لا ينكر أهمية حادث طابا كسبب مباشر فى ظهور الأحزاب ، ولكنه يضيف اليه أحداثا سياسية واقتصادية منها خطاب الوداع الذى ألقاه لورد كرومر فى حفل تكريمه بعد عزله عن منصب العميد ، فقد كشف فى خطابه عن حقيقتين كـان لهما أثرهما فى تحريك نوازع القلق فى نفوس المصريين ، فلأول مرة أعلن ممثل الاحتلال ان الاحتلال باق الى الأبد ، وان الحكومة البريطانية ستبقى مسئولة عن ادارة الشئون المصرية ، وكان من الطبيعى ان تستثير هذه المفاجآت حماس أولئك الذين لم يكونوا مقتنعين بأهمية قيام أحزاب سياسية ، وأعرب الشيخ على يوسف فى خطاب علنى عن أن أهم أسباب انشاء حزب الاصلاح ما ورد فى خطاب كرومر .

ومن الحوادث التى كانت سببا فى التعجيل بظهور الأحزاب ، تلك الخطبة النارية التى ألقاها مصطفى كامل فى ١٤ سبتمبر ١٩٠٧ ووجه فيها أعنف الكلمات الى رئيس وزراء بريطانيا وتساءل عما اذا كانت انجلترا « تصر على العناد وتجاهد ضد أمة تفيض بالحيـاة ومصممة على نيل حريتها » وكان من أثر هذه اللهجة العنيفة ان ثارت مخاوف كبار ملاك الأراضى وقد اشتموا فيها رائحـة الثورة العرابية وما تحمله من مخاطر على مصالحهم التى ترسخت فى ظل الاحتلال ، مما دفعهم الى سرعة التحرك . ولم يمر أسبوع على ذلك الخطاب حتى أعلن هؤلاء الأثرياء قيام حزب الأمة لمواجهة تطرف مصطفى كامل .

ولم تكن الدوافع الاقتصادية بعيدة عن العوامل السياسية فى

نشأة الأحزاب المصرية ، ففى عام ١٩٠٧ أمسكت الازمة الإقتصادية بخناق البلاد بسبب جفاف السيولة النقدية مما أدى الى افلاس بعض المؤسسات المالية الى جانب الخراب المالى الذى أصاب كثيراً من الملاك الزراعيين الذين ضاربوا في البورصة ٠٠ وقد أراد هؤلاء المضاربون أن يضعوا مسئولية الازمة على كاهل صاحب (اللواء) واتهامه بالاثارة والتهييج مما أدى - فى رأيهم - الى انعدام الثقة باقتصاد البلاد ٠

وكرد فعل لهذه الأزمة وملابساتها ظهر (حزب الاحرار) لصاحبه محمد وحيد الدين بك الأيوبى فى ١٨ مارس ١٩٠٨ فكان بمثابة « الصورة السلبية » للحزب الوطنى من حيث النشأة والكيان والبرنامج والتصرفات ٠ كان مصطفى كامل يهاجم كرومر بشراسة ، فظهر الأيوبى ليرد على هجوم مصطفى كامل ويصفه بانه « جرثومة التعصب والفتن » ومن حيث البرنامج فقد اشتمل برنامج الحرب على ست نقاط تدعو كلها الى المسالمة الكاملة للمحتلين الانجليز وبقائهم فى البلاد بهدف الاستفادة منهم (!!) ٠

وفيما يتعلق بكيان هذا الحزب العجيب يقول الدكتور يونان ان الحزب لم يكن له كيان على الاطلاق ولم يكن له جماهير أو أعضاء باستثناء رئيس الحزب وحيد بك الأيوبى ووكيله محمد بك نشأت ، وبالرغم من أن بعض الصحف قدرت وقتئذ مجموع أعضاء الحزب بعشرين عضوا فقط !! الا أن صاحب الحزب انكر ان للحزب أعضاء على الاطلاق فيما عداه ووكيله نشأت بك ، وكان بعض الناس قد طلبوا الانضمام الى الحزب فأجابهم وحيد بك بأن كل من يريد الانضمام اليه ، ما عليه الا أن ينضم الى الحزب بقلبه ووطنيته الصحيحة الرشيدة ويسعى فى نشر مبادىء الحزب خدمة لوطنه (!!) ٠

هذا نموذج لبعض الأشخاص الذين أصابتهم (حمى) تشكيل

الأحزاب فى مطلع القرن ، على حد تعبير الدكتـور أحمـــد زكى الشلق ، حيث بلغت هذه الحمى حدا جعل كل مجموعة من الأفراد يلتفون حول مصلحة فئوية أو مهنية يقيمون حزبا ٠٠ ومن المؤكد انك ســـوف تبتسم حين تقرأ فى صحيفـــة (الأخبار) بتــاريخ ١٩٠٨/٧/١٥ عن قيام حزب للدفاع عن حقوق قرية « الفكرية » مركز أبو قرقاص ٠٠

حزب النبلاء والحزب الجمهورى

شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين مولد حركة البعث الجديد التى عمت أرجاء البلاد بعد طول رقاد ، لقد انتفضت مصر الخالدة من سباتها ومزقت أستار الخمول التى سادتها فى أعقاب الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢ ، وكان الظن ان مصر استسلمت نهائيا لقدرها وان سطوة الاحتلال قد قضت على عناصر القوة والمقاومة الكامنة فى الشعب ، واستنام الانجليز الى هذه الفكرة الخاطئة وأطلق كرومر صيحته المشهورة بأن الاحتلال باق الى الأبد ، ولكن هذا الداهية ــ الذى قضى فى مصر حوالى ربع قرن قام خلاله باعادة تشكيل الحياة المصرية بما يضمن دوام الاحتلال ــ خانه ذكاؤه فلم ينظر الى النار التى كانت تتوهج تحت الرماد ، ولم يفطن الى التفاعلات التى كانت تتخمر فى قاع المجتمع المصرى فكان من أثرها ظهور قوى اجتماعية جديدة وتيارات فكرية حديثة عبرت عن نفسها عن طريق الأحزاب السياسية والصحف والنوادى وغيرها ·

لقد شهدت هذه الفترة الخصبة فى مطلع القرن العشرين ، صداما علنيا بين القديم والحديث ، ومعارك سافرة بين القوى الرجعية التى تتشبث بمصالحها وامتيازاتها الموروثة ، والتيارات

الجديدة التى كانت تسعى الى اكسب أرض جديدة وتحلم بقيام نظام . سياسى واجتماعى حديث يختلف فى تركيبه عن صورة المجتمع فى القرن التاسع عشر ·

وكانت الأحزاب السياسية هى المظهر العملى لهـذه المعركـة المحتدمة بين القديم والحديث · كان كل منهما يعبر عن نفسه عن طريق التشكيلات الحزبية ومعها الصحف التى كانت بمثابة منابر للرأى فى شتى الاتجاهات ، فلم يكن غريبا أن يظهر حزب يمثل الشراذم التركية والشركسية وقد شعرت بافول نجمهـــا وزوال سلطانها امام الارستقراطية المصرية المتناميـــة ، وفى نفس الوقت يظهر حزب جرىء يدعو الى الغاء نظام الحكم الملكى والدعوة الى النظام الجمهورى ، دون اكتراث بغش الاتوقراطيـــة العتيد ويتربع على عرشها عباس حلمى الذى كان امتدادا لنظام الحكم المطلق الذى ساد مصر منذ مئات السنين ·

●●●

كان (حـــزب النبلاء) هـــو الارتعاشـــة الأخيرة فى جسم الارستقراطية التركية قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة مع اندلاع ثورة ١٩١٩ ، ففى سبتمبر ١٩٠٨ أعلن حسين حلمى زاده وصديقه محمود طاهر حقى عن تأسيس هذا الحزب برئاسة الأول وسكرتيرية الثانى وهما من خلاصة الترك جنسا ومزاجا وهوية ، وقد أفزعهما ما تعرض له بنى جنسهما من انكماش ازاء النزعة المصرية المتعاظمة فلم يجدا من وسيلة سوى الاعلان عن تشكيل حزب يحمل اسم (النبلاء) تعبيرا عن مصالح هذه الفئة المستعلية التى توارثت الامتيازات بحكم انتمائها الى الطبقة الحاكمة وارتباطها المباشر برأس الدولة · بل ان السبب المباشر لقيام هذا الحزب هو تلك الحملة الشعواء التى شنتهـــا صحف الحزب الوطنى على الخـــديو عباس والتى بلغت ذروتها

بمقالات نشرها الزعيم محمد فريد فى اللـــواء تحت عنوان « ماذا يقولون » • وبما نشره أحمد حلمى فى جريدة (القطر المصرى) من مطاعن فى أسرة محمد على ، وبرغم أن أحمد حلمى نشر هذه المطاعن نقلا عن جريدة (العدل) التركية ، الا أن النقل لم يحل دون تقديمه الى المحاكمة والحكم عليه بالحبس لمدة سنة ، فكان أول صحفى مصرى يسجن بتهمة العيب فى الذات الملكية • ولما كان الخديو هو زعيم الارستقراطية التركية ، فقد كان من الطبيعى أن يهب بعض الترك للدفاع عنه وعن الدولة العلية (الأم) التى يدين لها جميعهم بالولاء والانتماء ، عن طريق كتابة المقالات الحماسية فى صحيفة (المؤيد) •

وإذا كان صحيحا ان حزب النبلاء كان حزبا بلا جمـــاهير وبلا وجود حقيقى فى الساحة السياسة ، الا أن مجرد الاعلان عن قيامه يمثل دلالة تاريخية عن حالة الارستقراطية التركية ومحاولتها المستميته لاثبات وجودها قبل ان تجرفها دوامة الوطنية المصرية •

●●●

أما الحزب الجمهورى فهو النقيض الطبيعى لحـزب النبلاء • وقد وردت أول اشارة عن قيام هذا الحزب فى جريدة الاجبشيان جازيت عندما ذكرت أن جماعة من الوطنيين يبحثون انشاء حـزب يدعو الى الجمهورية وتلقفت النبأ جريدة (الأخبار) لصاحبها أمين الخازن السورى ـ وكانت فى الصف المعـــادى للخديو عباس ـ واعلنت عن ترحيبها الشديد بقيام الحــزب • « على أساس أن الحكومة الجمهورية أقرب الحــكومات الى مبادىء العدل والانصاف وأكثرها مراعاة لكرامة الانسان » وكان هذا الترحيب مشجعا لمؤسس الحزب ـ محمد غانم ـ للكشف عن نفسه ، وبعث الى (الأخبــار) بعدة مقالات أوضح فيها أفكاره فنجح فى استمالــــة بعض أنصار الأحزاب الأخرى اليه •

وفى رأى مؤرخى الأحزاب السياسية المصرية ان هذا الحزب تكون أساسا من مجموعة من المثقفين الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية، ويبدو ذلك واضحا من شعارهم الذى استمـــدوه من شعار الثورة الفرنسية ، « حرية ـ اخاء ـ مساواة » وبلغ من أعتدادهم بالثورة الفرنسية انهم كانوا يشاركون الجالية الفرنسية احتفالها بعيد ثورة ١٤ يوليو فى حديقة الأزبكية ، وكان أصحاب هذا الحزب يرون أن تدرج الأمة الطبيعى يمر بثلاث مراحل : أولاهــا نيل الدستور ، وثانيتها الاستقلال التام الخالص من محـــاولات التسلط الخارجى سواء أكانت بريطانية أم تركية • وثالثتها أن تبلغ الحركة الوطنية قمة نضجها فتعلن الجمهورية « وهو أرقى المطالب وأعزها على النفس الوطنية العالية » •

ويصف الدكتور يونان لبيب رزق الحزب الجمهورى بانه كان حزبا راديكاليا بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالة التغيير • ويستدل على ذلك بعدة شواهد ، منها ان الحزب اتخذ موقفا عدائيا صريحـا من حكم أسرة محمد على ولم يجبن عن الهجوم عليها هجوما شديدا فى الوقت الذى كانت فيه الأحزاب الأخرى تحرص على أن يكون خلافها مع الخديو ضمن حدود معينة لا تصل الى حد الاتهامات • كان محمد غانم يهاجم محمد على هجوما عنيفا ويصفه بان « همه فى جميع أعماله كان طلب المنفعة لشخصه وحصر الملك والثروة فى ذريته فنجح فى سعيه وترك عائلة متشعبة الفروع ذات ملك واسع وثروة طائلة ولكنها لم تأخذ الحيطة لصيانة هذا الملك وأصبحت فى الحالة التى نراها الآن » ويهاجم احد أعضاء الحزب واسمه « محفوظ » الخديو اسماعيل ويؤكد انه اغتصب مليونا وربع المليون فدان من مجموع أراضى مصر ومساحتها ٥ ملايين فدان •

ويرى الدكتور يونان ان الحزب الجمهورى هو الحزب الوحيد

الذى لم يخرج من دائرة « الاعيان والمثقفين » وان مؤسسى الحزب كانوا من جماعات المثقفين الذين ليست لهم انتماءات طبقية بجماعات الأعيان ، وكانت صحيفة (الأحرار) لصاحبها وحيد بك الأيوبى تفتح صدرها لكتاب الحزب الجمهورى وهم يهاجمون الأسرة العلوية فلما امتد هجومهم الى الاحتلال البريطانى أوصدت الصحيفة الباب فى وجوههم ٠

وكان هذا الاغلاق - فى رأى الدكتور محمد أنيس - بمثابة خنق لا لحرية الحزب الجمهورى فقط ، بل لوجوده أيضا ٠ وكما يبدو فان الموقف سواء من جانب الاحتلال أو الخديوية أو الدول الكبرى لم يكن يحتمل قيام مثل هذا الحزب الذى ظهر قبل أوانه بنصف قرن كما أن الموقف الداخلى نفسه فى مصر لم يكن يسمح بنمو مثل هذا التيار ، ولكل هذه الأسباب تقوقع الحزب داخل مجموعة من المثقفين سرعان ما أطيح بهم ٠

جعانين يافندينا

فى ٢٥ مارس ١٩٠٩ شهدت حديقة الأزبكية بالقاهرة أول مؤتمر جماهيرى من نوعه فى تاريخ المجتمع المصرى الحديث ، فقد احتشد (الفعلة) من عمال البناء والنقش والنجـــارة والحدادة والسباكة والبلاط للبحث عن حل لمشكلة الكساد والبطالة التى سادت حركة البناء بسبب الأزمة الاقتصادية الخانقة التى اجتاحت البـــلاد ودفعت بالطبقات الكادحة الى مزيد من الفقر ، وفى هذا الاجتماع الصاخب ترددت لأول مرة كلمة (الاشتراكية) كحل للازمة الراهنة، وكانت كلمة الاشتراكية حتى ذلك الوقت محصورة فى نطاق الكتابات الصحفية التى ينشرها بعض المثقفين المتأثرين بالفكر الاشتراكى من أمثال : شبلى شميل ونقولا حداد وسلامة موسى ، وكان طرح الحل الاشتراكى فى هذا المؤتمر دلالة على انتقاله من مجال الفكر الى مجال الواقع العملى ، كذلك طرح رؤساء العمال اقتراحا بتشكيل لجنة من بينهم « لتدبير أعمال للعاطلين » فكان ارهاصا بظهور أول تنظيم للعمال ، وانتهى المؤتمر بخروج العمال من حديقة الأزبـــكية فى مظاهرة طافت شوارع القاهرة وهى تهتف « جعانين يافندينا »

وأفندينا ٠٠ هو اسم التدليل لخديو مصر عباس حلمى

●●●

كان مؤتمر عمال المعمار فى حديقة الأزبكية هو أول مظهر احتجاجى عملى قامت به فئات عمالية خارج جدران العنابر والمصانع والفابريكات التى أخذت فى النمو فى مطلع القرن ونشأت معها بروليتاريا مصرية ذات مصالح ومطالب تتعلق بالأجور وساعات العمل التى بلغت فى بعض المنشآت ١٥ ساعة يوميا ، فلما زادت حدة المشاكل مع تفاقم الازمة الاقتصادية وسلبية الحكومة ؛ لم يجد العمال من وسيلة للتعبير عن مطالبهم سوى الاضراب ٠

وكانت قيود الامتيازات الأجنبية تشل يد الحكومة عن التدخل لمصلحة العمال المصريين والزام أصحاب الأعمال بتنفيذ القوانين المصرية التى تحمى العمال ٠

وكان من شأن هذه الفورة العمالية الوليدة ان تطرح على الساحة السياسية فكرة انشاء حزب للعمال يرعى حقوقهم فى وقت ازدحم فيه سوق العمل السياسى بالأحزاب من شتى النحل ، عندئذ تشجع شاب من أبناء التجار اسمه السيد محمد واعلن عن قيام « حزب العمال بالقطر المصرى والسودان » ، ووصفه بأنه « جامعة عمومية تجمع أواصرها كل طوائف ونقابات العمال ، وتكون هذه الجامعة عصمة أدبية اجتماعية لحقوقهم » ٠ ولم يقدم الرجل برنامجا تفصيليا يضع هذه العبارات الانشائية موضع التنفيذ ٠ كما ان الظروف لم تسمح له بذلك ٠٠ فقد تعرض الحزب لحملة كتمت أنفاسه وهو لم يزل فى المهد ، وكان اللافت للنظر ان الحملة لم تأت من جانب السلطة ولكن من جانب القيادات العمالية ؛ فقد استنكر بعض زعماء العمال أن يتصدر أحد أبناء التجار قيادة الحركة

العمالية ؛ وقال بعضهم ان هذا الحزب لا يمثل الا صاحبه ؛ وأبدى دهشته من التفكير في قيام حزب يطمح الى جمع جميع العمال تحت لوائه في الوقت الذى عجزت فيه ثلاث جمعيات عمالية عن اجتذاب الطبقة العاملة اليها ، وكان يعني بذلك جمعيات عمال المطابع ، ولفافي السجائر ، والترزية ، وبذلك وئدت أول محاولة لانشاء حزب ينظم الطبقة العاملة في مصر ٠

ويبدو أن حزب العمال الذى دعا اليه « السيد محمد » لم يكن هو الحزب العمالى الوحيد الذى ظهر في هذه الفترة المبكرة ، اذ يحكى لنا الدكتور عبد العزيز رفاعى فى كتابه (الديمقراطية والأحزاب السياسية) قصة حزب آخر اسمه « حزب المقاصد المشتركة » وتبدأ قصته بدعوة وجهها محمد أحمد الحسن فى صحيفة الأهرام يوم ١١ يوليو ١٩٠٨ الى أرباب المهن والصناع اليدويين لسماع خطبة عمومية سيلقيها سيادته في حديقة الأزبكية موضوعها وجوب انضمام أصحاب الحرف المصرية والأجنبية على اختلاف طبقاتها الى حزب واحد مشترك ليتكون منه جماعة قوية مسموعة الرأى فى الأعمال النافعة واقامة جريدة « الوضاح » للتعبير عن حال الحزب ٠

وكان العمل المجيد الوحيد الذى قام به حزب المقاصد المشتركة هو اصدار بيان احتجاج على حكومة بطرس غالى بسبب اصدارها قانون المطبوعات المقيد للحريات الصحفية في ٢٥ مارس ١٩٠٩ فنشر الحزب بيانا في الأهرام قال فيه : بالنيابة عن حوالى ٥٠ ألفا من العمال نحتج على ظهور قانون المطبوعات القاتل للحرية وتطلب الغاءه فورا ، ان مجلس الحزب سيعقد اجتماعا يشكل مظاهرة كبرى تكون احتجاجا فعليا اذا لم تتدارك الحكومة الأمر وتحترم صوت الشعب ، وان العمال ربما طافوا جميعا على بيوت النظار وقصر الامارة العامر ٠

ثم نقرأ عن تكوين حزب ثالث للعمال عن طريق بيان منشور في الأهرام يوم ١٦ يوليو ١٩٠٩ بتوقيع مجموعة « أبو عثمان » يقول فيه تحت عنوان (حزب العمال) : كلنا يعلم مركز العمال في أوروبا • والعامل هناك لا فرق بينه وبين القاضي والمحامي ، ولما كان الانسان من فطرته الطبيعية ميالا الى الارتقاء فقد قامت مجموعة من خيار العمال المصريين الذين يقدرون الأشياء وأسسوا حزبا باسمهم •

فتشبهوا أن لم تكونوا مثلهم   ان التشبه بالرجال فلاح

وانعقدت الجلسة الأولى فحضرها جمع كبير من العمال والوجهاء فانتخب السيد أفندى على (والد الاذاعى المعروف أحمد سعيد) مديرا له •

ولكن كل هذه الارهاصات العمالية الناشئة لم يكتب لها البقاء ، ويعزو الدكتور يونان لبيب هذا الفشل الى أمرين أولهما : خلو الساحة العمالية من قيادات قادرة على تنظيم البروليتاريا المصرية النامية ، وقد أتاح هذا الفراغ للعناصر البورجوازية ان تقوم بهذا الدور القيادى بقصد الوجاهة والزعامة المظهرية وليس من أجل الدفاع عن حقوق العمال كما ظهر في محاولة السيد محمد الذى كان ينتمي الى طائفة التجار وكما بدا في قبول الأمير حسين كامل لرئاسة جمعية مستخدمى الشركات والمصارف والمحال التجارية ، واضافة الى تحليل الدكتور يونان أقول ان ظاهرة استيلاء العناصر الارستقراطية على الحركة العمالية ستبقى ملازمة لنمو الطبقة العاملة حتى بعد قيام ثورة ١٩١٩ وظهور الأحزاب الليبرالية وكان أبرز مثال على ذلك النبيل عباس حليم الذى تزعم حزبا للعمال في الثلاثينات بالتعاون مع بعض العناصر الماركسية •

أما الأمر الثانى الذى كان سببا في فشل قيام حزب العمال في مطلع القرن فهو نقص « التصور الطبقي » لدى العمال المصريين •

فلم يبلغ بهم الأمر حد أعتبار أنفسهم طبقة ذات سمات مميزة لها مصالح تتناقض مع مصالح غيرها من الطبقات وليس أدل على ذلك من عجز الجمعيات العمالية التى قــامت فى ذلك الوقت عن اقناع العمال بالانضمام اليها ، وهناك مثل آخر عندما قامت جمــاعة من « الاشتراكيين المتطرفين » بدعوة عمال المعامل ومستخدمى المحــال التجارية على اختلاف نحلهم لتأليف رابطة للدفاع عن حقوق العمال ودفع مظالم أصحاب الأعمال وأرباب الأموال فكانت المفاجأة ان الذين لبوا الدعوة كانوا من اليونانيين والايطاليين والفرنسيين والأرمن ٠٠ ولم نر واحدا من المصريين اقترب منها أو شجعها كأن الجمعية ليست فى مصر » كما سجل ذلك توفيق حبيب فى مقال له بصحيفة « الأخبار » يوم ١٩٠٩/٩/٢٣ ٠

●●●

لقد كان أمرا طبيعيا أن تلفظ هذه المحاولات المبتسرة أنفاسها ٠٠ شأنها شأن كل كائن يولد قبل أوانه ٠

الحزب الاشتراكى المبارك

كان من أثر الاصـلاحات التى أدخلها الاحتلال الانجليزى على نظام الرى فى مصر ، أن زادت رقعـة الأرض الزراعية خلال عشر سنوات (من ١٨٩٦ الى ١٩٠٦) حوالى ٣٠٠ ألف فدان فى وقت تزايد فيه عدد السكان بمقدار ٤٣٪ ، وقد آلت معظم هذه الأراضى الجديدة الى طبقة كبار الملاك بما كان ميسرا لديهم من سيولة نقدية مكنتهم من الاقبال على شراء الأراضى والمضاربة على أسعارها ، بينما انخفضت نسبة صغار الملاك وخرج الكثيرون منهم من صفوف الملاك الى طوابير الأجراء والمعدمين ٠

واذا كانت سياسة الاحتلال من البداية تسعى الى نشـوء ارستقراطية زراعية مصرية خالصـة على أنقاض الطبقة التركية الشركسية ، التى كانت تحوز الملكيات الزراعية الكبيرة منذ عصر محمد على ، الا أن تدعيم كبار الملاك المصريين لم يكن بلا حدود ، وانما كانت تقف دونه محاذير ومخاوف من أن تتسع فجوة الفوارق بين الأغنياء والفقراء بما يهدد بقيام اضطرابات وزوابع فى الريف المصرى ٠ وهو أمر كان الاحتلال يحرص على تلافيه حتى يتحقق الاستقرار اللازم للرخاء وبقاء الاحتلال الى الأبد ، وتكشف تقارير

كرومر السنوية خلال تلك الفترة عن قلقه من اضمحلال طبقة صغار الملاك المصريين ، فاتخذ عديدا من الاجراءات مثل : الغـاء بعض الضرائب والغاء السخرة وتخفيف أعباء الديون المتراكمة على صغار الفلاحين ، ومنحهم قروضا ميسرة جديدة على أمل أن تؤدى هذه الاجراءات الى تثبيت الملكيات الصغيرة وزيادة عدد ملاكها ٠

ولكن جاءت الأزمة الاقتصادية عام ١٩٠٧ لتفسد من مفعول هذه الاجراءات وتعمق من حدة الفوارق بين كبـار ملاك الأراضى وصغارهم ، حتى اذا جاء عام ١٩٠٩ كانت الصحف تنشر يوميـا مالايقل عن ٤٠ اعلانا من البنك الزراعى بتوقيع الحجز على صغار الملاك وبيع أراضيهم فى المزاد ٠ وكان معظم هذه القطع مساحات صغيرة تتراوح بين عشرة أفدنة ونصف فدان ، وكان من الطبيعى أن يتقدم كبار الملاك لشراء هذه الأراضى واضافتها الى ممتلكاتهم ، وأن يتحول صغار الملاك الى مستأجرين أو اجراء يعملون فى الأرض التى كانوا يملكونها بأجور لا تكفى سد جوعتهم ٠

●●●

وكما شغلت هذه القضية بال كرومر وخلفائه بعد رحيله ، فانها شغلت ــ من زاوية مختلفة ــ عددا من المثقفين المصريين الذين أرقهم اتساع الفجوة بين الأغنيـاء والفقراء فتحركوا من منطلق انسانى بحت للعمل على اثارة نوازع الخير فى نفوس الأثرياء كى يحسنوا معاملة اخوانهم الفقراء ، فى ذلك الوقت كان مصطفى لطفى المنفلوطى ينشر أدبياته الانسانية الرائعة التى تحض الناس على العدل والفضيلة والخير وتحثهم على أن يرحموا من فى الأرض كى يرحمهم من فى السماء ، وكان الأديب الشاب محمد حسين هيكل يدرس القانون فى باريس دون أن تغيب عن خياله آلام الفلاحين

ومعاناتهم فيسجل ذلك فى أول رواية مصرية له أسماها (زينب)
.. حتى الذين عالجوا مشكلة الريف من باب السياسة فعلوا ذلك
وهم يحملون فى قلوبهم آمالا وردية وأمنيات براقة فى ان يتحقق
العدل الاجتماعى وتتحسن العلاقات بين الأثرياء والفقراء عن طريق
المودة والتعاطف ، ولم يخطر على أذهانهم طرح أفكار تتعلق
بتغيير نظام الملكية الزراعية تحت أى شكل من الأشكال .

●●●

وقد أقدم أحد هؤلاء المثقفين واسمه الدكتور حسن
جمال الدين على انشاء حزب سياسى أطلق عليه اسم (الحزب
الاشتراكى المبارك) هدفه تحسين أحوال الفلاحين الفقراء عن طريق
تحديد أوقات عملهم فى الحقول على أن يكون للفلاح نصيب سنوى
من عائد الأرض التى يعمل فيها وفق جهده وأن يحصل على معاش
فى حالة العجز والمرض ، ودعا الدكتور حسن جمال الدين فى
برنامج حزبه كبار الملاك الى الامتناع عن تشغيل زوجات الفلاحين
أو قريباتهم فى أراضيهم ، ومنع الفلاحين من تشغيل نسائهم فى
الأعمال الشاقة ، وعدم اجبار الفلاح على أن يعمل فوق طاقته أو أن
يقوم بعمل زوجته ، أما زوجة الفلاح فهى مسئولة عن خدمة
زوجها وأطفالها وادارة بيتها .

وطلب برنامج الحزب الاشتراكى المبارك من كبار الملاك
معاملة الفلاح معاملة طيبة على أن يكون من حق الفلاح الشكوى الى
المحكمة أو العمدة اذا ساءت معاملته ، وطلب من الحكومة أن تقوم
بفحص حالات الشرك بين الفلاحين وكبار الملاك وتتدخل السلطات
فى حالة وقوع أى خلاف ينشب بين الطرفين ، وتعرض برنامج
الحزب الى نظام العمد الذى ابتدعه كرومر فى عام ١٨٩٥ فطلب

من الحكومة أن تقيد نفوذ العمد وتسن التشريعات التى تحد من تسلطهم ·

ولكى يكسب مؤسس الحزب الاشتراكى المبارك أنصارا من بين الشرائح الزراعية ، فقد طاف الأقاليم يحاول اقنـــاع صغار الفلاحين بالانضمام الى حزبه ، وكان أمرا طبيعيا أن يقف هؤلاء الفلاحون من دعوة الدكتور حسن جمال الدين موقفا سلبيا لأن كل الاجراءات التى تضمنها حزبه تعود فى النهاية الى أريحية الأعيان وكرمهم ·· اذا شاءوا أعطوا ·· واذا شاءوا رفضوا ·· فظهرت هذه الأفكار أمام الفلاحين أشبه بالمواعظ والخطب المنبرية ·· فمن يستطيع اجبار كبار الملاك على تنفيذها ؟ ومتى كانت الحقوق تؤخذ عن طريق الوعظ والارشاد والعبارات العاطفية الخلابة ·· !!

● ● ●

كل هذه المعـــانى دارت فى أذهان صـــغار الفلاحين وهم يستمعون الى هذا الرجل الطيب وهو يتحدث اليهم حديثا صادقا عن فضيلة العدل وجدوى الرحمة ·· دون أن يقدم لهم برنامجـا عمليا لوضع هذه الأفكار الجميلة موضع التنفيذ ·· كان الفلاحون يقدرون فيه نزعته الانسانية فيصفقون له ·· فاذا انفض السامر عاد الرجل الى بيته فى القاهرة ·· وانصرف الفلاحون الى جحورهم وهم يدعون له بالخير ·· وكأن شيئا لم يكن ·

الحزب القبطى

شهدت الفترة من ١٩٠٨ الى ١٩١١ أسوأ مظـــاهر الشقاق بين المسلمين والأقباط ، وبدأ الخلاف بين الفريقين فى شــكل سجال علنى لم يلبث أن تطور الى حرب كلامية نفخت فيها أبواق الجهل والتعصب من الجانبين لتحقيق أغراض لا عـلاقة لهـــا بطبيعة العلاقات بين جناحى الأمة ٠

وقد بدأ السجال بمقال نشرته صحيفة (مصر) المعبرة عن الفكر القبطى هاجمت فيه فكرة الجامعة الاســـلامية التى كانت مطروحة وقتئذ ، كما تحاملت على « كل من وطئت أقدامهم أرض مصر من بدء الاسلام الى اليوم » (١٩٠٨) وبعد أسبوع نشرت زميلتها (الوطن) مقالا لأحد النكرات تهجم فيــه على التاريــخ الاسلامى فى مصر ، فما كان من الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان يرأس تحرير (اللواء) الا أن شمر عن ساعده وشحذ سلاحه، وشن هجوما عنيفا على الأقباط مما أثار خواطرهم ٠٠ وأخذت ردود أفعالهم تتصاعد فى شكل مقالات أشد وأقسى ٠٠ وفى هذه الهوجة الكلامية تسلل أنصار الشقاق والتعصب لاشعال النار فى الحطب

فظهرت فكرة تأسيس حزب قبطي يرعى مصـــالح الأقبــاط ازاء الأغلبية ٠

ورغم ان صحيفة (الوطن) كانت هي البــادئة بالاســتفزاز الا أن المؤرخ طــارق البشرى يصف مسلك الشيخ جاويش بأنه « سقطة كبيرة » على اعتبار أن العبء الأساسي في تحقيق سياسة الاخاء الوطني يقع على الأغلبية لأنهــا الأقوى ، وعلى اعتبار أنه لم يحاول تهدئة الخواطر ، ولا أن يخاطب جموع القبط بما يعزل دعاة الشقاق عنهم ، انما وجد أمامه الفخ فقفز اليه بقدميه وسقط فيه ، وابتعد عن المنهج المستنير الذى دعا اليه الامام محمد عبده عندما نبه الى وجوب الاحتياط من مهاجمة أية جماعة أو ملة اذا أخطأ شخص منهــــا ٠ فحق على الشيخ جاويش قول الامام انه « اعتدى على غير معتد وناضل في غير حرب » ٠

على أى حال فقد تلقف اخنوخ فانوس المحامي وزعيم الطائفة البروتستنتية الخيط من الشيخ جاويش وراح ينفخ في الكير ، ويدعو الى انشاء حزب للأقباط ، أسماه (الحزب المصرى) ونشر في ٢ سبتمبر ١٩٠٨ برنامج الحزب وأهدافه التى تتلخص في : استقلال مصر ، وسعادة وفلاح ســكان مصر ، واعتبار كلمــة « مصرى » مطلقة على الأصيل والمتجنس بالجنسية المصرية ووجوب تسهيل شروط التجنس٠ ويلاحظ الدكتور يونان لبيب رزق ان برنامج هذا الحزب كان يجمع بين العلمانية والاعتدال في معاملة الاحتلال٠ أما عن العلمانية فقد تضمنتها المادة الثالثــة من برنامج الحزب وتنص على « فصل الدين عن السياسة فصلا تاما والمساواة في الحقوق العمومية بين ســكان مصر وفى الحقوق الوطنيــــة بين المصريين الوطنيين بلا تمييز بسبب الجنس والدين » واما الاعتدال فيعنى ايجاد نوع من الروابط مع بريطانيا بعقد معاهدة تضمن

حرية تجارة انجلترا فى مصر ، وتسهيل طريق الهند لهـا فى وقت السلم والحرب على أن تتعهد انجلترا بالمحافظة على استقلال مصر والمساعدة فى صد الغارت الأجنبية عنها ٠

وفى المجال الدستورى اقترح برنامج الحزب انشاء مجلس للنواب يمثل فيه الأقباط تمثيلا نسبيا ، وانشاء مجلس آخر أسماه (الأودة التشريعية) يتكون نصف أعضائه من الأجانب والنصف الآخر من المصريين ٠ ويلاحظ الدكتور يونان ان برنامج هذا الحزب كان صورة حية للتناقض الذى وقع فيه بعض الأقباط فى ذلك الوقت ، ومحاولة للتوفيق بين رغبتهم فى عدم الذوبان فى خضم (الأكثرية) ٠٠ وبين أن يتساووا فى الحقوق مع أفراد هذه الأكثرية ، ولعل هذه المحاولة هى التى دفعتهم الى طرح برنامج وطنى علمانى فى نفس الوقت الذى تمسكوا فيه بوجودهم العنصرى وهذا قمة التناقض ، وان كان يؤكد حقيقة معينة وهى أن مثل هذا البرنامج لم يكن نابعا من (اقتناع فكرى) بقدر ما كان نابعا من (ضرورات دينية) مما يسلبه أى مضمون تقدمى ٠

●●●

واذا كانت محاولة تأسيس حزب قبطى بما صاحبها من فوضى كلامية ودعاوى جدلية تمثل أقصى مظاهر الشـقاق بين المسلمين والأقباط ، فان طارق البشرى يرى فى هذا (الأقصى) أبلغ دليل على الوحدة والامتزاج بين أبناء الوطن الواحد ٠ لقد استعملت فى تزكية الخلاف جميع المثيرات المكنة من الجانبين ، ومع ذلك فان المتجادلين كليهما كانا يصدران عن أرضية فكرية واحدة ٠٠ تاريخا وتكوينا نفسيا ٠٠ ومن أهم ما يلاحظ أن أحدا من المسلمين أو الأقباط لم يخرج عن اطار التاريخ الواحد والأفكار

العامة الواحدة والشعب الواحد ، ومن ناحية أخرى لم يكن دعاة الشقاق من القبط يمثلون أغلبية فيهم ، ولا استطاعوا أن ينجحوا في جذب الكثيرين اليهم • وكذلك كان الشـــأن بالنسبة لذات الدعاة من المسلمين ، وغلبت كفة « العقلاء » من الفريقين يهاجمون أي تماد في الشقاق ويحذرون منه ، سواء كانوا من قادة الأحزاب أو العاملين في حقل الحياة العامة عموما ساسة أو كتابا أو أدباء ، وكان ضغط الرأي العام المصرى على كلا الجانبين يفـرغ ما يراد اصطناعه من أزمات بينهم ، وكان مجرد احتمال قيام شقاق طائفي في مصر يستفز دوافع العمـــل على تصفيته ، وباستثناء بعض الكتابات التي تمادت في تزكية الخلاف ، فقد كان الطابع العام في الجدل ، وهو طابع العتاب والمجاملة ، يغلب على لغة المتحاورين العاملين على حصر الخلاف ، الناقدين لأي بادرة تهور أو جنوح ، ولم يعرف من أحد طعن في الدين ذاته ، أو تعرض له بما يمس التوقير اللازم له ، وكان حذر « العقلاء » دائمـــا من أن الخلاف لن يفيد الا المستعمر ، كما كان غالب الجدل المتبادل يصدر بلغة المصلحة الوطنية ومن أرضها ، وأقسى ما يوجهه أحد الكاتبين الى الآخر هو التشكيك في الولاء المشترك للوطن المصرى السابغ ظله على الجميع ، وهو اتهام يجد مضاءه في الاتفاق المصرى العام على معاداة الاحتلال الأجنبي •

●●●

لقد أخذت موجة الشـقاق مداها حتى تكسرت وذهبت مع الزبد جفاء ، وبقى ما ينفع النـاس في الأرض ليواصلوا مسيرة الحياة الطبيعية ، وفي ظلال هذا المناخ المتعقل الذى ساد المجتمـع المصرى بجناحيه الاسلامي والقبطي ، كان من الصعب على أي حزب

طائفى أن يجد مكانا له على الســـاحة المصرية ·· ومضت الأيام والشهور دون أن يرتفع صوت لحزب أخنوخ فانوس ·· ولم يعرف له مقر ·· ولم يحفظ التاريخ اسما واحدا لعضو من أعضـــائه باستثناء أخنوخ فانوس بالطبع ·· !!

لقد كانت محاولة طائفية فاشلة جرفتها رياح الوعى والرشد والتنوير ·

اخوان الوطنية

من المفيد أن نلقى الضوء على مفهوم « الوطنية » عند رواد الفكر السياسى الاسلامى فى العصر الحديث ، وفى طليعتهم الأستاذ الامام محمد عبده ، فيحكى تلميذه وناشر أفكاره السيد رشيد رضا أن الامام كان يرى الوطنية عبارة عن تعاون أهل الوطن الواحد ، المختلفى الأديان فى كل مافيه عمرانه واصلاح حكومته ، وأن الاسلام لا يعارض فى شىء من ذلك كما يثبته شرعه فى العدل والمساواة ، وان معلم الجيل السيد جمال الدين الأفغانى كان يرشد تلاميذه وحزبه السياسى الى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقى الى التعاون على الأعمال الوطنية السياسية والعمرانية ، وكان حزبه مؤلفا من أذكياء الملل المختلفة . وكتب الامام محمد عبده عن شعار « مصر للمصريين » الذى انبثقت عنه الثورة العرابية فقال : « ان الدين الاسلامى الحقيقى ليس عدو الألفة ، ولا حربا على المحبة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركونه فى المصلحة ، وان اختلفوا عنهم فى الدين ، ويقول ان العارف بحقيقة الاسلام يكون أبعد عن التعصب الجاهلى ، وأقرب الى الألفة من أبناء الملل المختلفة ، وان القرآن منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل

الكتاب ، ولكن أعداء الدين أفسدوا قلوب أهاليه « ولا قلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر » ٠

ويروى الأستاذ طارق البشرى فى كتابه « المسلمون والأقباط فى اطار الجماعة الوطنية » انه فى أعقاب تعيين بطرس غالى باشا وكيلا لوزارة الحقانية اتهمته احدى الصحف بمحاباة الأقباط فى الوظائف وغيرها وردت صحيفة أخرى مشيرة الى التحام المسلمين والأقباط بالألفة والمحبة ، وتوارثهم ذلك عن أسلافهم ، ووقوف القبط مع المسلمين فى الحروب ، وذكرت أن الخلاف الدينى لم يحدث فى مصر شقاقا وطنيا فى زمن من الأزمان ، ولذلك لاتوجد للأقباط فى مصر « مسألة سياسية » كما يوجد لغيرهم فى غير مصر من مسائل ، وفى ذلك الوقت كان الامام محمد عبده منفيا فى بيروت بعد فشل الثورة العرابية فلم يلتزم الصمت رغم بعد الديار عن هذه القضية ، فكتب مقالا فى صحيفة « ثمرات الفنون » وأرسل الى تلميذه وصديقه سعد زغلول يطلب اليه السعى فى نشره فى بعض صحف مصر ٠

وفى ذلك المقال عرض الاستاذ الامام لهذه المشكلة المصطنعة ولخص رأيه فى قوله : « ان التحامل على شخص معين لاينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى طائفة أو أمة أو ملة فان ذلك اعتداء على غير معتد ومحاربة لغير محارب ، أو كما يقال جهاد فى غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفعه وان كان له نفع » ٠ ثم ذكر أن طائفة الأقباط « أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد كان حسن حال الأقباط لصدق نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ٠ على أن كثيرا من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية فى الدول الاسلامية المتعاقبة ، بما أجادوا من صناعتى الحساب

والكتابة فى تلك الأوقات ، ولم تعهد لهم فتنـة ٠ أما ما تخلو طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين الى الشر فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الأشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم ٠٠ » ٠

ويعرض الأستاذ البشرى نماذج لمقالات عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية حول مفهوم الوطنية عند المسلمين والأقباط ، فكتب فى صحيفة « الأستاذ » بعد عشر سنوات من فشل الثورة يقول :

المسلمـون والأقبـاط هم أبناء مصر الذين ينسبون اليهـا وتنسب اليهم ، لايعرفون غير بلدهم ولا يرحلون لغيره الا زيارة ، قلبتهم الأيام على جمر التقلبات الدولية ، وقامت الدنيا وقعدت وهم هم ٠٠ اخوان الوطنية يقصد بعضهم بعضا ويشد أزره فى مهماته ، يتزاورون تزاور أهل البيت ويشارك الجار جـاره فى أفراحه وأتراحه ، علما منهم بأن البلاد تطالبهم بصرف حياتهم فى احيائها ، بالمحافظة على وحدة الاجتمـاع الوطنى الذى يشـمله اسم مصر ٠

ومضى النديم فى توضيح أفكاره فقال : ما أحوج المسلمين والأقباط الى الالتئام بعد أن عمتهم المعارف وتحلوا بالآداب ، وان ذكاء نبهاء الفريقين يدفعهم الى التمسك بحبل الارتباط الوطنى ، ثم قال انه توجد جمعية اسلامية وأخرى قبطية « ونحن لا جمعية لنا تبحث فى الوطنيـة ٠٠ ان تكوين جمعية من الفريقين يحول بينهما وبين النزعات الأجنبية » ٠

ويستنتج البشرى من العبارة الأخيرة أن النديم كان يرمى الى الدعوة الى قيام تنظيم وطنى جامع يقف ضد سياسة الاحتلال

البريطاني في بذر بذور الفرقة لاحكام قبضته على البلاد .. ووعد النديم بالعودة الى معالجة هذا الموضوع .. ولكنه لم يفعل .. فقد أمرت سلطات الاحتـــلال باغلاق الصحيفة ونفى النديم من من مصر .

شهيد حلوان

كان ضابط البوليس مصطفى حمدى عضوا فى المجلس الأعلى للاغتيالات أثناء ثورة ١٩١٩ ، وكان المجلس يضم نخبة من الشبان المتحمسين الذين أصبحوا فيما بعد نجوما فى المجتمع السياسى مثل الدكتور أحمد ماهر باشا الذى أصبح رئيسا لمجلس النواب ثم رئيسا للوزراء واغتاله المحامى محمود العيسوى فى البهو الفرعونى بدار البرلمان فى فبراير ١٩٤٥ ، ومحمود فهمى النقراشى باشا الذى أصبح رئيسا للوزراء واغتاله طالب الطب عبد المجيد حسن فى مصعد وزارة الداخلية فى ديسمبر ١٩٤٨ ، والمؤرخ والمحامى الشهير عبد الرحمن بك الرافعى ، وعبد اللطيف بك الصوفانى ، والسفير محمد بك شرارة ، والفدائى القديم شفيق بك منصور المحامى وعضو مجلس النواب الذى نفذ فيه حكم الاعدام عام ١٩٢٥ فى قضية اغتيال السردار .

كان شباب الجهاز السرى من العمال وطلبة كلية العلوم يصنعون بأنفسهم القنابل المحلية لاستخدامها فى قتل رجال الاحتلال البريطانى وأعوانهم من الساسة المصريين الخارجين على

الاجماع الوطني ، وكانت القنبلة عبارة عن قطعة من ماسورة محشوة بالمواد المتفجرة ومعها زجاجة صغيرة تحتوى على حامض البكربك ، وكانت هذه القنابل شديدة الخطورة على حاملها لأنها تنفجر بمجرد اهتزاز الزجاجة واختلاطها بالمتفجرات ٠

وذات يوم من عام ١٩١٠ ذهب الدكتور أحمد ماهر واليوزباشي مصطفى حمدى الى صحراء حلوان لتجربة قنبلة جديدة في المنطقة المتاخمة للجباسات حيث تكثر أصوات الانفجارات فى الجبل ، والقى أحمد ماهر بالقنبلة بأقصى قوته ثم انبطح مع زميله ٠٠ ولكن القنبلة لم تنفجر ، فنهض مصطفى حمدى وذهب الى حيث سقطت القنبلة ليتفحصها فلم يكد يمسكها بيديه حتى انفجرت وأطاحت بالجزء الأمامى من جبهته ، وارتاع أحمد ماهر وهرول الى زميله فوجد الدماء تنهمر بغزارة من رأسه فأخرج منديله ليوقف النزيف ٠٠ ثم انتزع قطعة من قماش بطانة البالطو الذى كان يرتديه محاولا وقف الدم ٠٠ ولكن محاولاته باءت بالفشل ، ولفظ الضابط الشاب أنفاسه ٠٠ وانتاب الفزع أحمد ماهر وهو يرى صديقه جثة هامدة فى هذا الفضاء العريض ، فتركه حيث هو وعاد الى محطة حلوان وغسل يديه من الدم ، ثم ركب القطار وعاد الى القاهرة ، وذهب من فوره الى بيت عبد اللطيف الصوفانى حيث كان باقى أعضاء الجهاز مجتمعين فى انتظار نتيجة اختبار القنبلة ، وأبلغهم ماهر بما جرى لزميله ، وكان يحضر الاجتماع سليمان أفندى حافظ المحامى (وكيل مجلس الدولة ثم وزير الداخلية فى عهد جمال عبد الناصر) فاعطاه الحاضرون مبلغ ٢٠٠ جنيه جمعوها من بينهم ليبعث بها الى أم الشهيد فى حوالة بريدية عن طريق مكتب بريد الفيوم ، وكان يحضر الاجتماع كذلك أحد شباب الفدائيين فى الاسكندرية واسمه

يعقوب أفندى صبرى جاء لتسلم حصة جهـــاز الاسكندرية من القنابل ٠

وفى اليوم التالى ذهب أحمد ماهر والأستاذ عبد الرحمن الرافعى ومعهما يعقوب صبرى الى مكان الحادث حيث دفنوا الجثة فى مكانها وعادوا الى القاهرة وقد ظنوا أنهم دفنوا سر صاحبها الى الأبد ٠ وبقى اختفاء الضابط لغزا على رؤسائه ٠ أما والدته فقد أفهموها أنه سافر فى مهمة طويلة الى استانبول ، وكانوا يرسلون اليها فى مطلع كل شهر حوالة بريدية بعشرة جنيهات ٠ وبعد مرور خمس سنوات على الحادث وبعد اغتيال السردار وقع ما لم يكن فى الحسبان ، فقد اهتزت أعصاب رجـــل الارهاب الكبير شفيق منصور وهو فى السجن فكتب تقريرا تفصيليا كشف فيه الستار عن قصة الجهاز السرى الذى ارتكب حوادث الاغتيـالات أثناء الثورة ، وعجز الانجليز عن التوصل الى خيط يدل عليه بالرغم من المكافآت المجزية التى رصـدها لهذا الغرض ٠ وبلا أى مبرر حكى شفيق منصور قصة الضابط مصطفى حمدى والطريقة التى لاقى بها حتفه ، واهتز الانجليز طربا لأنهم عثروا على أول اتهام يدين ماهر والنقراشى ، وقد كانت الشكوك تحيط بهما بشـــأن حوادث الاغتيالات ، ولكنها كانت تفتقر الى الدليل ، وجاءهم الدليل فى اعترافات شيخ الفدائيين شفيق منصور ٠

وكلفت السلطات الدكتـــور سيدنى سميث كبير الأطبـاء الشرعيين بمعاينة موقع الحادث الذى أشار اليه شفيق منصور ، فوجد بقايا عظام وقطعا من الملابس متناثرة فى الصحراء وقطعا من الزجاج والمعدن ، فأخذ كل هذه الأشياء لفحصها فى المعمـل فتبين أن العظام لشخص واحد بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر ، وعلى الجانب الأيمن من جبهته فجوة وكثير من الثقوب

فى الجانب الداخلى من الجمجمة مما يدل على أن صاحبها قتل عن انفجار قنبلة ٠ كما عثر على بعض أزرار البدلة تحمل اسم الترزى ، كما ان الطربوش يحمل اسم صانعه من الداخل ٠ وكانت كل هذه المعلومات تنم عن اسم صاحبها وهو اليوزباشى مصطفى حمدى ٠

أما الشظايا المعدنية والزجاجية التى عثر عليها الطبيب الشرعى فقد كانت تتضمن قطعا من اسطوانة حديدية وقطعة صغيرة من قضيب حديدى وقطعة مفرطحة من الصفيح وعنق زجاجة صغيرة ٠ وكان الدكتور سميث بحكم خبرته القديمة يعرف طريقة صنع القنابل التى استخدمت فى حوادث الاغتيال أثناء ثورة ١٩١٩ ، فاكتشف ان هذه الشظايا تماثل تماما القنابل التى استعملت أثناء الثورة ، ومن سوء الحظ أن البوليس قام فى نفس الوقت بتفتيش منزل حفار كليشهات اسمه يوسف طاهر ، فعثر على ١٨ قنبلة فى بئر منزله ، وأرسلت القنابل الى الطبيب الشرعى لفحصها فوجدها مماثلة لشظايا قنبلة حلوان ثم اتسعت المفاجأة حين تبين ان يوسف طاهر هو خال مصطفى حمدى ٠٠ الضابط الذى شاء القدر ألا يموت سره معه فى ذاك الفضاء العريض من صحراء حلوان ٠

الشيخ ١٣ يولية

كان الحاج أحمـــد جاد الله يعمل خراطا فى ورش السكة الحديد ، كان رجلا متدينا لا تفارق المسبحة أصابعه ، ولا تفارق الأدعيـــات شفتيه ، ولا تظهر عليه علامات العنف أو التهـور ولا يتصور أحد أن يكون هذا الشيخ الوقور عضـــوا فى جهاز الاغتيالات التابع لقيادة ثورة ١٩١٩ ، وأن يستخدم خبرته الفنية فى تصنيع القنابل اللازمة لعمليات اغتيال جنود الاحتلال والخونة المصريين المتعاونين مع سلطات الحماية البريطانية .

كان طلبة العلوم والطب الأعضاء فى هذا الجيش الخفى قد نجحوا فى تصميم قنبلة محلية وبقى عليهم البحث عن وســيلة لتصنيعها ، فطلبوا من قيادة الجهاز ترشيح بعض الخراطين لتنفيذ المهمة ، وكان المسئول عن جهاز العمال (جزمجى) اســـمه محمد عثمان الطوبجى فرشح اثنين من عمال العنابر أولهما الشيخ أحمد جاد الله ، والثانى هو الأسطى ابراهيم موسى ، وتسـلم العاملان التصميم وقاما بتنفيذه فصنعا قنبلتين تسلمتهما خلية الطلبة التى تضم سيد محمد باشا الطالب بالمعلمين العليا وأحمد عبد الحى كيرة طالب الطب ويوسف العبد الطالب بالجامعـة

الأهلية الذى دعا اخوانه الى قريتـــه (شبرا النملة) بمديرية الغربيـة لتجـربة القنبلتين في الحقول بعيدا عن أعين السلطة ، ثم عادوا الى القاهرة وأبلغوا قيادة الجهاز بنجاح القنابل فطلبوا من الحاج أحمد جاد الله تصنيع عشر قنابل أخرى فأتم صنعها على الفور بالاشتراك مع الخلية السريـة للعمـال ، وبدأ الفـدائيون فى تنفيذ مهامهم ، وأخذت القنابل تنهال على عبيد السلطان الخارجين على اجماع الأمة : يوسف وهبة باشا رئيس الوزراء ·· واسماعيل سرى باشا وزير الأشغال ·· ومحمد شفيق باشا وزير الزراعة وحسين درويش باشا وزير الأوقاف ·· ولما وجد الحاج أحمـد جاد الله أن القنابل التى صنعها قد أتت ثمارها ونجحت في بث الذعر فى نفوس الحكام ، استصغر ان يكون دوره مقصـــورا على صنع القنابل ، ورأى أن يشارك بالفعل فى العمليات التى يقوم بها نسور الجامعات ، فذهب اليهم قائلا : « لماذا لاتشركون العمال فى العملية ؟ لا يكفينا أن نصنع القنابل ·· نريد أن نضرب أيضا ·· نحن العمال نتولى القضـاء على الكـفار (أى الانجليز) وأنتم تأخذون الخونة من المصريين ·· » ·

واتفق الطلاب والعمال على هذه القسمة ، وتســلم الحاج أحمد مسدسين ـ وكان لايمر أســبوع الا ويجهز على ثلاثة من الجنود الانجليز ، وكانت منطقة نشاطه فى الدراسة والحوض المرصود ، ولم تفلح عيون الانجليز فى التوصل اليه برغم المكافآت التى كان يعلن عنها عقب كل حادث ·· فقد كانت نفوس الناس كبيرة ، ومعنوياتهم مرتفعة ولا يقيمون اعتبارا للمال الذى يأتى عن طريق خسيس ·

وبقى سر الحاج أحمد جاد الله وزملائه العمال مغلقا حتى وقع حادث السردار الذى اشترك فيه زميله ابراهيم موسى فحكم

عليه بالاعدام ، ثم كتب شفيق منصور اعترافاته المشئومة وكشف فيها الستار عن دور أحمد جاد الله في اغتيال الجنود الانجليز ، فألقت السلطات البريطانية القبض عليه ، وفتشوا بيته فأخرجوا من حفرة فيه صندوقا خشبيا يحتوى على مسدس وذخيرة تولى الطبيب الشرعي د. سدني سميث فحصها فتبين انها تماثل الأعيرة التى كانت تستخرج من جثث الانجليز القتلى قبل ثلاث سنوات ، ولم يعد لديه شك في أن أربعة من القتلى لقوا مصرعهم بهذا المسدس الذى وجد ملفوفا في كيس من الفانلة الرمادية ومخيطا بطريقة بدائية ، وباعادة تفتيش بيت الحاج أحمد عثروا على الثوب الذى انتزع منه كيس المسدس .

وقدم الحاج أحمد الى محكمة الجنايات مع ماهر والنقراشي في مارس ١٩٢٦ وكان الهدف قطع رؤوس زعماء جهاز الاغتيالات . وتبارى كبار المحامين في الدفاع عن المتهمين . فتولى الزعيم مصطفى النحاس الدفاع عن أحمد ماهر ، وكان الزعيم سعد زغلول يعكف على دراسة ملفات القضية وتنبيه المحامين الى الجوانب التى تفيد المتهمين ، وأثناء اطلاعه على محضر تفتيش بيت الحاج أحمد جاد الله ، وجد أن ضابط البوليس قال انه عثر على الصندوق بجوار « تقفيصة فراخ » أحمد جاد الله ، بينما كانت زوجته تطل من نافذة بالدور الأول تشرف على تقفيصة الفراخ وهى تولول قائلة : « أخيه .. أخيه .. لقوه يا أختى .. !! » فاستدعى سعد زغلول الأستاذ رياض ابراهيم محامى الحاج أحمد وطلب منه الذهاب الى بيت جاد الله ومعاينة المكان الذى ضبط فيه الصندوق بجوار تقفيصة الفراخ ، فاكتشف المحامى ان الصندوق لم يستخرج من البيت كما ذكر تقرير البوليس ، وانما وجد في الحارة التى يقع فيها المنزل ، أى في مكان يمكن لأى انسان أن يصل اليه .

وكانت هذه المفاجأة كافية لانقاذ رقبة الحاج أحمد جاد الله من حبل المشنقة .

وبعد الحكم على زعيم العمال بالبراءة كان أول شيء فعله هو الذهاب الى بيت الأمة لتحية زعيم الأمة ، وكانت مفاجأة جرت معها سلسلة من المفاجآت المدهشة ، فقد تبين أن الزعيم « سعد » لم يكن يعرف شكل أحمد جاد الله ، فلما وجده أمامه بعد البراءة اكتشف انه نفس الرجل الذى كلفه الجهاز السرى بالذهاب الى بيت الأمة قبل يوم من اعتقال سعد فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ، وتسلم مذكراته الخاصة لتكون بمنأى عن أيدى السلطات بعد اعتقال سعد . وقد شهد مصطفى أمين هذه الواقعة وهو صبى مقيم فى بيت الأمة ، فلما ذهب جاد الله لتسلم المذكرات قدم نفسه الى سعد باسم (الشيخ ١٣ يوليو) وهو اسم كودى بصفته عضوا فى المنظمات السرية ، وأخيرا اكتشف سعد أن الشيخ ١٣ يولية لم يكن سوى الحاج أحمد جاد الله الرجل الوقور الذى كان يقضى ليله فى العبادة والتهجد .. ويقضى نهاره فى صنع أجهزة الموت لاعداء الله والوطن .. ويفلت الرجل من حبل المشنقة ، ويستأنف حياته العادية دون انتظار لمنصب أو جاه أو نفوذ .. وتنتهى حياته كما تنتهى حياة الملايين من الفقراء البسطاء الذين لا يتطلعون الى الشهرة والمجد ..

يكفيهم انهم أرضوا ضمائرهم .. وفى ذلك عزاء عن الجحود .

« يهوذا » المصرى

فور نشوب الحرب العالمية الأولى ، بسطت بريطانيا العظمى حمايتها على مصر ففقدت شخصيتها المعنوية ، وباتت تحكم عن طريق نائب « جلالته » المقيم فى قصر الدوبارة ، وألغيت وزارة الخارجية فلم يعد لمصر وجود دولى ، وبذلك حققت بريطانيا هدفها النهائى من احتلال مصر منذ ١٨٨٢ وهو تبعية مصر للاحتلال تبعية صريحة ، بعد ان كانت من وراء حجاب ، وكانت أول خطوة اتخذتها بريطانيا لتنفيذ خطتها ، خلع الخديو عباس حلمى الثانى ووضع عمه حسين كامل على الأريكة السلطانية لينفذ ما يؤمر به ، ويفتح البلاد على مصراعيها لتكون فى خدمة الجيوش المحاربة .

وكان هذا الحدث الجسيم بمثابة طعنة فى صدر الحركة الوطنية التى اشتد ساعدها ، بعد ظهور مصطفى كامل ومدرسته ، وشعر المصريون بالمهانة والعار وخيم اليأس على النفوس ، وبدا هدف الاستقلال وكأنه سراب ، وتبددت الآمال فى الحرية ، وشدد الاحتلال قبضته الحديدية على البلاد ، فأعلنت الأحكام العرفية لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ، وفرضت الرقابة على الصحف وطورد الأحرار والوطنيون فهم بين معتقل أو سجين

أو شريد في الآفاق ، وانحطت الأخلاق ، وشاع النفاق ، وهرول الكبراء الى قصر الدوبارة يتغزلون فى مناقب نائب جلالته وتنافس كبار شعراء مصر فى تدبيج القصائد التى تشيد بعظمة الأمة الانجليزية وكرمها وعطفها الزائد على أرض الكنانة .

فى هذا الجو المفعم باليأس والانحطاط ، لم يعد هناك من بصيص أمل سوى شباب مصر الجسور الذى لم يتلوث ولم يتدنس ولم تجرفه موجة الفساد ، لم تكن هناك أحزاب تستطيع أن تقود حركة النضال وتنظم الصفوف ، ولم يعد أمام الشباب الا أن يتصرفوا بوحى من ضمائرهم اليقظة وارادتهم الحرة ، وانصب سخطهم على رأس السلطان الذليل ، وعبثا حاول السلطان حسين أن يتودد الى قلوب المصريين ويدخل فى روعهم أنه ما قبل العرش فى ظل الحماية الا لينقذ مصر من خطر أكبر كانت تدبره انجلترا ، وهو ضم مصر الى التاج البريطانى ، وهى مقولة روجت لها أبواق السلطان لتبرير فعلته ، ولم يقتنع الشباب بهذه الاسطوانة المشروخة ، كما لم ينخدعوا بالقصص الملفقة التى نسجها المنافقون لتحسين صورة السلطان فى عيون الشعب ، فهو تارة أبو الفلاح ، وتارة أبو التعليم ، وحينا راعى الشباب .. الخ .

وفى يوم الخميس ٨ ابريل ١٩١٥ كان موكب السلطان يعبر شارع حسن الأكبر فى طريقه الى قصر عابدين ، فاقترب منه شاب يلوح بباقة ورد تنطوى على مسدس ، وأطلق الشاب رصاصة على السلطان ولكنها أخطأته وقبضوا على الشاب وتبين انه تاجر خردوات من المنصورة اسمه محمد خليل ، وتبين أنه كان يخفى فى جيوبه حبوبا سامة ليبتلعها بعد قتل السلطان ، ولكنه امتنع عن تناولها لأنه رأى فى الانتحار عارا لا يليق بالابطال .

وقدموا الفدائى الجرىء الى محكمة عسكرية بريطانية فحكمت عليه بالاعدام شنقا ، ونفذوا فيه الحكم دون ان نعرف .. هل كان محمد خليل عضوا فى منظمة فدائية ؟ ان أحدا من الذين أرخوا للحركة الفدائية فى مصر لم يقدم دليلا يؤكد صحة هذا الافتراض ويبقي القول بأن الأعمال الفدائية التي سبقت ثورة ١٩١٩ كانت تلقائية عفوية نابعة من ارادة أفرادها فحسب .

لقد أفلت السلطان من الموت ولكن جذوة الانتقام لم تخمد فبعد شهرين فقط كان السلطان بالاسكندرية فى طريقه لأداء صلاة الجمعة فألقيت عليه قنبلة من نافذة أحد البيوت ، ولكن القنبلة لم تنفجر ، وهرول رجال البوليس نحو البيت ، فاكتشفوا ان الشاب الذى ألقى القنبلة استطاع ان يقفز الى سطوح بعض البيوت المجاورة ثم هبط من السلم فوجد بعض النسوة يثرثرن على باب البيت ، فألقى عليهن السلام ثم مضى فى طريقه فى ثقة وهدوء .

وبعد عدة شهور من البحث والتقصى قبضت السلطات على تسعة شبان من الذين سوف تتألق أسماؤهم فى حوادث اغتيال الانجليز أثناء ثورة ١٩١٩ ولكن النيابة لم تقدم للمحاكمة سوى اثنين هما : محمد نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين ، فحكمت عليهما المحكمة العسكرية البريطانية بالاعدام ، ولكن السلطان التمس من الانجليز تخفيف الحكم فاستبدلت به الأشغال الشاقة المؤبدة .

● ● ●

من يصدق أن أحد هذين الشابين الجسورين سوف ينتقل من معسكر الوطنية والفداء الى معسكر الخيانة والغدر ، فيعمل

مرشدا وعميلا لسلطات الاحتــلال ثم يبيع زملاء الجهاد بأبخس الأثمان حتى يسلمهم الى حبــال المشانق ٠٠ فيكون مثله مثل « يهوذا » التلميذ الخائن الذى باع المسيح لاعدائه !!

ثمن الخيانة

كان أول عمل قامت به وزارة الشعب الأولى برئاسة سعد زغلول هو الافراج عن الفدائيين المحكوم عليهم في قضايا الاغتيالات السياسية ، ومن بينهم محمد نجيب الهلباوى الذى ألقى القنبلة على السلطان حسين بالاسكندرية في يوليو ١٩١٥ وفى اليوم التالى لاطلاق سراحه ذهب محمد نجيب الهلباوى طائعا مختارا الى مبنى المخابرات البريطانية ليضع نفسه فى خدمة الاحتلال ، ويسخر خبرته السابقة ومعلوماته الغزيرة عن الأعمال الفدائية لتكون تحت أمر سلطات الاحتلال ، وكان الانجليز فى شوق شديد لواحد من هذا الطراز يكشف خبايا العمليات الجريئة التى قام بها الجهاز السرى التابع لقيادة ثورة ١٩١٩ وذهب ضحيتها العديد من الانجليز وأعوانهم من الوزراء المصريين الذين قبلوا العمل مع الاحتلال فى ظل الحماية البريطانية ·

وكان الانجليز فى أعقاب كل حادث يرصدون مكافآت مالية سخية لأى شخص يدلى بمعلومات تؤدى الى كشف الستار عن هذا الجهاز الغامض ، ولكن مصريا واحدا لم يتقدم · كان هناك ملايين من المصريين الفقراء فى حاجة الى ثمن رغيف خبز ··

ولكن لم يكن هناك مصرى واحد طاوعته نفسه لخيانة بلده ، رغم ان حوادث الاغتيال كانت تجرى فى الشوارع والميادين فى وضح النهار ، ويراها العشرات والمئات من أبنـاء البلد ٠٠ الى أن ظهر هذا الشيطان المدعو محمد نجيب الهلبـاوى ليصـبح عميلا فى جهاز المخابرات البريطانية تحت اسم « مستر » ٠ ويتحول من بطل يحمل روحه على كفه ، الى خائن مهمته ملاحقـة اخوانه الفدائيين والاختلاط بهم ومعرفة أسرارهم ونقلها الى العدو !

لقد رحب الانجليز بالهلباوى ، واعتبروه مكسـبا كبيرا وتركوه يملى عليهم شروطه للتعاون معهم ، وهى شروط رخيصـة الثمن ، لا تزيد على راتب شـهرى قدرة أربعون جنيهـا بخـلاف المسكن والمأكل والمشرب ، فما هى الدوافع القوية التى يمكن ان تجعل من البطل عميلا ؟ ومن الفدائى خائنا ، وما الذى قلب كيان هذا الشاب الذى وصفه سـعد زغلول عندما رآه بعد حادث القنبلة بأنه يشبه فى هيئته وحركاته مصطفى كامل ٠

ان محمد نجيب الهلباوى يعترف فى مذكراته المخطوطة التى أودعها عند الأستاذ مصطفى أمين بأنه خرج من السـجن فوجد بعض زملائه تقدموا عليه في الوظيفة ، وانه كان يطمع فى وظيفة محترمة ولكن سعد زغلول عرض عليه وظيفة مرتبهـا ١٥ جنيها بينما عين أحد الصحفيين فى وظيفة بمرتب ٣٥ جنيها ٠٠ فهل يمكن ان تكون عشرون جنيها ـ فرق مرتب ـ مبررا للخيانة ؟ وهل نقبل من الفدائى الذى كان قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة ، أن يبيع روحه للعدو بسبب عشرين جنيها ؟ اننا لو قبلنا هذا المنطق العليل لكان حتما أن نقبل أعذار الجواسيس والخونة ٠ وكلهم يعلق دوافع خيانته على شماعة الجحود والظلم الذى يعانيه

من أبناء وطنه ، وهو منطق الخونة الذين لا يخلو منهم مجتمع فى كل زمان ومكان ٠

ان واحدا من ضحايا الهلباوى يضع أيدينا على تاريخ المرحلة الانقلابية فى حياة الشاب ، ويقول البطل الجسور عبد الفتاح عنايت سليل البيت الفدائى العريق وأحد الثمانية الذين ساقهم الهلباوى الى حبل المشنقة فى قضية السردار ، والوحيد الذى افلت من الاعدام لصغر سنه ، يقول عبد الفتاح عنايت « ان الهلباوى انقلب من وطنى فدائى الى عميل بريطانى لأنه عندما سجن سنة ١٩١٥ لم يسأل عنه أحد ولو كان فى ذلك الوقت يوجد جهاز يهتم بالمسجونين لما انقلب هذا الرجل ! لقد خرج من السجن مصرا على الاشتغال مع المخابرات البريطانية حاقدا على ثورة ١٩ وحاقدا على زعيمها وعلى جهازها السرى وحاقدا على المصريين جميعا » ٠

وكلام عبد الفتاح عنايت يدل على أن الهلباوى كان عاقدا النية على الخيانة قبل ان يخرج الى عالم الحرية ، فالقضية لم تكن اذن قضية وظيفة ذات مرتب ضئيل ـ كما يزعم ـ ولكنها الرغبة المتأصلة فى التدمير وهدم المعبد على رؤوس أبناء وطنه جميعا ، والعذر الذى يسوقه عنايت عن اهمال شئون المسجونين السياسيين هو كلام ناس شرفاء طيبين يتمنون الكمال فى مسيرة الثورات ، ولكنه لايمكن بحال ان يكون مبررا للخيانة والغدر ، فعبد الفتاح عنايت نفسه فقد أخاه الأكبر « محمود » حين مات فى السجن سنة ١٩١٧ ومع ذلك لم يتحول أولاد عنايت الى خونة حاقدين ، بل واصلوا مسيرة أخيهم فى مقاومة الاحتلال بالحديد والنار ، أما الهلباوى فقد سار فى طريق الغواية حتى وقع حادث السردار ، فتكشفت مواهبه الشريرة عن شيطان رجيم ٠

زملاء الكفاح القديم

في الساعة الثانية من بعد ظهر الأربعاء ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ غادر السير (لى ستاك) سردار الجيش المصرى وحاكم السودان مقر وزارة الحربية بلاظوغلى عائدا الى بيتــه بالزمالك (نادى الضباط حاليا) وما ان اقتربت سيارته من شــارع قصر العينى حتى انهال عليه وابل من الرصــاص من سيارة تاكسى كانت تلاحقه .. فخر صريعا .

وفى الساعة الخامسة من مساء نفس اليــوم كان العميل محمد نجيب الهلباوى ، على موعد مسبق مع ضابط الشرطة المصرى اليوزباشى ســليم زكى الذى كان من أكبر أعوان السلطــات البريطانية ، وبرغم حالة الهلع التى أصابت الانجليز ومعهم جهاز الأمن المصرى من جراء الحادث ، فقد كانت تعليمات اللواء توماس راسل باشا حكمدار بوليس القاهرة الى اليوزباشى سليم زكى بأن يذهب للقاء الهلباوى فى المكان المحدد بضاحيــة مصر الجديدة ليعرف منه أسباب فشله فى التنبؤ بالحادث قبل وقوعه . وعسى أن يحصل منه على معلومات تفيد فى كشف القتلة ولكن سليم زكى فوجىء بأن عميله أخيب مما يظن ، فلم يكن يعلم بعد بخبر مصرع

السردار ٠٠ مما وضع العميل فى موقف حرج ، وعرضه لحملة من التقريع والطعن فى كفاءته ٠

وبالرغم من سقوط الهلباوى فى أول امتحان يتعرض له منذ انضمامه الى المخابرات البريطانية قبل تسعة شهور ـ فان الانجليز لم يفقدوا الأمل فى قدرته على القيام بعمل ما يثبت من خلاله اخلاصه فى خدمتهم وليزيل الشكوك التى تعمد سليم زكى ان يبثها فى نفسه ليدفعه الى مزيد من الولاء والتفانى فى خدمة سادته الانجليز ٠

وبدأ الهلباوى الخطوة الأولى فى الطريق الصعب ٠٠ طريق الخيانة والغدر ٠٠ وانطلق لتوه الى مكتب شفيق منصور المحامى ، فقد كان واثقا بأن تدبير حادث مصرع السردار لايمكن ان يتم خارج دائرة شفيق منصور ومجموعته الفدائية التى كانت تضم أعتى العناصر جرأة وجسارة من أمثال محمود اسماعيل ضابط خفر السواحل السابق والشقيقين عبد الفتاح عنايت الطالب بالحقوق ، وعبد الحميد الطالب بالمعلمين العليا ، ومحمود راشد مساعد المهندس بمصلحة التنظيم ، وابراهيم موسى زعيم عمال العنابر ، ومحمد فهمى على زعيم عمال الترسانة وهى المجموعة التى قامت باغتيال الانجليز وأعوانهم فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ، كان نجيب الهلباوى يعرف كل هؤلاء الرجال من خلال تردده الدائم على مكتب شفيق منصور ، وكان هذا المكتب أشبه بخلية نحل يأوى اليها الشباب المتحمس ٠٠ يثرثرون فى السياسة ويخططون لقتل الانجليز ٠ وكان الهلباوى أعلى الجميع صوتا ٠٠ وأشدهم حماسة وتطرفا ، كان لا يكف عن ابداء سخطه على الانجليز وضرورة استئناف عمليات اغتيالهم ٠٠ وكان شفيق منصور يعمل على تهدئة هذا الثائر الغيور (!!) وأفهمه ان كل شىء بأوانه ،

فيزداد ثورة وهياجا ٠٠ وكثيرا ما كان شفيق يصـــحبه الى بيته ليشاركه الطعام فقد كان دائم التبرم والتظـاهر بالفقر حتى ان محمود اسماعيل صحبه الى ترزيه الخاص وضمنه في صــنع بدلة له بالتقسيط ودفع له القسط الأول من ثمنها وقدره خمســـون قرشا ٠٠ وكان هذا مسلك بقية الشباب الأبرار الذين تقبلوا وجود الهلباوى بينهم لسابقته في الجهاد ٠٠ دون أن يتصوروا انهم بازاء عميل انجليزى مهمته كشف أسرارهم وسوقهم كالذبائح الى ساحات الاعدام ٠

فلما وقع حادث السردار ـ من وراء ظهر الهلباوى أو (المستر H) أدرك أن كل التمثيليات التى أداها وكل الحماسة الجوفاء التى تظاهر بها لم تفلح فى كسب ثقة هؤلاء الأبطال الذين كانوا يقدسون سرية العمل الفدائى ، ولم يكونوا من السذاجة ليكشفوا سرهم لأحد ، حتى لو كان مناضلا سابقا ، وكان الهلباوى يعرف الظروف النفسية لهؤلاء الصناديد ، وانهـــم من الصلابة بحيث يصعب اختراق حاجز الصمت الذى فرضـــوه على عمليتهم ، فكان عليه ان يبحث عن وسيلة للايقـــاع بهم تختلف عن الوســائل التقليدية التى كان يلجأ اليها البوليس السياسى وتنتهى الى اخلاء سبيلهم لعدم كفاية الأدلة ، وكانت القاعدة التى بنى عليها خطته هى « عندما تلقى القبض على أشـــخاص فيجب أن يـكون هؤلاء الأشخـــاص المذنبون الحقيقيـــون ، أمـا اذا ألقيت القبض عـلى أشخاص (مشكوك فيهم) فان المذنبين الحقيقيين سيعرفون انك غير واثق بالأمر » ٠

وبناء على هذه القاعدة عكف الهلباوى على رسم خطة جهنمية متقنة الصنع دقيقة التفاصيل تشبه ســيناريو لفيلم أمريكى من أفلام الاثارة ، وهى مسجلة بالتفصيل ضمن الوثائق البريطانية ،

وقد ترجمها الأستاذ محسن محمد ونشرها الدكتور حسين مؤنس في كتابه (دراسات في ثورة ١٩١٩) كما عرض الأستاذ مصطفى أمين بعض محتوياتها في (الكتاب الممنوع ـ الجزء الثاني) ضمن اعترافات محمد نجيب الهلباوي التي أسماها (اماطة اللثام عن أخطر الأسرار) .

ولما فرغ الهلباوي من وضع خطته دعا الى اجتماع مغلق في بيت انجرام بك مساعد الحكمدار بالجزيرة حضره اسماعيل صدقي باشا وزير الداخلية ، والنائب العام وراسل باشا حكمدار القاهرة ، ومساعده انجرام ، واليوزباشي سليم زكي . يقول الهلباوي ، انعقدت الجلسة ، وبعد مناقشة طويلة سلمتهم خطة القبض على الجناة مكتوبة بيدي وطلبت منهم تنفيذها بدقة سير عقرب الساعة . وحذرتهم مغبة التأخير أو التقديم ، فقد تؤدي غلطة بسيطة الى الفشل الذي سوف يعقبه المذلة لجميع سكان وادي النيل . قال راسل باشا : وان لم تنجح الخطة فما مصيرك يا مستر H قلت سوف أقتل نفسي على الطريقة اليابانية ، لأني لا أطيق صبرا على ذل بلادي ومليكي .

وتم تنفيذ خطة مستر H بالدقة التي طلبها وانتهى بالقبض على الرجال الثمانية الذين خططوا ونفذوا الحادث ونفذ حكم الاعدام في سبعة منهم وخفف عن الثامن ، وقبض الهلباوي المكافأة التي رصدتها الحكومة له وقدرها عشرة آلاف جنيه ، ولينعم بالحياة التعيسة على رقاب زملاء الكفاح القديم .

عندما ينقلب السحر على الساحر

كان لغز مصرع السردار – ولا يزال – محصورا فى معرفة الجهة التى حرضت عليه . وفى أعقاب الحادث كانت أصابع الاتهام وهى اصابع بريطانية تسعى الى تعليق التهمة فى عنق الوفد ، ووضع رقبة سعد زغلول فى حبل المشنقة ، باعتباره الأب الروحى للشباب الثورى الذى ارتكب الحادث ، وارتكب من قبله عشرات الحوادث المماثلة .

وفى مقابل فكرة اتهام الوفد بالتحريض على قتل السردار ظهرت فكرة أخرى تحاول أن تتهم الانجليز أنفسهم بتدبير الحادث كذريعة للتخلص من وزارة سعد زغلول ، التى كانت تمثل التشدد الوطنى ازاء الأطماع البريطانية . وصاحب فكرة اتهام الانجليز هو الأستاذ مصطفى أمين ، الذى جمع عددا من الأسانيد استخلصها من بعض الوقائع التى تصادف وقوعها قبيل الحادث . غير أن مصطفى أمين لم يقف بفكرته عند حد اتهام الانجليز ، بل انتقل منها الى اتهام الملك فؤاد بتدبير الحادث عن طريق رجل القصر القوى حسن نشأت ، الذى حرض صديقه محمود اسماعيل على قتل السردار .

ولكن المناقشة المنطقية للأسانيد التى قدمها مصطفى أمين

لا تلبث أن تكشف عن صعوبة قبولها ، فهو قد بنى فكرته على أساس نظرية « ابحث عن المستفيد من الجريمة تصل الى الفاعل » .
ولكن .. اذا كان من الصحيح ان الانجليز والقصر استغلوا حادث السردار الى أقصى مدى لتنفيذ مآربهم ، الا أن الاستثمار في حد ذاته لا يقف دليلا ماديا على ان المستفيد هو المحرض ، ومن ثم يسقط اتهام الانجليز والقصر بتدبير الحادث ولا يبقى مطروحا للمناقشة سوى اتهام الوفد .

وأصحاب هذا الاتهام يستندون الى الاعترافات المذهلة التي كتبها شفيق منصور قبل اعدامه ، وكشف فيها النقاب عن وجود مجلس أعلى للاغتيالات كان تابعا لقيادة ثورة ١٩١٩ ويتكون من زعماء شباب الوفد المقربين من سعد ، مثل الدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي وحسن كامل الشيشيني وشفيق منصور وغيرهم . أما عمليات الاغتيال فكان يقوم بها جهاز تنفيذى يتلقى أوامره من المجلس الأعلى عن طريق ضابط اتصال هو محمود اسماعيل ، وكان بعض أفراد جهاز التنفيذ أولاد عنايت ومحمود راشد ومحمد فهمي على هم الذين قاموا باغتيال السردار .

ومن الثابت تاريخيا أن هذا الجيش السرى من الشباب الثورى هو الذى تكفل بكل عمليات الاغتيال للعناصر البريطانية والموالية للاحتلال أثناء الثورة ومن الثابت أيضا أن عمليات الاغتيال توقفت بعد انتقال الحركة الوطنية في مرحلة الصدام المسلح الى مرحلة الكفاح الدستورى ، وهى المرحلة التى بدأت بصدور تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢ واعلان دستور ١٩٢٣ واجراء أول انتخابات نيابية وتشكيل وزارة سعد زغلول فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ فاذا كانت قيادة الوفد قد شجعت أو باركت أعمال العنف فى مرحلة الصراع المسلح مع الاحتلال فهل كان من المنطقي ان يستمر أسلوب العنف والاغتيال الى ما لا نهاية ؟! ولكن اذا كانت قيادات الوفد قد رأت أن العنف قد

استنفد أغراضه ٠٠ فهل كان من الممكن اقناع الشباب الثورى بهذا المنطق والتخلى عن عمليات الاغتيال ؟! ٠٠

هنا ٠٠ تتكشف لنا أبعاد الفصام الذى وقع بين قيادة الوفد وجهازها السرى ، وهذا الفصام الذى وقع بين قيادة الوفد وجهازها السرى ، وهذا الفصام هـــو المسئول الحقيقى عن اغتيال السردار وتدبير الحادث من وراء ظهر الوفد وارغام قيادته على التخلى عن أسلوب التفاوض (خاصة بعد فشل محادثات سعد ـ ماكدونالد) والعودة الى أسلوب العنف ٠ ذلك أن المنظمـــات السرية عند بدء تكوينها تكون أداة طيعة فى يد قيادتها ولكنها سرعان ما تستمرىء العنف ولا ترى سبيلا غيره لتحقيق الهدف ٠ عندئذ ينقلب السحر على الساحر ، وتتحول التنظيمات السرية الى وحش كاسر يصعب ترويضه أو السيطرة عليه ٠ بل انها تتمرد على قيادتهـا وتتخذ قرارها بطريقة فردية دون احترام لرأى القيادة السياسية ٠

هذه حقيقة تؤكدها وقائع التاريخ السياسى للجماعـات التى لجأت الى تشكيل منظمات سرية كوسيلة ضرورية لتحقيق أهدافها فى مرحلة زمنية معينة ، ولكن سرعان ما يحدث انفصام بين الجماعة وتنظيمها السرى فى مرحلة لاحقة وتلك هى أخطر عواقب المنظمات السرية ٠ فهى سلاح ذو حدين : احدهما يقتل الخصم ٠٠ والثانى يقتل صاحبه ٠ وهذا ما حدث فى قضية السردار ٠ فقد تبين من وقائع التحقيق أن الفكرة نبتت فى ذهن بعض أعضاء الجهاز التنفيذى للاغتيالات ، الذين عز عليهم أن يتحول سعد زغلول من زعيم ثورة

الى رئيس وزراء فى ظل استقــلال منقوص يتمثل فى التحفظات الأربعة التى نص عليها تصريح ٢٨ فبراير ٠٠ وعجزوا عن ادراك الحقيقة التى تقول ان الكفاح السياسى كفيل باستكمال هذا النقص، لأنهم لم يتمرسوا على العمل السياسى ، ولم يعرفوا غير لغة الرصاص والديناميت ٠٠

ومن هنا ٠٠ انفردوا باتخاذ قرارهم ٠

سعد أو الثورة

كان حادث اغتيال السردار نكبة على مصر بالقياس الى النتائج الخطيرة التى نجمت عنه ، وهى نتائج لا تتناسب اطلاقا مع حجم الحادث أيا كانت شخصية القتيل • ومن المؤكد أن هذه النتائج لم تخطر على بال الذين خططوا له ونفـــذوه • فقد ظنوه واحدا فى سلسلة العمليات الفدائية التى كانت تشكل ضغطا على الانجليز وتدفعهم الى مزيد من التنازلات لمصلحة القضية الوطنية • ولكن هؤلاء المخططين نسوا الفارق الزمنى والتغيرات التى طرأت عـلى بنية العمل السياسى منذ صدور تصريح ٢٨ فبراير واعلان دستور ١٩٢٣ وما ترتب عليه من اجراء انتخابات عامة دفعت بالوفد من معسكر الثورة الى مقاعد الحـــكم • لقد كانت حـوادث الاغتيال السابقة تجرى والوفد فى معسكر الثورة • أما حادث السردار فقد تم والوفد فى سدة المسئولية • ومن ثم كان على الوفد أن يدفع ثمن مصرع السردار ، وثمن كل الحوادث التى سبقته ـ وهو خارج الحكم ـ والتى بلغت فى مجملها خمسين حادثا ذهب ضحيتها العديد من الموظفين الانجليز ، وبعض كبار الوزراء المصريين الذين قبلوا التعاون مع الاحتلال فى ظل الحماية •

وفى مثل هذه الأحداث الجسام ، فان نتائجها لا تتم وفقا لحسابات مرتكبيها ، ولكنها تجرى حسب قدرة الطرف الآخر على استغلالها للحصول على مغانم لا صلة لها بالحادث نفسه ٠ وهذا هو ما حدث بالضبط ٠ فقد وجدها الاستعمارى الشرس ـ لورد اللنبى ـ فرصة ذهبية ليشن هجمة انتقامية بربرية هدفها اهانة المصريين والحط من كرامتهم ، وجرح كبريائهم التى بلغت ذراها ابان ثورة ١٩١٩ والاطاحة بزعيمهم سعد زغلول الذى قال انه يحكم باسم أصحاب الجلاليب الزرقاء ٠ وارتكب اللنبى فى سبيل ذلك سلسلة من الأعمال الشرسـة دون استئذان رؤسائه فى وزارة الخارجية البريطانية مثل طرد الجيش المصرى من السودان وتوسيع رقعة المساحة المزروعة قطنا فى السودان على حساب الانتاج المصرى. واحتلال جمرك الاسكندرية ، وفرض غرامة قدرها نصف مليون جنيه بأسعار ذلك الزمان ٠٠٠ الخ ٠

وليس من شك فى أن الاطاحة بحكومة الشعب الأولى لقيت ترحيبا وقبولا من رأس الاتوقراطية الغشوم ـ الملك فؤاد ـ الذى سمع بأذنيه هدير الجماهير عبر نوافذ قصر عابدين وهى تهتف « سعد أو الثورة » قبل أسبوع واحد من مصرع السردار ، ووجدها الملك فرصة للتخلص من هذا الفلاح الثائر العنيد الذى يصعب ترويضه ، ولم تفلح مباهج السلطة فى التخفيف من نزعته المتشددة وتمسكه بحقوق الشعب التى كفلها الدستور بعد أن أصطبغت بلون الدم أثناء حوادث الثورة ٠

وترك سعد الوزارة بعد تسعة شهور فقط من التجربة الليبرالية التى تمخضت عن دستور ١٩٢٣ ٠ وكانت تلك أفدح الخسائر السياسية التى نجمت عن مصرع السردار ٠ لقد جاءت وزارة « انقاذ ما يمكن انقاذه » برياسة أحمد زيور لتلبى كل المطالب التى فرضها الانجليز ـ وزيادة ـ وأصبح اقصاء الوفد عن الحكم هدفا

ثابتا فى لائحة القصر الملكى ودار المندوب السامى . وفى الانتخابات العامة التى أجريت عام ١٩٢٦ وحصل فيها الوفد على أغلبية ساحقة تخوله الحكم ، ولاحت بوادر عودة سعد الى رياسة الوزارة ، فى هذه اللحظة تحركت البوارج الانجليزية نحو الاسكندرية لتجعل من عودة سعد أمرا مستحيلا .. ودخلت مصر فى دوامة الانقلابات الدستورية التى أسلمت زمام الأمور الى حكومات مستبدة لا تستند الى تأييد الشعب ، وانما تستمد وجودها من قصر عابدين أو قصر الدوبارة .

والثابت تاريخيا أن سعد زغلول كان يعتبر حادث مصرع السردار طعنة فى ظهر الوفد .. وأثبتت الأحداث التالية صدق هذا الرأى .. فمن اذن الذى أمر بقتل السردار .. ؟!

بنات الحور

لا تزال ظاهرة خسوف القمر دعوة اجبارية الى كل أطفال مصر لكى يخرجوا الى الخلاء وهم يحملون الطبول والصفائح الفارغة ، يدقون عليها فى ايقاع منتظم بينما صيحاتهم تتعالى الى عنان السماء تلتمس من بنات الحور أن يترفقن بالقمر ويتركنه حرا يدور فى فلكه كى تنساب أشعته الفضية على الكون ، فتطارد أشباح الظلام ، وتبعث الأنس والبهجة فى القلوب .

وليست ظاهرة الدعاء للقمر عند الخسوف مقصورة على أبناء الريف ، وانما هى ظاهرة مصرية عامة يشترك فيها أبناء مصر فى الريف والحضر ، فينطلق الجميع الى الفضاء أو يصعدون فوق أسطح البيوت ، ويتوجهون بأبصارهم الى القمر وقد بدا لهم شاحبا مخنوقا .. وكلما ازدادت رقعة الظلال على وجه القمر .. ازداد حماسهم ، وارتفع ضجيجهم وهم ينشدون :

يا بنات الحور سيبوا القمر يدور

يارب احنا عبيدك يارب

والأمر بيدك يارب

ويظل أطفال مصر على ايقاعهم وضجيجهم ، الى ان تستجيب بنات الحور الى توسلاتهم ، فتنحسر الظلال ·· ويزول الشحوب ·· ويتحرر القمر من خناقه ·· ويعود له بهاؤه وجماله ·· وعندئذ يعود الصبية الى بيوتهم وقد غمرت السعادة نفوسهم بعد أن نجحوا في تخليص القمر من (خنقة) بنات الحور ·· !!

وتذهب الدكتورة فاطمة حسين المصرى في دراستها العلمية عن (الشخصية المصرية) من خلال الفولكلور المصرى ، الى ان هذه العادة التى يتبعها المصريون الى الآن عند حدوث خسوف القمر ، ربما لا يوجد لها مثيل في أى بلد من بلاد العالم ، وانفردت بها مصر حتى أصبحت هذه العادة من الفولكلور المصرى الخالص ·

وفي محاولة لتأصيل هذه الظاهرة عن طريق تفسير ألفاظها ، تغوص بنا الباحثة في أعماق التاريخ الفرعونى العتيد ، وترى ان جذور هذه العادة ضاربة في القدم حتى انها تعود بها الى عصر ما قبل الأسرات وقبل توحيد الوجهين البحرى والقبلى على يد الملك مينا ، حين كان المصريون القدماء يعبدون الها من أشهر الهتهم المتعددة وهو الاله (حور) وكانوا يرمزون اليه برسم (الصقر) · وكانت ديانة هذا الاله منتشرة في غرب الدلتا ومقر عبادته مدينة دمنهور الحالية أو احدى ضواحيها ، ثم اتسع نفوذ هذه المدينة وبسطت سلطانها على المدن المجاورة الى ان فرضت نفوذها على الوجه البحرى كله ، وبذلك انتشرت عبادة الاله (حور) بانتشار نفوذ بلدته ، وأصبح لهذا الاله أسماء متعددة في البلدان المختلفة ، فهو الاله (حور خنتى خت) في منطقة بنها الحالية وهو الاله (آن حور) في منطقة سمنود ، وهو الاله (حور خنتى ارتى) في منطقة اوسيم ، وحدث ذلك كله قبل وحدة الوجهين ، فلما توحد الوجهان انتقلت عبادة حور الى الوجه القبلى أيضا ، وأصبح من أشهر آلهة مصر ، حتى ان الاسطورة القديمة جعلت من (حور) أحد أفراد الثالوث المقدس :

ايزيس وزوجها اوزوريس وابنها حوريس • وهو الذى ساعد أمه ايزيس على الانتقام من عمه (ست) الذى قتل أخاه وقطع جسده اربا أخفاها فى الأقاليم المصرية ، فكانت مصدر النماء والخضرة •• مثلما كانت دموع ايزيس على زوجها مصدر فيضان النيل ، ولكن (حور) الذى جعلت منه الأساطير الها عيناه الشمس والقمر ، استطاع ان يقضى على روح الشر وينتقم لأبيه ويتربع على عرشه بفضل أمه التى اعتبرها المصريون مثلا للأم الرؤوم •

● ● ●

وتروى الاسطورة ملاحم الصراع بين (حور) وعمه (ست) وقد قامت بينهما حروب طويلة ، فكان حور كلما أراد ان يهوى بخصمه قذف به الى الأرض وقد أمسك به من مقتله •• فيكفهر وجهه •• ويتغير لونه •• ويحاول ان يتخلص من خصمه ، وعندما يرى المصريون تغير لون القمر يدركون ان الاله حور يحاول ان يقتل غريمه •• فيفزعون اليه بالصلوات والترتيلات والأناشيد حتى يترك (حور) خصمه (ست) استجابة لرغبة الشعب •

هذا هو تفسير مصر القديمة الفرعونية لظاهرة خسوف القمر، وأصبح من عادات المصريين منذ العهد الفرعونى ان يهرعوا الى حور ليترك القمر ، ولم يقلع الشعب المصرى فى كل عصوره التاريخية عن التضرع للاله حور ليترك القمر بالرغم من وجود الديانتين السماويتين : المسيحية والاسلام فى مصر •

وتذكرنا الدكتورة فاطمة حسين المصرى بأن ظاهرة الدعاء للقمر لا تزال قائمة فى عصرنا الحالى حيث تغلب الديانة الاسلامية ، كل ما هنالك ان المصريين يصبغون هذه العادة الفرعونية القديمة بصبغة اسلامية فينشدون :

يا بنـــات يا حور الجنة
ما تسيبوا القمر يتهنى

وجاءت الصياغة الجديدة تمشيا مع ما ورد فى القرآن الكريم عن ذكر حور الجنة ، فقال العامة والدهماء فى مصر ان بنات الحور هن حور الجنة .. أما الباحثة فتفسر قولهم هذا بأن الحور هم جنود وأتباع الاله (حور) عند قدماء المصريين .

● ● ●

وليس المهم اذا كان المصريون يقصدون حور الجنة أم جنود حور .. ولكن المهم هو بقاء هذه الظاهرة الى الآن لتكشف عن قوة العادات والتقاليد القديمة وأثرها فى تكوين الشخصية المصرية ، وبقاء الخرافات والأساطير مصدرا للسلوك ومنبعا لكثير من التصرفات التى نمارسها ولا ندرك أصلها ، خصوصا فى مواسم الموت والدفن وما يصاحبها من نواح وعويل واحتفالات ذكرى الأربعين .

مذبح الانجليز

لو كان سلطان مصر العظيم الظاهر ركن الدين بيبرس يعلم أن مسجده الكبير الذى يحمل اسمه ، سوف يتحول ذات يوم الى مخبز ومصنع للصابون ثم مذبح للانجليز !! لفكر ألف مرة قبل أن يقدم على انشاء هذه التحفة المعمارية الجليلة التى تعتبر أحد معالم القاهرة المملوكية ، ولكنها سنة الحياة التى تحترم القوة وتحتقر الضعف •• وكأنما شاءت الأقدار لهذا المسجد الكبير أن يكون سجلا حيا لهذه الحقيقة التاريخية الهامة •• فيتلألأ بالأنوار فى عصور القوة والاقتدار •• ويتحول الى خرابة فى عصور الضعف والانحطاط ••

لقد شرع بيبرس فى بناء مسجده هذا عام ٦٦٥ هـ ـ بعد أن أرسى نفوذ مصر فى الشرق الاسلامى ، وجعل منها قوة عالمية مرهوبة الجانب فى وقت أوشكت فيه جحافل الغزاة أن تطبق عليها من الغرب والشرق ، ولكن هذا الفارس الذى أوتى جرأة منقطعة النظير استطاع أن يحارب فى الجبهتين ، فشتت قوات الفرنسيين فى المنصورة وأسر ملكهم لويس التاسع ، ثم استدار ليواجه التتار فى عين جالوت على أرض فلسطين قبل أن تطأ أقدامهم حدود مصر ،

فأذاقهم كأس الهزيمـة النكراء التى لم يبتلوا بهـا منذ خروجهم كالطاعون من بطن آسيا المجدبة ، وأطاح برأس قائدهم المتوحش كتبوقا فبدد نشوة الزهو والغرور التى أسكرتهم ، وكانت بداية انحسار خطرهم الذى هدد الحضارة العالمية .. وما ان فرغ بيبرس من انتصاراته الباهرة حتى تفرغ للانشاء والتعمير .. وكان أول الحكام المماليك الذين فتنوا باقامة المنشآت العمرانية حتي قال عنه المؤرخ أبو المحاسن ابن تغرى بردى : بنى فى أيامه بالديار المصرية ما لم يبن فى أيام الخلفاء المصريين ـ يقصد الفاطميين ـ ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات ..

وتستطيع أن تتأكد من صدق مقولة ابن تغرى بردى اذا قمت بجولة تفقدية فى حنايا القاهرة المملوكية لترى بقايا هذه المنشآت لا تزال قائمة شاهدة على افتتان الرجل بالعمران وشغفه بالبناء ، وكأنما ورث هذه الحرفة عن أسلافه الفراعين الذين جلسوا على عرش مصر فجمعوا بين وظيفة الحكم وحرفة البناء . ففى قلعة الجبل عمر دار الذهب وبنى بها قبة عظيمة محمولة على اثنى عشر عمودا من الرخام الملون ، وكذلك عمر بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبـة الجامع ، وأنشأ بجوار باب القلعة العمومى (برج الزاوية) وهو البرج الذى لا يزال قائما حتى اليوم فى الزاوية الشمالية الغربية من السور القديم للقلعة ، ثم أنشأ بيبرس على هـذا البرج قبة وزخرف سقفها ثم أقام بجوارها طباقا (مسكنا) للمماليك ، وفى رحبة القلعة أنشأ دارا كبيرة لولده الملك السعيد ، وجدد بيبرس أيضا الجامع الأنور والجامع الأزهر ، وبنى جامع العافية بالحسينية وأنفق عليه فوق الألف درهم وأنشأ بالقرب منه زاوية الشيخ خضر ، كما أنشأ قبة جميلة عند مقياس الروضة ، وجدد قلعة جزيرة الروضة .. هذا فضلا عن الحمامات والطواحين والأفران والخانات

والأسواق العديدة ٠٠ ولم تحرم ضواحي القاهرة من عناية بيبرس فشملت عنايته العمائر من مسجد التبر الى أسوار القاهرة الى الخليج وأرض الطبالة ، واتصلت العمائر من باب المقس (ميدان رمسيس) الى باب اللوق وقلعة الكبش ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ٠

ولم تقتصر اهتمامات بيبرس العمرانية على الديار المصرية ، وانما امتدت الى الحجاز بصفته خادم الحرمين ، فأتم عمارة الحرم النبوى الشريف بالمدينة ، وعمل منبره ، وجعل بالضريح النبوى «درابزينا» ، وطلى سقوفه بالذهب وبيض حيطانه ، وجدد البيمارستان بالمدينة ونقل اليه سائر الأدوية والمعاجين والأكحال وبعث اليه طبيبا مصريا ، وكان بيبرس أول حاكم مصرى يبعث (المحمل) الى الحجاز حاملا الكسوة للكعبة الشريفة ، وكان يوم خروج المحمل عيدا شعبيا يخرج فيه أهل القاهرة لتوديع المحمل ومعه (الصرة) للانفاق على مجاورى الحرمين الشريفين ، وبقى هذا التقليد ساريا يحرص عليه حكام مصر حتى سنوات قريبة ٠

أما عن جامع الظاهر فتقول الدكتورة سعاد ماهر نقلا عن جامع السيرة الظاهرية : ان السلطان اهتم بعمارة جامع بالحسينية ، وسير الأتابك فارس الدين أقطاى المستعرب والصاحب فخر الدين وجماعة من المهندسين لكشف مكان يليق بأن يعمل جامعا ، فتوجهوا لذلك واتفقوا على مناخ الجمال السلطانية فقال السلطان : لا والله ٠٠ لا جعلت الجامع مكان الجمال ٠٠ وأولى أن أجعله ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى ٠٠ ثم ركب السلطان وصحبته وخواصه والوزير والقضاة ونزل الى ميدان قرقوش وتحدث فى أمره وقاسه ورتب أموره وأمور بنائه ورسم بأن يكون بقية الميدان وقفا (حكرا) على الجامع ، ورسم بين يديه هيئة الجامع ، وأشار بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية ، وأن يكون على محرابه قبة قدر قبة الامام الشافعى ٠

ويضيف المقريزى : وكتب السلطان فى وقته الكتب الى البلاد باحضار عمد الرخام من سائر البلاد ، وكتب باحضار الجمال والجواميس والأبقار والدواب من سائر الولايات ، وكتب باحضار الآلات من الحديد والأخشاب النقية برسم الأبواب والسقوف وغيرها. كما عين عدة ملاحظين على عمارة الجامع .

وبقى جامع الظاهر يؤدى وظيفته المقدسة طوال العصر المملوكى ، فلما دخل العثمانيون مصر ضنوا بالانفاق عليه بحجة اتساع رقعته وعجز الخزانة عن الصرف عليه . وكان من نتائج ذلك - كما تقول الدكتورة سعاد ماهر - أن ساءت حالة الجامع وأصابته يد الاهمال والتخريب ، فحوله العثمانيون الى مخزن للمهمات الحربية كالخيام والسروج وغيرها ، وفى عهد الحملة الفرنسية تحول الجامع الى قلعة وثكنات للجند وغرف الجامع فى ذلك الوقت باسم (قلعة سيكوفسكى) ويذكر الجبرتى أنهم حولوا مئذنته الى برج ووضعوا المدافع على أسواره وبنوا مساكن للجند بين جدرانه ..

وكأنما شاءت الأقدار أن ينتقم الفرنسيون - على يدى نابليون - من هزيمة لويس التاسع باتخاذهم مسجد الظاهر - حامل لواء النصر عليهم - موطئا لخيولهم وقلعة يصبون منها النار على أهل القاهرة !!

واستمر اهمال مسجد الظاهر طوال القرن التاسع عشر ، فتحول فى عصر محمد على الى معسكر لاحدى الفرق العسكرية الوافدة التى ساندت محمد على ، وفى بعض الأوقات تحول الى مخبز ، ثم استعمل بعد ذلك مصنعا للصابون . ولم يسلم الجامع من جريمة السطو على أعمدته عندما طلب الشيخ الشرقاوى نقل أعمدة الجامع الرخامية وكذلك بعض أحجاره لبناء رواق الشراقوة بالجامع الأزهر .. كما نقلت بعض أعمدته لاستخدامها فى بناء قصر النيل ، ولما دخلت

القوات البريطانية القاهرة بعد اخماد الثورة العرابية سنة ١٨٨٢
اتخذوا من المسجد مخبزا .. ثم سلخانة لذبح المواشى اللازمة لامداد
قوات الاحتلال .. ومنذ ذلك الحين أطلق العامة على مسجد الظاهر
اسم (مذبح الانجليز) ورغم أن عملية الذبح توقفت منذ عام
١٩١٥ .. الا أن هذا الاسم لا يزال ساريا على الألسنة .. وفى
سنة ١٩١٨ بدأت الدولة تهتم بالمسجد فتسلمته لجنة حفظ الآثار
العربية فأصلحت بعض أجزائه وقامت بترميمها وخاصة الجزء المحيط
بالمحراب وأعدته لاقامة الشعائر . وفى سنة ١٩٧٠ بدأت هيئة
الآثار تهتم باعادة بناء الجامع واعادته الى حالته الأولى .. ولا تزال
الجهود مستمرة لاعادة مسجد الظاهر الى مجده القديم ..

عاقر رغم أنفها

كانت باحثة البادية (ملك حفنى ناصف) أشهر فتاة مصرية فى العقد الأول من هذا القرن ، ودوى اسمها فى أنحاء الشرق من خلال المقالات التى كانت تكتبها على صفحات (الجريدة) تحت عنوان (نسائيات) وتعبر فيها عن تطلعات المرأة الشرقية الى حياة كريمة فى اطار التعاليم الدينية والمبادىء السامية التى تتمشى وحاجة المجتمع وتطوره ورقيه • فكانت تدعو الى مجاراة العصر بقدر ما تسمح به الحاجة ، والاقتباس من الحضارة الغربية بقدر ما يلائم ظروف البلاد وينفع الحياة العائلية والاجتماعية ولا ينافى الروح القومية وروح الاستقلال الوطنى •

ولم يكن جهاد باحثة البادية مقصورا على الكتابة فى الصحف ، وانما كانت تخطب فى المجتمعات والمنتديات ، فكانت أول فتاة مصرية ـ بل شرقية ـ انبرت تكتب وتخطب وتنظم الشعر دفاعا عن قضايا بنات جنسها ، ورغم أن ملك ظهرت فى وقت ذاعت فيه دعوة قاسم أمين التحررية ، الا أن أفكار (باحثة البادية) كانت أشد تأثيرا فى عواطف الناس من أفكار (محرر المرأة) الذى كان يحارب قضية غيره •• ويطرح آراء جريئة متطرفة تصدم مشاعر مجتمع

محافظ ، أما ملك فكانت تغمس قلمها فى قلب الأنثى وتعبر بصدق عن محنة بنات عصرها ، وهن يتعرضن للهوان بسبب التقاليد الظالمة ، والسلوكيات المجحفة ، وكانت صرخاتها الأدبية أشبه بزفرات حزينة توقظ الضمائر ·· وتحرك المشاعر الرقيقة ·· وتثير الدموع والعبرات · ولم يكن أحد من جماهير قرائها – باستثناء المقربين – يعرف أنها تعبر عن مأساتها الشخصية ، وتصور نكبتها الخاصة ، وترسم خفايا محنتها الفاجعة ·

كانت ملك كبرى سبعة أبناء أنجبهم الأديب الشاعر المرموق حفنى بك ناصف ، فنشأت فى بيت علم وأدب ، وحفظت من عيون الشعر وقطوف الأدب ما لم يتهيأ لأترابها من طالبات المدرسة السنية ، فلما تخرجت عينت معلمة فى نفس المدرسة ، وكان احترافها للتدريس – فى حد ذاته – خطوة تقدمية فى عصر كان العمل فيه مقصورا على ذوات الحاجة المعوزات ، وانطلقت تدعو بنات العلية للنزول الى ميدان العمل بدلا من حياة الثرثرة والخمول والاتكال على الآباء والأزواج ، واجتذبت شهرتها أحد سراة البدو فى اقليم الفيوم فخطبها وتزوجها وهى لم تزل فى ميعة الصبا وحملها الى مضارب القوم على حافة الصحراء ، وودعت الفتاة حياة القاهرة بأضوائها وشهرتها ·· وخلعت رداء المجتمع المصرى وتزيت بزى البدوى المتمثل فى العباءة والكوفية والعقال ، واستقبلت حياتها الجديدة بروح راضية ، ونفس قانعة ، وبدت لها البادية طريفة شائقة ، يزيدها الغموض والابهام سحرا على سحر ، فأسلمت « ملك » نفسها الى فتنة غامرة ، واستسلمت لقدرها يقودها خيالها الشعرى الى المجهول الساحر ، وتمثلت لها رؤى بعيدة رأت فيها نفسها تحمل قبس النور ومشعل الحياة الى مجاهل البادية وتنقل الى أهلها ما اختزنته روحها من علم ومعرفة وحب صادق ·

ومرت السنوات الأولى من الحياة الزوجية لا يعكرها غير نظرات

قلقة من جانب الزوج الذى كان ينتظر من زوجته الجديدة أن تلد له أولادا يرفعون من قدره فى مجال الزعامة القبلية ، ثم تحول القلق الى محنة عندما تأكد للزوجة الشابة أنها لن تحقق للزوج أمله فى الوريث ، أما هو فلم يثر حوله الشكوك فى قدرته على الانجاب ، فقد سبق له الزواج بابنة العم وأنجب منها فتاة ، وبذلك لصقت تهمة العقم بالزوجة الطارئة ، وحكم الناس عليها بأنها عاقر عقيم ٠٠ وتحولت نظراتهم اليها الى سهام مسمومة تنال من كرامتها وكبريائها فى مجتمع يزن المرأة بعدد ما تلد من أولاد ٠٠ وليس بمقدار ما تحمل من علم وثقافة وحب للانسانية ٠ وأدركت « ملك » أن عليها أن تخوض معركتين فى وقت واحد : معركة استرداد كرامتها الجريحة أولا ٠٠ ومعركة تحرير نساء القبيلة من هذا العرف الصارم الظالم الذى يهدر حق الأنثى فى الحياة اذا لم تلد ٠٠ وهو أمر لا ذنب لها فيه ٠٠ وحول هـــذه المرحلة الحرجة من محنة باحثة البادية تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ان ملــك حشدت للمعركة قوى شبابها وعلمها ، وظاهرتها قوى أخرى من كبريائها الجريحة ، وسعادتها الموعودة ، وأمومتها المحرومة ، وقلبها الممزق ، وخاضت المعركة بجسمها وروحها ، بقلمها ولسانهـــا ، ببشريتها وانسانيتها ، بدمها وأعصابها ، ولكنها وجدت نفسها فجأة تنساق بالرغم منها مع تيار العرف السائد فتشتهى الولد اشتهاء قاهرا قاسيا ، وتكابد من أهوال الحرمان ما لا طاقة لبشريتها باحتماله ، ثم بلغ بها الأمر مداه ، فاذا هى ــ هى المتعلمة المثقفة الممتازة ــ تنظر الى خادماتها الحوامل والأمهات ، نظرة من تود لو دفعت كل جاهها وثروتها وكل علمها وثقافتها ، ثمنا لوليد ــ أى وليد ــ تحمله مثلهن ٠ وتاقت نفسها الى عيشة خشنة متواضعة مع زوج لها وولد ، فى عش من قش ، و خيمة من صوف ، و كوخ من خشب ٠٠ !!

وقد روعها هذا الانهيار النفسى أكثر مما روعتها المحنة ذاتها ،

فانصرفت عن حرب القوم لتحارب نفسها ، ولاح لها وسط هذه الظلمات المتراكمة شعاع هزيل من نور ، لقد كتب عليها الشقاء فما تستطيع أن تمحو هذا المكتوب ، ولا أن تجعل من العاقر ولودا .. ولكنها تستطيع أن تفعل شيئا لسواها من التعيسات اللاتى يتجرعن الخسف والهوان ، وتستطيع أن تصور للناس تلك المحنة التى نغصت حياتها ، وتقص على الضمير الانسانى قصة تلك المخلوقة البائسة التى أهينت لأنها عاقر .. !!

تقول بنت الشاطىء فى تاريخها لحياة باحثة البادية : من ذلك الحين اتجهت ملك الى الحياة العامة تحارب فى الميدان الاجتماعى ، وتكافح من أجل جميع النساء ، وراحت تبعث من مأواها النائى صيحات تسجل قضية « الجنس » تسجيلا صريحا دقيقا ، وتعبر عن آلامه بصوت مؤثر ، وقد رددت « الجريدة » صدى هذه الصيحات التى ظلت تنطلق من البادية أعواما طوالا فما أضعفها طول العهد ، وأصغى الناس مبهورين الى « النسائيات » وتلقاها شيوخ الأدب مقدرين ، ورأى عميدهم — أحمد لطفى السيد باشا — ان هذه النسائيات قد اشترك فى تأليفها « ما ورثته ملك عن أبيها من ذوق فى الكتابة وملكة الانتقاد » أما بنت الشاطىء فترى أنها ثمرة حياة « ملك » فى البادية بعد زواجها : تلك الحياة التى أنضجتها التجربة ، وهذبها الألم ، وأرهفها الحرمان .. لقد ظلت المسكينة تتلوى فى باديتها من حرقة الظمأ ، وأمست حياتها قطعة من العذاب ولونا من الاستشهاد ..

أجل .. الاستشهاد فى سبيل قضية خاسرة .. فقد شاء القدر لهذه المخلوقة المعذبة أن تعرض نفسها على طبيب شهير فى الآستانة ليعالجها من العقم .. وفحصها الطبيب مرة .. ومرة .. ومرات .. ثم كانت المفاجأة المرعبة عندما اكتشف انها ليست

عاقرا ٠٠ وأن قدرتها على الانجاب لا تقل عن قدرة غيرها من بنات حواء ٠٠ !!

من أين اذن جاءت تهمة العقم ٠٠ ؟؟

لقد تبين ان الزوج ـ بعد انجابه من زوجته الأولى ـ أجريت له عملية جراحية عاد بعدها عقيما لا ينجب ٠٠ !! ولم تتحمل المسكينة هول الصدمة ٠٠ فذابت كما تذوب الشمعة المحترقة ٠٠ وذوى رحيقها فى احتضار بطىء حتى أسلمت الروح فى ١٨ أكتوبر ١٩١٨ وهي في ريعان العمر وعز الشباب ٠٠ ولم تتعد الثلاثة والثلاثين ربيعا ٠٠ ولم يصمد أبوها المسكين للفاجعة فأصيب بالشلل ولحق بابنته بعد شهور ٠

محامي العظماء

كانت أول مرة رأيت فيها الأستاذ عباس محمود العقاد في أواخر الخمسينات ، كنت وقتها طالبا بالجامعة وأخطو خطواتي الأولى في بلاط صاحبة الجلالة ‥ وسمعت عن الندوة التي يعقدها العقاد كل يوم جمعة في منزله في مصر الجديدة ٠ فسعيت اليها في نفر من زملائي القادمين من الريف ، وفي طليعة اهتمامنـا أن نرى الأدباء والمشاهير الذين قرأنا لهم ، ورأينا صورهم في الصحف والمجلات وسمعنا أصواتهم من الراديو ٠ ولم تكن رؤية العقاد مفاجـأة لي ٠ كانت حقيقته تقارب الصورة التي رسمتها له في خيالي ‥ عملاقا ‥ أشبه بفارس قائم على صهوة جواده شاهر سيفه وكأنه على استعداد دائم للنزال ٠ ولكن المفاجأة كانت في اعتداده بنفسه واحترامه لذاته الى حد الغرور !

أذكر في احدى الجلسات كان يتكلم عن جائزة نوبل والسبب في عدم اقترابها من منطقة الأدب العربي فتطاول أحد زملائنا وسأله : ومن ترشح من الأدباء العرب لنيل هذه الجائزة ؟ فأجابه العقاد على الفوز :

أنا يا أخي ‥ وهل يوجد من يستحقها عن جدارة غيري ؟ !!

ورغم أن الرد كان أشبه بمزحة أو نكتة ، ألا أن أحدا من الجالسين

لم يجترؤ حتى على الابتسام .. وواصل العقاد حديثه عن نفسه ، معددا جوانب العظمة فى قيمته الأدبية ، حتى لكأنه كان يتحدث عن شخص آخر .. !! ووجه المفاجأة لى وزملائى - ليس فى أن العقاد لا يستحق جائزة نوبل ، فهو بلا جدال أكبر منها ، ولكن فى أنه كان يتحدث عن نفسه بطريقة تصادم طبيعة التواضع التى نشأنا عليها فى الريف ، ولكن العقاد تجاوز هذه الحالة التى تتخفى فى رداء التواضع لتتجاهل جوانب العظمة التى يراها أجدر بالجلاء ، وأحق بالذيوع والتبيان .

لم أكن فى ذلك الوقت المبكر أعرف أن العقاد من المؤمنين بالعظمة ، والمبشرين بالعبقرية التى ترقى بأصحابها وترتفع بهم من صفوف العامة الى مراتب العلية النادرين ، ثم اقتربت من العقاد فى كتبه وعايشت أبطاله المرموقين فوجدته « محاميا » بليغا يصول فى محكمة التاريخ بصوته الجهورى وحججه القوية ، وعباراته اللاذعة ، مدافعا عن أبطال الانسانية وقادتها وعظمائها كاشفا عن جوانب العظمة والسمو فى شخصياتهم ، ماسحا ما علق بهم من افتراءات الجهلة وتجنيات الحاقدين ، رغم ثقته بأن أبطاله ليسوا فى حاجة الى دفاع ، فيكفيهم مجدا انهم أدوا رسالتهم وقالوا كلمتهم واحتلوا مكانا عليا فى مراتب الخلود . انما كان يهم العقاد أن تعرف الانسانية أن قيمتها لن تتحقق ما لم تعرف لعظمائها السالفين واللاحقين حقهم من الاحترام والتوقير .

كان أشد ما يؤلم العقاد أن تتفشى تلك الجراثيم الخلقية عند الناشئة ، فتجنح بهم الى الغض من قيمة البطولة والاستخفاف بالعبقرية الفردية التى هى قيمة مغروسة فى النفس قبل أن تبرزها الأعمال والتجارب . وكان من أخطار هذه النزعة المريضة ان أصبح التطاول على العظماء موضة تقدمية يتباهى بها الجهلاء والحاقدون ، واذا سألت العقاد عن سر تمجيده للبطولة والأبطال فسوف تجد

عنده الجواب الأوفى : ان ايتاء العظمة حقها لازم فى كل آونة وبين كل أمة ، ولكنه فى زماننا هذا ألزم منه فى أزمنة سالفة ، وعالمنا المعاصر أحوج ما يكون الى المصلحين النافعين لشعوبهم وللانسانية كافة ، ولكن كيف يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق !! معرض للجحود والنكران !! وهل تستطيع الانسانية أن تفرز أبطالا جددا ما لم توف أبطالها السالفين حقهم من التوقير والاجلال ؟ !! .

لقد هال العقاد ، كما هال كل غيور ، أن يرى الناس قد اجترأوا على العظمة رغم حاجتهم الى هدايتها ، وأفزعه أن يرى الجهلاء والدهماء والغوغاء يغضون من قيمة الأبطال ، وتنال من مكانتهم وتتجنى على أقدارهم وتلحق بهم المثالب والنقائص والعيوب ، وهذا التجنى له عند العقاد مسببات كثيرة ، أهمها ذيوع الحقوق العامة وشيوع نزعة المساواة ، مما أغرى صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة للعظماء الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة . وهو يرى أن بعض الناس قد أساءوا فهم (الديمقراطية) وظنوا أنها حرية الصغير فى تجريح الكبير ، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية ، وأن الثورة على الحكام المستبدين معناها الثورة على كل ذى مكانة من العظماء ، فكثر التطاول على كل عظمة انسانية ، ولكن الى أى مدى كان هذا المنهج صحيحا فى تقييم الابطال ؟ .

لقد كان الأستاذ العقاد مفتونا بأبطاله الى درجة الوجد الصوفى ، فهو لا يقبل نقدا لتصرفاتهم حتى لو كان التصرف بسيطا هينا ، ويرى فى نقد الأبطال محاولة مفتعلة للتطاول عليهم والزراية بهم . وكان العقاد يسخر من مناهج البحث التاريخى التى تتناول حياة الأبطال بعين فاحصة تفصل ما بين الحسنات والسيئات فى سلوكهم ، ويستنكر مسلك الكتاب الذين (يزعمون) الانصاف عندما يفرقون بين الثناء والملام ، ويسترسلون فى سرد الحسنات ثم ينقلبون من كل حسنة الى عيب يكافئها ، ويشفعون كل فضيلة

بنقيصة تعادلها ، فهم ــ فى رأيه ــ يفعلون ذلك توقيا لمظنة المغالاة والاعجاب المتحيز ، بينما هو يرى فى التحيز شيئا لا يستحق الملام ، بل يمضى الى أبعد من ذلك ، فيصف هذا المنهج بالمراءاة والكذب والتمسح بالعدل والانصاف والموضوعية ، وهى منه براء ٠٠ وأصحاب هذا المنهج ــ عنده ــ لا يقلون ظلما عن القاضى الذى تحاكم اليه أحد الملوك فى ملكية عقار ينازعه فيه بعض السوقة ، فحكم القاضى على الملك بغير الحق ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك ، فما كان من الملك الا أن عزله لأنه حكم بالظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه . فكان الملك عادلا لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالانصاف ٠

● ● ●

وبهذا المعيار انبرى العقاد للدفاع عن أبطاله وتبرير تصرفاتهم جملة وتفصيلا ، فكل تصرف منهم له عنده مسوغ ، وكل خطأ له دوافع وظروف تنقله الى دائرة الحسنات التى يستحق عليها التقدير والاعجاب ٠ فلا يثير العقاد شىء قدر أن تحاسب أبطاله ، وتخضعهم لمقاييس الخطأ والصواب ، فهل بلغ العقاد بأبطاله مرتبة العصمة التى لا يجوز معها نقد أو حساب ؟ وهل أضفى عليهم حصانة لم يفرضوها هم على أنفسهم ؟ ان قارىء « العبقريات » لا بد أن يخرج بهذا الانطباع ٠٠ ولا يملك الا أن يتساءل عن مدى صحة هــذا المنهج ٠

واذا كان لكل فعل رد فعل معاكس له فى الاتجاه ، كما يقول علماء الطبيعة ، فانه يمكننا أن نتفهم أسباب مغالاة العقاد فى حماية أبطاله ، لقد كانت ردة فعل لنزعة الاستخفاف والتطاول التى شاعت فى حياتنا السياسية والفكرية والأدبية بعد ذيوع مناهج البحث الأوربية التى تعالج الظاهرة « الانسانية » بنفس البرود الذى تعالج

به الظاهرة « الطبيعية » ، وتتناول حياة الأبطال بأسلوب تشريحى مجرد من اعتبارت التقدير والاحترام والتكريم ، فاذا أضفنا الى كل ذلك نزعة الحقد الكامنة عند بعض المستشرقين ، لأدركنا سر غضبة العقاد وتصديه لهذه الهجمة الشرسة التى تهدد الأبطال وتزعزع مكانتهم السامية فى نفوس الناس · فكان عليه أن يحمى عباقرة الانسانية عامة ، وأبطال الاسلام بخاصة ـ من عمليات التجريح والتشويه التى كانت تجرى باسم العلم والأمانة والموضوعية ·

● ● ●

ولكن الحصانة التى فرضها العقاد على أبطاله ، كان من شأنها أن تؤدى الى عكس الغرض الذى أراده ، لأنها تتناقض مع أصل من أصول الفكر السياسى فى الاسلام وهو حق الرعية فى محاسبة الراعى ونزع العصمة عن الحاكم حتى تسهل محاسبته ، وكان الخلفاء الراشدون يعون هذه الحقيقة وعيا تاما ، ويحرصون على اعلانها وتأكيدها فى خطب البيعة التى يلقونها على جمهور الأمة فى أول يوم من أيام ولايتهم ، ومضى علماء الاسلام الأوائل فى تطبيق هذا المنهج المتوازن فى تقدير الرجال ، حتى انتهى بهم الى تأسيس علم « الجرح والتعديل » وهو علم جليل لم تعرف له سابقة عند الأمم السالفة ، وهدفه التثبت من صحة الروايـــات والأخبار المتواترة عن طريق نقد الرواة ـ وبعضهم من الصحابة والتابعين ـ والتأكد من أمانتهم وعدالتهم أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان ، وكان العلماء يختبرون بأنفسهم من يعاصرونهم من الرواة ، ويسألون عن أحوال من سلف وأخلاقهم وسلوكهم ، ثم يعلنون رأيهم فيهم دون تحرج أو شعور بالاثم لأنهم كانوا يضعون الحقيقة وحدها نصب أعينهم ، وعلى هذا الأساس المتين نهضت مناهج البحث فى ظلال النهضة العقلية والفقهية والفكرية التى يفخر بها الاسلام ·

ولم يكن الأستاذ العقاد غافلا عن ذلك ، ولكنها العاطفة الحارة التى انطوت عليها نفسه الكبيرة تجاه أبطاله ، فآثر أن يقدمهم الى الناس وقد أحاطت بهم هالة من الجلال والجمال ، ولم يكن من اليسير أن يمر منهج العقاد دون أن يتعرض للنقد من جانب معاصريه الذين كانوا يؤثرون تقديم الأبطال فى صورة واقعية متوازية ٠ وفى ذلك يقول العلامة أحمد أمين :

ان العظيم مهما عظم فله خطآت ٠٠٠ والا ما كان انسانا ٠٠ والعصمة لله وحده ٠٠ فهل واجب الكاتب أن يعرض لكل ذلك فى تفصيل ، فيذكر كل ماله ويشيد بذكره ويذكر خطآته وينقدها ، ويعلم بذلك درسا فى نواحى مجده ، ودرسا آخر فى مواضع خطئه ؟ أم أن واجبه فقط تجلية العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحى الخطأ ٠٠ ؟

ولا يخفى العلامة أحمد أمين انحيازه الى الرأى الأول ٠٠ فما رأيك أنت يا عزيزى القارىء ٠٠ ؟

هوان الانسان

منذ نصف قرن أو يزيد احترقت مدينة ميت غمر ، فاحترق قلب مصر ، وتبارى الشعراء والأدباء والكتاب لتحريك المشاعر ، وايقاظ الضمائر ، واثارة الهمم ، وانطلق صوت شاعر النيل حافظ ابراهيم ، يدوى فى ارجاء مصر بأنباء الكارثة ويروى تفاصيلها المفجعة بحاسة الصحفى ، وعدسة المصور ، وريشة الفنان ، وصنع من كل ذلك لوحة مبدعة تنبض بالحياة وتثير الشجن ، وأنت حين تسمع القصيدة لا تملك الا أن ترسل الدمع حزنا على الرضيع الذى فقد أمه ، والعجوز التى تبحث عن النجاة من الجحيم، والضحايا الذين باتوا طعمة للنيران .

وكان أبناء مصر يطالعون شعر حافظ فى صدر الصفحات الأولى من الصحف ، فتهتز مشاعرهم ، وتتشرف نفوسهم قطرات من الحزن النبيل ، وسرعان ما يتجسد ذلك فى مشاركة وجدانية توحد بينهم وبين المنكوبين من أبناء وطنهم .. انها وحدة الألم التى صهرت المصريين – على مر العصور – فى سبيكة بشرية صلبة ، وكنا فى مرحلة التعليم الابتدائى نحفظ ضمن مقطوعات الأدب المصرى الحديث – تلك القصيدة الرائعة التى كتبها حافظ فى حريق ميت غمر ، ولا تزال الذاكرة تعى منها هذه الأبيات :

سائل الليل عنهمو والنهار كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار يتداعى وأسقف تتوارى
رب ان القضاء أخنى عليهم فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروى هذه النار فهى تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجى فباتت تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والبؤس يجرى يمينا ورمتهم والبؤس يجرى يسارا

● ● ●

كان الانسان المصرى ، فى ذلك العصر « البائد » له قيمة ، اذا أصابه مكروه ثار الرأى العام ، وتحركت الصحافة ، وخفقت قلوب الناس من الاسكندرية حتى الشلال ، وسارعت الأيدى الى المواساة والنجدة ، كانت روح الألفة والتكافل تمثل قيمة أساسية من قيم المجتمع المصرى ، وفى الحريق الذى دمر قرية الضهرية نوفمبر ١٩٨٤ ظهرت النزعة الفردية فى أسوأ صورها ، جاءت سيارات الاطفاء فاستولى عليها وجهاء القرية وسادتها الجدد لتأمين بيوتهم • وليذهب الآخرون الى الجحيم • على أن الأنكى والأمر من كل ذلك ، هو موقف الرأى العام ـ ممثلا فى صحافته واذاعته وأحزابه وهيئاته وجمعياته ـ من هذا الحادث المفجع • لقد أكلت النيران ٦٣ انسانا ودمرت ٦٥٠ بيتا بمحتوياتها وكان نصيب الكارثة من اهتمام الصحف ووسائل الاعلام بضعة سطور تبشر الناس بصرف مساعدات وزارة الشئون للمنكوبين بمعدل خمسين جنيها لكل قتيل ••• !!

تصوروا •• ثمن الانسان فى بلادنا لا يزيد على خمسين جنيها فى حين أن ثمن أصغر دابة فى سوق التلات يبلغ أضعاف ذلك ، فما الذى جرى على الانسان المصرى حتى هبط سعره الى هذا الحد ؟•

اتوبيسات تقع بركابها فى النيل ! مقطورات تنزلق بحمولتها المكدسة الى قاع المصارف ! عمارات تنهار على سكانها وهم نائمون ! قطارات تتصادم ويختلط حطامها بأشلاء ركابها ! قرى تحترق وتتفحم جثث أبنائها ولا تجد لكل هذه النكبات صدى فى وسائل الاعلام ‥ فهل هانت حيـاة الناس على الناس الى هـذا القدر المخيف ‥ !!

منذ أيام كنت أستمع الى السيد وزير الاعلام فى حديث اذاعى قال فيه ان مجموع ساعات الارسال الاذاعى فى بلدنا تزيد على ٢٠٠ ساعة فى اليوم .

ولكن : ما هو نصيب الانسان من هذا الحشد الاذاعى الهائل ؟ وما قيمة الكم الاعلامى ان لم يضع البنى آدم فى طليعة اهتمامه ‥ !: هل انتقلت كاميرات التلفزيون لتقدم لنا تفاصيل نكبة الضهرية مثلما تفعل لنقل السفاسف والتوافه من الأمور ! ان الصحف التى تفخر بانجازاتها الطباعية المتقـدمة لم تعـد تفكر فى تغطية هـذه الكوارث خصوصا اذا كانت خارج القـاهرة ‥ والصـحف التى أصدرت ست طبعات لمتابعة انتخابات الرئاسة الأمريكية نسيت أن تتابع أنباء الكارثة التى وقعت فى الضهرية ‥ فهل من أصل الحضارة أن نلاحق أخبار أمريكا ونتجاهل أخبار قرية مصرية إحترقت بمن فيها ‥ ؟ حقا أنه لا يزال بيننا وبين جوهر الحضارة أمد بعيد .

أدب الحشيش

لا يعرف بالضبط متى تسلل الحشيش الى مصر ‥ وان كان المقريزى يذكر فى خططه أن القنب الهندى انتقل الى بلاد فارس ومنها الى العراق ومصر خلال القرن السابع الهجرى ، وأن أول من اكتشف « الحشيشة » فى خراسان هو الشيخ « حيدرة » المتوفى عام ٦٢٨ه ، وأنه جعلها وقفا على رفاقه من رجال التصوف فى خراسان ، ولم يشأ أن يذيع سرها على الناس ، وأوصى أصحابه بأن يزرعوها على قبره بعد موته . ثم انتقلت الحشيشة من خراسان الى بغداد حيث أكثر المتصوفة هناك من تعاطيها ، وعن طريقهم انتقلت الى الشام ومصر حيث سميت بحشيشة « الفقراء » وهو الاسم الذى كان يعرف به فقراء الصوفية .

ولكن بعض المؤرخين يرى أن الحشيش تسلل الى مصر مع الحملات المغولية على ديار الشرق الاسلامى ، وينقل محمد بن بهاء الزركشى صاحب رسالة « زهر العريش فى الكلام عن الحشيش » عن الامام ابن تيمية قوله ان الحشيشة ظهرت فى أواخر القرن السادس الهجرى حين ظهرت دولة التتار ‥ وان تلك المادة انتقلت مع التتار الى بغداد ‥ الخ .

وبظهور الحشيش فى مصر ، أصبح غرضا من أغراض الأدب ، يتغنى به الشعراء ويتغنون باظهار محاسنه مثلما كان أبو نواس وبشار يمتدحان الخمر فى حانات بغداد ، وكان شعراء الحشيش فى مصر لا يجدون حرجا فى الدعاية له ظنا منهم أن الدين لا يحرمه ، وأن أحدا من كبار الفقهاء لم يفت بتحريمه ، متجاهلين الفتاوى الصريحة التى أعلنها ابن تيمية فى شأن تحريم الحشيشة . ومن نماذج الشعر فى ذلك العصر ما نظمه محمد بن على بن الأعمى :

دع الخمر واشرب من مدامة « حيدر »
معنبرة خضراء مثل الزبرجد

هى البكر لم تنكح بماء سحابة
ولا عصرت يوما برجل ولا يد

ولا نص فى تحريمها عند مالك
ولا عند الشافعى وأحمد

ولا أثبت النعمان تنجيس عينها
فخذها بحد المشرقى المهند

فأنت ترى فى هذا الشعر تحقيرا للخمر ، واشادة بالحشيش ، بزعم عدم تحريمه عند أئمة الفقه الأربعة ، وتلك لعمرى مغالطة مفضوحة ، ومحاولة ساذجة لتحليل شىء محرم ، وصدق المجتهدون فى تحريم الحشيش قياسيا على الخمر ، لاشتراكه معها في علة الحكم. وهو غياب العقل .. والعلاقة بين الحشيش وغياب العقل علاقة تاريخية منذ ظهرت طائفة الحشاشين « الاسماعيلية » فى شمال ايران واستخدموا الحشيش فى تخدير الأتباع وشل ارادتهم قبل تكليفهم باغتيال الخصوم والأعداء ، وفى ذلك يقول الدكتور على صافى حسين فى كتابه « الأدب الصوفى فى مصر » : والرأى الذى نرجحه

ونرتضيه هو أن الحشيشة عرفت فى قلعة « الموت » فى شرق الدولة الاسلامية على يد أتباع حسن الصباح الذى تزعم الاسماعيلية الباطنية الشرقيـة ، تلك الطائفــة التى اشــتهرت بين المؤرخـين باسم « الحشاشين » .

وكان الحسن الصباح قد تحصن فى تلك القلعة الشماء وأطلق عليها اسم « الموت » أى عش النسر لوعورة موقعها ، ونشر فيهـا البساتين الفيحاء وأنهار العسل والخمر لتكون جنة الأرض السرية التى يستمتع فيها أتباعه ، ويقال انه كان يستخدم الحشيش فى تخدير الشباب الأغرار حتى أصبحوا طوع بنانه لا يخالفون له أمر .. وكان يبعث بهم فى غارات مفاجئة لاغتيال السلاطين والأمراء والوزراء من خصوم الاسماعيلية ، فينطلقون لتنفيذ ما كلفوا به فى جسارة واقدام ، ولقد راح ضحية هذه الاغتيالات عدد كبير من زعماء العالم الاسلامي وباتت كلمة حشاشين Assassin فى اللغـات اللاتينية تعنى فرق الاغتيال .

واذا كان هناك اجماع على نسبة هــذه الحوادث الى طائفة الاسماعيلية الا أن بعض المؤرخين يشكك فى دعوى اســتخدام الحشيش فى تطويع ارادة الاتبــاع ، وحجته فى ذلك أن تعاطى الحشيش يؤدى الى الجبن والخور والتردد .. وهى صفات تنافى حالة الجسارة التى كان يتصف بها الفدائيون .

فالمـؤرخ المعـروف برنارد لـويس المتخصـص فى تاريــخ الاسماعيلية فى كتابه « الحشاشون » ترجمة الأستاذ محمد العزب موسى — يرفض قصة استخدام الحشيش ، ويرى أنها غير صحيحة اطلاقا ، فاستخدام الحشيش وآثاره كان شيئا معروفا فى ذلك الوقت ، ولم يكن بالسر المجهول أو وقفا على زعماء الاسماعيلية ، ولم يذكر أحد من الكتاب الاسماعيليين أو كتاب السنة الجادين أن

الاسماعيلية كانوا يستخدمون هذا المخدر ، أما اطلاق وصف الحشاشين على تلك الطائفة فان لويس يراه دلالة على احتقار العقائد الفاسدة والسلوك المعيب لأعضاء تلك الفرقة ٠٠ فهو تعبير ساخر عن سلوكهم أكثر من كونه وصفا حقيقيا لأفعالهم ٠٠

وسواء صحت أم لم تصح دعوى استخدام الاسماعيلية للحشيش ، فان الصحيح أن الحشيش كان أحد مصادر البلاء التي عمت العالم الاسلامي ، ونخرت عظامه ، وأشاعت في شعوبه الخمول والكسل والانحطاط ٠

شخصية الزعيم

اذا أردنا أن نبحث عن سر التفاف الأمة حول قائد ثورة ١٩١٩ سعد زغلول فسوف نجده فى عبارة ذكية للمؤرخ الجليل محمد شفيق غربال يقول فيها « ان الأمم بطبعها تحس بمن يحبها فتستجيب له ، وتلقى بثقتها بين يديه ، وتحس بمن لا يحبها الحب الصادق الوفى فتنصرف عنه » •

وهذا ما حدث لسعد زغلول ، فقد أجمعت الأمة بكل طبقاتها الاجتماعية ومستوياتها الثقافية والفكرية والدينية على زعامته للثورة ، وأسلمت اليه قيادها وهى تعلم انه الأمين على ما اؤتمن عليه ، وكانت تثق بحكمه وتقديره للأمور ، وكان يكفى أن يسحب سعد ثقته عن أحد السياسين فيسقط جماهيريا ، أو يسحب اعترافه بصحيفة تنطق باسم الوفد فينصرف عنها القراء •

وقد ذهب المؤرخون والباحثون فى تفسير سر زعامة سعد زغلول مذاهب شتى ، فعزاها بعضهم الى قدرات خاصة كامنة فيه بالسليقة كالعناد والصلابة ، وقال بعضهم ان سر زعامته لا يمكن فهمه الا فى ضوء التغييرات السياسية والاجتماعية التى طرأت على المجتمع المصرى • أما الدكتور عاطف أحمد فؤاد فيلخص لنا

فى كتابه (الزعامة السياسية فى مصر) مقومات زعامة سعد فى العناصر الثمانية التالية :

١ ـ الموهبة الخاصة والقدرة المتميزة على التأثير على الآخرين وهى من أولى السمات المميزة للقيادة الناجحة والزعامة السياسية القادرة •

٢ ـ التفاف الجماهير حوله والتأييد الشعبى الذى يندر أن نجد مثيله لدى تاريخ أمة من الأمم ولا شك أن هذا التأييد قد أضاف الى أبعاد الشخصية الزعامية لسعد بعدا جديدا ، زادها قوة على قوة •

٣ ـ التجربة السياسية والحزبية والتمثل الجيد لظروف المجتمع المصرى والرؤية الواعية لتاريخ هذا المجتمع •

٤ ـ رغم انتمائه الى الصفوة السياسية المثقفة ، فانه استطاع أن يتجاوز حدود هذه الصفوة ، وان يكون زعيما « للرعاع » على نحو ما شبهه سعد نفسه ، ولا شك أن انتماءه الطبقى للقرية المصرية ، وقربه من نفسية الانسان المصرى وفهمه لعبقرية هذا الانسان وديناميات شخصيته ، ساعده كثيرا على أن يتجاوز بزعامته حدود صفوته المثقفة •

٥ ـ لعبت ظروف الحكم الاوتوقراطى وأزمة الاحتلال الانجليزى على تفجير كوامن العبقرية الزعامية لسعد ، وصلابته وعناده والتى ظهرت ارهاصاتها فى الفترة التى تولى فيها وزارة المعارف ، وهى الفترة التى شاهدت صراعه من دانلوب ممثل الاحتلال فى وزارة المعارف ، والتى كشفت عن عناد الفلاح المصرى وصلابته وأصالته •

٦ ـ لم تكن زعامة سعد من الزعامات الجوفاء ، أو ذات الخواء الفكرى بل كانت زعامة تجمع بين السمات العملية والرؤية الفكرية، وان لم تصل الى مستوى النظرية أو الايديولوجية المتكاملة •

٧ ـ استطاع سعد من خلال قيادته للأمة وزعامته لها أن يحدث ما يمكن تسميته بالتحديث السياسى ، الذى تمثل فى دستور عام ١٩٢٣ كأول بشير بالحكم الليبرالى وما ترتب على هذا الدستور من نتائج كان لها تأثيرها على المسيرة السياسية للمجتمع المصرى ٠

٨ ـ رغم استئثار سعد بالرأى فى كثير من الأمور ، وضيقه احيانا بالمعارضة فانه استطاع أن يكسب احترام مؤيديه ومعارضيه معا وهو ما تبدى فيما رواه كل من عبد الرحمن الرافعى وأمين الرافعى والدكتور محمد حسين هيكل ٠

دواء غير صالح

كان الانجليز فى القرن الماضى ، رغم عشقهم للحرية وتقديسهم للحياة النيابية الدستورية ، يرون أن شعوب الشرق غير مؤهلة لاقتباس هذه المبتكرات الحضارية الحديثة .. وكانت حجتهم فى ذلك أن الحياة النيابية ثمرة تطور تدريجى بطىء على النحو الذى حدث فى انجلترا نفسها ، وبدون هذا التطور يصبح الدستور والبرلمان مجرد شكلين واهيين ، فلما قامت الثورة العرابية لتطالب الخديو باعلان الدستور وقيام مجلس نيابى « على النسق الأوربى » دهش الانجليز لهذا المطلب « الغريب » الذى كان فى نظرهم أشبه بدواء غير صالح للاستعمال بين شعوب استمرأت الطغيان وتعودت الاستعباد .. ! وبدلا من أن يكون الانجليز صادقين فى نشر هذه المبادىء والأفكار التى تمثل رموز الحضارة الأوربية ، وبدلا من ان يساعدوا المصريين على الخلاص من الحكم الاوتوقراطى الرجعى تكالبوا على الثورة حتى اخمدوها وأعادوا الخديو المخلوع الى عرشه ليستأنف نشاطه فى جلد المصريين بالكرباج .. !

وبعد أن التقط الانجليز أنفاسهم ، بدأوا فى تحطيم كل أثر من آثار التحرر التى أقامتها الثورة العرابية فى المجتمع المصرى ،

وتم ذلك وفق برنامج زمنى مدروس وضعه أحد اساطين النظام الاستعمارى هو اللورد « دوفرين » الذى قضى ردحا من حياته الدبلوماسية فى الهند ثم تركيا واكتسب خبرة فى شئون الشرق . وكان أول بنود البرنامج الغاء مجلس النواب واقامة مجلس صورى من بعض الطراطير الذين يجيدون التسبيح بحمد ولى النعم ، أما بقية بنود البرنامج فكانت تسعى كلها نحو هدف واحد ، هو تقليم أظافر الشعب المصرى حتى لا يفكر يوما فى حكم نفسه بنفسه ، وتولى تنفيذ البرنامج أحد تلاميذ دوفرين النجباء واسمه ايفلين بيرنغ الذى صار فيما بعد « لورد كرومر » والذى حكم مصر ٢٣ سنة وكأنها دوقية من دوقيات الاقطاع الانجليزى فى العصور الوسطى يتصرف فيها كيف شاء ولا راد لمشيئته ، منطلقا من أفكار أستاذه التى ترى أن الطغيان الذى عشش فى مصر لم يدمر فقط بذور الحرية ولكنه جعل التربة المصرية غير قادرة على انبات هذه البذور ، وأن أمة طال استعبادها تحن بفطرتها الى قبضة « السيد » القوية أكثر من حنينها الى النظام الدستورى المتراخى بطبيعته ..

وهذه الفكرة كما ترى موغلة فى الرجعية وفضلا عن منافاتها للفطرة الانسانية السليمة التى تأبى الذل وتأنف من الاستعباد ، فان الأحداث اللاحقة كشفت زيفها وبطلانها ، وكان قيام ثورة ١٩١٩ هو أكبر معبر عن اصرار المصريين على التخلص من الاستعباد الخارجى ممثلا فى الاحتلال ، والداخلى ممثلا فى الأسرة العلوية ولم تفلح الاصلاحات المالية والادارية التى أنجزها كرومر ، ولا المكتسبات الحضارية التى تمت على أيدى عباس الثانى وأحمد فؤاد فى صرف المصريين عن هدفهم المقدس ، ومنذ ثورة ١٩١٩ وحتى ثورة ١٩٥٢ سلك الكفاح الوطنى مسلكين متلازمين هما : الكفاح الوطنى والكفاح الدستورى فأما الكفاح الوطنى فموضوعه « الاستقلال » وتخليص البلاد من الاحتلال الانجليزى الذى وقع عام ١٨٨٢ ، وأما الكفاح

الدستورى فموضوعه « نظام الحكم » وهدفه قيام شكل جديد يقوم على مبدأ السيادة للأمة ، ونشوء حياة نيابية ، ويكون الحكم للأغلبية عن طريق وزارة مسئولة أمام البرلمان ، على أن ينتظم هذه المبادىء دستور تقوم باعداده جمعية تأسيسية منتخبة من الشعب ، وبذلك يكون الدستور عقدا بين الحاكم والمحكومين ، وليس منحة من الحاكم يستردها أو يعبث بها وقتما يشاء ٠

وكان نشوب ثورة ١٩١٩ سببا فى زعزعة النظام القديم الذى اشتدت فيه وطأة الحماية البريطانية ، وتطلعت أبصار المصريين الى عصر جديد يحمل لهم تباشير الخلاص من قيود الحكم المطلق التى توارثها أبناء محمد على كابرا عن كابر ، وكان الوفد ـ بمقتضى الوكالة الشعبية التى حملها من الأمة عشية الثورة ، وبمقتضى الزعامة التاريخية التى استقرت فى شخص سعد زغلول ـ يرى أنه صاحب الحق الشرعى فى تقرير مصير البلاد ، وتخطيط مستقبلها على ضوء المبادىء والشعارات التى ظهرت ابان الثورة ، واقتنع الانجليز بأن التغيير أصبح أمرا حتميا ، وأن مستقبل مصر بعد الثورة لا يمكن أن يكون استمرارا لما كانت عليه قبلها ٠٠ ولكن فى أى اتجاه يسيرون ؟ والى من يسلمون زمام الأمور ٠٠ ؟ ان تسليم المقاليد الى الوفد معناه تحقيق أهداف الثورة فى « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » ؟ ومعناه ظهور السلطة الشعبية على المسرح السياسى على حساب القصر الذى كان حليفا للاحتلال منذ عهد توفيق ٠٠ وانتهت الدبلوماسية البريطانية الى خطة جهنمية تتلخص فى اعادة ترتيب البيت المصرى ٠٠ ثم تسليم مفاتيحه الى خصوم الوفد ٠

● ● ●

وكان تنفيذ هذه الخطة يتطلب ابعاد سعد زغلول عن مصر

لكى تجرى الترتيبات فى غيبته ٠٠ حتى اذا عاد وجد البيت مشغولا بسكان يحملون في أيديهم عقود تمليك قانونية ولكنها غير شرعية٠٠ ففى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ اعتقل الانجليز سعد زغلول للمرة الثانية ومعه خمسة من رفاقه ونفوهم الى سيشل ،وبعد شـهرين تقريبا أصدر الانجليز تصريحهم المشهور فى ٢٨ فبراير الذى اعترفوا فيه باستقلال مصر وانهاء الحماية ، وفى اليوم التالى ألف عبد الخالق ثروت وزارة مهمتها اعداد الدستور ، وشكلت لجنة من ثلاثين عضوا برئاسة حسين رشدى لوضع مشروع الدستور ٠ فاستنكر الوفـد عملية اعداد الدستور عن طريق لجنة يختارها الملك ، وشدد سعد من منفاه هجومه على اللجنة وأسماها « لجنة الأشقياء » وسارعت جبهة الأعيان والمثقفين الى تشكيل حزب الأحرار الدستوريين ليكون الفارس الوحيد فى الملعب الذى غاب عنه أصحابه الشرعيون ، وانضم أعضاء لجنة الدستور الى هـذا الحزب ليقطفوا ثمرته فى الوقت المناسب ٠ وكان أملهم كبيرا أن يعتمد الملك فؤاد مشروع الدستور على النحو الذى أرادوه ، ولكن الملك خيب ظنهم وأخذ يعدل ويبدل ويضيف من المواد ما يرسخ سلطاته المطلقة ، وكان أبشع ما أضافه المادة « ٣٨ » التى تعطيه حق حل مجلس النواب بصورة مطلقة ودون قيد أو شرط ٠٠ وكانت هذه المادة ــ وحدهـا ــ سببا فى نكبة الانقلابات الدستورية التى عانتها البلاد فى عهد فؤاد ومن بعده فاروق ٠٠ واستطاع أنصار الحكم المطلق ان يجعلوا من هذه المادة أداة للعبث بالنظام الدستورى ، وتفريغ النظام النيابى من مضمونه ، ونقل السلطة من أصحابها الشرعيين الى المتسلطين من أذناب القصر ٠

واستقبل الشعب اعلان الدستور بالفتور ، واصدر الوفد بيانا قال فيه : لقد احتفلت وزارة من قبل باستقلال ٢٨ فبراير ، فما كنا فى عهده بأكثر استقلالا منا قبله فى عهد الحماية ، واليوم احتفلت الوزارة بصدور الدستور ، فما نحن بصدوره بأكثر حرية

مما كنا قبله ، وأدلى سعد زغلول بتصريح الى مراسل صحيفة ديلى هيرالد حذر فيه من عواقب السلطة المطلقة للملك ، وقال « اذا كان من الخطر ان توضع سلطة كبيرة فى ايدى الملوك الذين هم بمعزل عن نفوذ أجنبى ، فالخطر من ذلك أعظم وأشد فى بلاد يسود فيها النفوذ الأجنبى ويدعى ان العرش فى سلامته بفضل جنوده ، لهذه القوة التى تركت للملك ستصبح فى الواقع حقوقا فى يد الأجنبى يستعملها لأغراضه ضد مصالح الوطن ٠

وصح ما توقعه سعد فى هذا التصريح الجرىء ، وظل التحالف بين القصر والاحتلال عائقا دون تثبيت السلطة الشعبية وترسيخ النظام الدستورى ٠

● ● ●

وأعلن دستور ١٩٢٣ ممسوخا مشوها على الصورة التى أرادها الملك رغم أنف الأحرار الدستوريين ، حتى اذا عاد سعد الى أرض الوطن فى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ استقبلته الأمة استقبال الأبطال الفاتحين برغم الملك والانجليز ٠ وعندما أجريت أول انتخابات عامة فى ١٢ يناير ١٩٢٤ حدثت المفاجأة التى لم يتوقعها أحد ، فقد اكتسح الوفد خصومه فنال ١٩٥ مقعدا ٠٠ بينما حصل الأحرار الدستوريون على ستة مقاعد ، وحصل الحزب الوطنى على أربعة مقاعد فقط ، وفاز مرشح الوفد على رئيس الوزراء يحيى ابراهيم ٠

لقد حجب الشعب المصرى ثقته عن الأعيان والمثقفين والمحافظين ومنحها لسعد ورفاقه ٠٠ لأن الأمم ـ بطبعها ـ تحس بمن يحبها فتستجيب له وتلقى بثقتها بين يديه ، وتحس بمن لا يحبها الحب الصادق فتنصرف عنه ٠٠ وفى ذلك عبرة لمن يريد أن يعتبر ٠

القاضي النزيه

كان يحيى ابراهيم باشـا من جيل الساسة المصريين الذين صعدوا الى القمة ـ في مطلع هذا القرن ـ عن طريق المحـاماة والقضاء مثل مصطفى كامل وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي ، وكانت مدرسة الحقوق آنذاك معمل تفريخ للقادة ورجال السياسة والحكم ، وقد ولد يحيى ابراهيم في احـدى قرى بني سويف ، وبعد تخرجه في الحقوق تدرج في سلك القضاء حتى صار رئيسا لمحكمة الاستئناف .

ويبدو أنه كان ذا ثقافة موسوعية ـ وكانت الثقافة صفة شائعة في رجال ذلك العصر ـ ورفوف مكتبتي تضـم سـفرا ضخما صدر في ١٨٩٣ ويحتوى على فصول في شتى ألوان المعرفة من الأدب والتاريخ والفقه ، الى النوادر المنتقاة من عيون التراث من تأليف (حضرة يحيى أفندى ابراهيم ـ نائب قاض بمحكمـة الاستئناف) والظاهر أن هذه الخلفية الثقافيـة كانت من بين مسوغات تعيينه وزيرا للمعارف في وزارة يوسف وهبه باشا التي شكلت في أعقاب ثورة ١٩١٩ .

ولكن من السذاجة اعتبار الثقافة مبررا كافيا لاختيار الوزراء ، والصحيح أن يحيى ابراهيم كان يتصدر قائمة وزراء « القصر » مثل توفيق نسيم ومحمد سعيد وأحمد زيور وغيرهم . ولهذا السبب وحده كلفه الملك أحمد فؤاد بتشكيل وزارة ادارية فى مارس ١٩٢٣ لتسيير شئون الدولة بعد أن بقيت البلاد شهرا بلا وزارة بعد استقالة توفيق نسيم ، وتصور الملك أن يحيى ابراهيم سيكون طوع بنانه ووافق الانجليز على ذلك لأن الرجل (كان حصانا أسود مجهولا سواء من الرأى العام أو دار المندوب السامى ، وأهم مميزاته أنه لم يكن شخصية معروفة او سياسيا حزبيا) على حد تعبير اللورد لويد .

وما ان تولى يحيى ابراهيم رئاسة الوزارة حتى حدث التطور المدهش فى شخصيته ، وتبين انه لم يكن ذلك الحمل الوديع كما ظن الملك والانجليز ، واذا به يتمسك باعلان الدستور باعتباره « الدواء الحاسم الذى دعت اليه الأمة ، وفيه تتمثل ارادة الشعب وبه تصان سيادة الأمة وتحترم جميع الحقوق » وخضع الملك لاصرار رئيس الوزراء على اعلان الدستور ، واستجاب الانجليز لمطالبة فى اعداد المناخ الصالح للانتقال بالبلاد الى المرحلة الدستورية ، فصدرت عدة قرارات تاريخية منها الغاء الأحكام العرفية ، والافراج عن زعيم الأمة سعد زغلول وعودته من منفاه فى سيشل ، والاعداد لاجراء أول انتخابات شعبية فى تاريخ مصر الحديث .

ولايزال بعض الباحثين التاريخيين ـ كالدكتور يونان لبيب رزق ـ فى دهشة من هذه الانجازات التى حققتها الوزارة الابراهيمية ، ويرى أنها لم تكن متوقعة منه بحال من الأحوال ، ولم تتم بسهولة وانما لقيت فى طريقها كثيرا من العقبات والأزمات

.. ومع ذلك فكل انجازات يحيى ابراهيم تتضاءل أمام انجازه الأعظم وهو اجراء انتخابات نزيهة ألقت به خارج الحكم ، فدخل التاريخ من أوسع أبوابه .

وكان نجاح الوفد بأغلبية ساحقة في أول انتخابات شعبية حرة ، من الظواهر التى حيرت المعلقين ونقاد التاريخ ، وكان قادة الوفد متعبين مرهقين ، فهم بين خارج من السجن أو عائد من المنفى ، ومع ذلك حصل الوفد على ٩٠٪ من مقاعد أول مجلس نواب فى تاريخ مصر .. فكيف تسنى له هذا التأييد الشعبى الكاسح .

●●●

المؤرخ عبد الرحمن الرافعى يعزو ذلك الى شخصية سعد زغلول « وزعامته للأمة والمنزلة التى نالها فى نفوس المصريين ، فقد تركزت فيه الثورة لأنه كان زعيمها ، وكان نفيه مرتين مما زاد الشعب تعلقا به والتفافا حوله » .. وتلك شهادة حق من أحد خصوم الوفد الشرفاء فالشعوب بحسها المرهف تعرف أين تضع ثقتها .. ومتى تحجبها . ولذلك ظلت صفة « الشعبية » لصيقة بالوفد منذ نشأته وعلى مدى تاريخه الطويل ، حتى الوزارات التى كان يؤلفها كانت تقترن بصفة « الشعبية » وكان الارتباط بين الوفد والشعب هو الحبل السرى الذى كتب للوفد البقاء بينما توارت شموس وتهاوت عروش . وظل الوفد أمينا على ثقة الجماهير به حتى فى أكثر الظروف اغراء بالانحياز الى السلطة .

فى خطاب التكليف الذى بعث به الملك فؤاد الى سعد زغلول لتشكيل الوزارة ، عز على الملك الذى تربى فى أحضـــان الحكم المطلق ان يعترف بالأساس الدستورى الذى قامت عليـه حكومة الشعب ، فتجاهل متعمدا الاشـــارة الى ارادة الأمة التى فتحت الأبواب أمام الفلاح ابن الفلاح ليصبح رئيســـا للوزراء ٠٠ ولم يسكت سعد زغلول عن هذا الاغفـال المتعمد ، وبكل ما يختزنه الفلاح المصرى من عناد وكبرياء رد سعد زغلول على خطاب التكليف بأن حكومته انما جاءت بناء على ثقة الأمة ونوابهـــا بشخصـه الضعيف ٠

ولم يكن سعد زغلول ضعيفا ٠٠ ولايمكن ان يكون ضعيفا من يحظى بثقة الشعب ٠

أول انتخابات مصرية

من حسن حظ الحياة النيابية المصرية انها بدأت بداية نظيفة تبشر بالأمل وتدعو الى الثقة بالنظام البرلماني ، وشهدت مصر فى مطلع عام ١٩٢٤ أول انتخابات برلمانية فى تاريخها فى جو مشبع بالحرية والنزاهة ، وفى مناخ صحى خال من الضغط والاكراه، وبعيد عن التدخل أو التلاعب أو التزوير سواء من جانب الحكومة التى أشرفت على الانتخـــابات ، أو من جانب القصر الملكى وكر الاتوقراطية العتيد ووريث التقاليـد الاسـتبدادية التى حكمت مصر منذ القدم ، وقبيل اجراء الانتخابات سادت الحياة السياسية المصرية روح جديدة ، ورغبة صادقة فى احترام ارادة الناخبين كى يختاروا ممثليهم فى أول مجلس نيابى على الوجـــه الذى يريده الشعب .. وليس على النمط الذى يريده الحاكم .

كان رئيس الوزراء - يحيى ابراهيم باشا - قد نجح فى استصدار الدستور - فجأة - وفى وقت خبا فيه الامل فى صدوره فكانت تلك أولى انجازات هذا الرجل اللغز الذى كان يوصف تارة بأنه أداة طيعة فى يد القصر ، بينما كان الانجليز يرون فيه مجرد رئيس لوزارة ادارية مهمتها تصريف الامور لحين العثـــور

على الرجل القوى الذى يخرج البلاد من ورطتها ، ولكن لم يلبث يحيى ابراهيم وهو مستشار سابق ان اثبت للجميع انه ليس الرجل الذى تصوروه وكما يصفه اللورد لويد بقوله : « ان يحيى باشا كان حصانا أسود مجهولا سواء من جانب الرأى العام أو دار المندوب السامى ، وكانت أهم ميزاته أنه لم يكن شخصية معروفة أو سياسيا حزبيا ، ومن ثم فانه لم تكن هنـــاك أى ضـــغائن شخصية يمكن ان تقيد حركته » ، وقد استغل الرجل هذه الميزة فاعلن أنه غير قانع بمجرد ادارة الاعمال ، ولكنه ينوى اعـــلان الدستور ومعه قانون الانتخابات ٠

وبر الرجل بوعده ٠٠ وكشف عن عظمة رجل القضاء عندما يجلس على منصة الحكم ، ويـروى الرافعى المؤرخ قصـــة اعـــلان الدستور عندما ذهب رئيس الوزراء الى قصر عابدين مساء يوم ١٩ ابرايل ١٩٢٣ وابلغ الملك فؤاد ان مصلحة البلاد العليا تقتضى امضاء الدستور الليلة ٠٠ ؟ فقبل الملك وأرسل يستدعى الوزراء الذين مضوا على عجل الى القصر وهم يجهلون سبب استدعائهم ٠ فلما مثلوا امام الملك — وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة — قدم اليه يحيى ابراهيم نص الدستور فوقع عليـــه وتلاه الوزراء جميعا ٠٠ وبعدها صدرت الاوامر الى جميع القـــلاع والطوابى وعواصم الاقاليم باطلاق المدافع ابتهاجا بالحدث التاريخى ٠ ٠ ٠

●●●

وعقب اعلان الدستور بدأت عملية تهيئة المناخ الديمقراطى لاجراء الانتخابات العامة ، فألغيت الاحكام العرفيـــة ، وبدأت سلسلة من القرارات للافراج عن المعتقلين السياسيين الذين كانوا رهن السجون والمعتقلات منذ احداث ثورة ١٩١٩ ٠ فتم الافراج

عن أقطاب الوفد المعتقلين فى سيشل : مصـــطفى بك النحاس ، وفتح الله باشا بركات والاستاذ مكرم عبيد وعاطف بك النحاس، وفتح الله باشا بركات والاستاذ مكرم عبيد وعاطف بك بركات وسينوت حنا بك ، وافرجت السلطات العسكرية عن أعضاء هيئة الوفد المعتقلين فى مصر : السيد حسين القصبى ، وفخـــرى بك عبد النور ، والاميرالاى محمود حلمى بك ، ونجيب أفندى الغرابلى وراغب أفندى اسكندر ، واطلق سراح زعماء الوفد المحكوم عليهم بالسجن فى مصر : حمد الباسل باشا ، ومرقص حنا ، والاستاذ ويصا واصف ، وواصف بطرس غالى ، وعلوى بك الجزار ، ومراد بك الشريعى ، وجورج خياط بك ، كما صدر قرار بالعفو عــن ٢٥٠ شخصا كانوا يقضون أحكاما بالسجن ابان احداث الثورة، وزال الخطر الذى كان مفروضـــا على بعض الســياسيين المنفيين بالخارج •

وفى ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ عاد الزعيم سعد زغلول الى أرض الوطن من منفاه فى مالطة فاستقبلته الامة استقبالا اســـطوريا ، وبدأت الاستعدادات للانتخابات العامة ، ودب النشاط السياسى فى أنحاء البلاد ، وقسمت مصر الى ٢١٤ دائرة انتخابية تقدمت لها أحـــزاب : الوفد والاحـرار الدســتوريون والحـزب الوطنى (حزب مصطفى كامل) واهتمت الامة بكل طوائفهـا بالانتخابات اهتماما عظيما دل على ارتقاء النضج السياسى بين أفراد الشعب ، وتتبع الناس فى لهفة اجـــراءات التمهيد للانتخابات ، وتألفت اللجان الشعبية فى مختلف المدن والقرى ، وأعلن سعد زغلول أنه سيخوض الانتخابات معتمدا على ثقة الامة به وبحزبه ، وكانت الدلائل المبدئية تشير الى أن الوفد سينال الأغلبيـة الساحقـــة ، فشخصية سعد وزعامة سعد وقد تركزت فيه الثورة ، ولأن نفيه مرتين زاد الشعب تعلقا به ، والتفافا حوله ، وتلبية لندائه ..

وصدق يحيى ابراهيم فى العهد الذى قطعه على نفسه بان تجرى الانتخابات فى جو من الحيدة والنزاهة ، ولم يسمح لأحد من رجال الادارة بالتدخل فى ارادة الناخبين ، وليس ادل على ذلك من سقوط رئيس الوزراء فى دائرة منيا القمح امام مرشح الوفد أحمد افندى مرعى (والد المهندس سيد مرعى) ، لقد سقط رئيس الوزراء ولكنه ارتفع الى مرتبة الرجال العظام فى تاريخ مصر السياسى .

واكتسح الوفد منافسيه فى هذه الانتخابات الحرة ،فحصل مرشحوه على ١٥١ مقعدا (بنسبة ٩٠٪) بينما سقط اقطاب الاحرار الدستوريين وفى طليعتهم عبد العزيز فهمى باشا واسماعيل صدقى باشا ، ولم ينجح منهم سوى سبعة نواب ، وكان الوحيد الذى نجح من اقطابهم محمد باشا محمود ، بينما كان نصيب مرشحى الحزب الوطنى أربعة مقاعد فقط من بينهم عبد الرحمن الرافعى الذى فاز على منافسه الوفدى بفارق صوت واحد فقط .

●●●

واثبتت أول انتخابات برلمانية أجريت فى مصر منذ ٦٣ سنة أن النضج السياسى عند المصريين اكبر مما يظن الذين يحلو لهم تجريح النظام النيابى المصرى واتهامه بالعجز والقصور .. والتزوير .

ثوب فضفاض

كان الغاء دستور ١٩٢٣ بأمر ملكي ، نكسة حادة اصابت النظام الديمقراطي في مقتل ، وزعزعت ثقة الناس بجدوى الحياة النيابية ، وكان الغاء الدستور دليلا واضحا على ان الملك فؤاد ضاق ذرعا بالقيود الدستورية التى انتزعت جانبا من سلطاته لحساب الشعب ٠ وكان من الصعب على من شب فى احضان الحكم المطلق ان يقبل معه شريكا ٠٠ وكان الشريك — بنص الدستور — هم نواب الأمة ومجلس وزرائها الذى آلت اليه مقاليد السلطة التنفيذية ، ولم يكن مجلس الوزراء مسئولا امام الملك ، ولكن أمام البرلمان ، ومعنى ذلك أن القصر — عش الاتوقراطية العتيد — فقد كثيرا من جاهه ونفوذه ٠

ولم يكن الملك فؤاد مسئولا — وحده — عن هذه الردة ، وانما كان هناك بعض المشتغلين بالسياسة ضاقوا هم ايضا بالدستور لانه لم يحقق احلامهم فى الحكم بالرغم من ثرائهم العريض ، وثقافتهم العالية ، فتحولوا الى المعسكر المعادى للدستور وتحالفوا مع الملك فى كل حركة رجعية دبرها لتعطيل الحياة النيابية ، وكانوا هم أداة القصر فى تشكيل الوزارات الانقلابية

التى كانت تتولى الحكم دون تأييد من الأمه ، ودون سند شرعى من الدستور · أولئك هم أقطاب حزب الأحرار الدستوريين الذين كان الشعب ينأى عنهم فى كل انتخابات حرة ـ وينتخب الوفد ـ فامتلأت نفوسهم حقدا على الوفد ·· وعلى الشعب ·· وعلى الانتخابات ·· وعلى الدستور ، واتهموا الامة بالجهل والقصور · وقال زعيمهم فى خطبة شهيرة (انه كان يعتقد ان الدستور مناسب لمصر ، ولكن العمل أظهر أنه توب فضفاض) ، فلما ألغى الملك الدستور شعروا بفداحة الهاوية التى ساعدوا فى حفرها ·· وبدأوا فى اقامة الجسور مع الوفد لمواجهة الكارثة التى تهدد الحياة السياسية جميعا ·

●●●

وكان الدستور الذى أصدره الملك مسخا مشوها جامعا لكل المبادىء الرجعية المعروفة فى نظم الحكم الاستبدادى ، فسلب الحقوق التى كانت تتمتع بها الأمة فى ظل الدستور الملغى ، وقيد المسئولية الوزارية ـ أى حق مجلس النواب فى سحب الثقة من الحكومة ـ بقيود تجعل من استعمال هذا الحق ضربا من المحال، وأعطى للملك حق اهمال اى قانون يقره البرلمان ، وجعل للملك وحده حق تعيين شيخ الأزهر وغيره من الرؤساء الدينيين بعد أن كان دستور ١٩٢٣ يجمل هذا الحق « بواسطة رئيس مجلس الوزراء » ، وحرم الدستور الجديد على مجلس البرلمان حق التشريع فى المسائل المالية عامة وهى المسائل التى لا تخلو منها المرافق العامة ، فلا يستطيع البرلمان اقتراح فتح اعتماد لأى شأن ، ولا فرض ضريبة أو تعديلها ، مع أن هذه الحقوق كانت من أوليات القواعد العامة التى أسس عليها النظام البرلمانى الذى أعطى للشعوب حق الاشراف على أموالها ، على أن

أغرب ما تضمنه دستور صدقي – فى ظل قانون الانتخاب الجديد – هو منع الترشيح لعضوية البرلمان عن كل من يزاول احدى المهن الحرة فى بلد غير مدينة القاهرة ·· ومعنى ذلك حرمان الاطباء والمحامين والمهندسين والمحاسبين والتجار المقيمين فى الاقاليم من التمثيل النيابى ، بحجة أن عضويتهم ستشغلهم عن ممارسة أعمالهم ·· أو أن أعمالهم ستحول بينهم وبين التفرغ للعمل البرلمانى ·· !!

وبعد أن حجب قانون صدقي عن مثقفى الأمة حق المشاركة فى العمل البرلمانى ، استدار نحو العمال والفلاحين والطلاب ليضع أمامهم العراقيل فقرر العودة الى نظام الانتخاب على درجتين ، (بمعنى أن يشترك كل خمسين مواطنا فى انتخاب واحد ينوب عنهم فى اختيار أعضاء البرلمان) واشترط فى سن الناخب أن تكون ٢٥ سنة بعد أن كانت ٢١ سنة ، واشترط فى المندوب أن يكون مالكا لاموال ثابتة مربوط عليها ضريبة عقارية ، أو ساكنا فى منزل لا يقل ايجاره السنوى عن ١٢ جنيها ، أو حائزا على شهادة دراسية ابتدائية أو شهادة تماثلها ·

وكان الهدف من كل هذه الشروط التعسفية هو العمل على استحالة عودة الوفد الى الحكم ، وحرمان جماهيره العريضة فى الاقاليم ، وهم فقراء العمال والفلاحين ، المهنيون والطلاب ، من حق التصويت ، على أمل أن تسفر عملية الانتخاب عن تشكيل مجلس نيابى « مستأنس » لا يملك من سلطات الحكم سوى البصم والدعاء لولى النعم بطول العمر ·

وكان من الطبيعى أن يفكر صدقي فى تشكيل حزب (ملاكى) انسياقا وراء الموضة الدستورية السائدة · وقرر بالفعل انشاء حزب جديد أسماه حزب (الشعب) ·· !! ولم يخجل الرجل من

آن يصدر اوامره الى المديرين لحشد عمد القرى وارغامهم عـلى عضوية الحزب ودفع الاشتراك قسرا .. وأوجب على أعوان الحزب من طلاب الحاجات والمصالح أن يحرروا كشوفا بأسماء الاشخاص الذين يتوسمون فيهم استعدادا للعضوية مقابل منافع شخصية تتحقق لهم فور ملئهم استمارة العضوية . وكان رجـل الادارة النشيط الذى يستحق الرضا والترقية ، هو الذى يستطيع حشد أكبر عدد من الأعضاء الانتهـازيين ولكى يكون للحزب الجـديد جهاز كامل منبث فى جميع أنحاء القطر ، صدرت الأوامر بتأليف لجان لحزب الشـعب فى كل مركز من المراكز على غرار لجان الوفد .

وازاء هذا العبث بالحياة النيابية هب الوفد لمقاومة صدقى والملك ودستورهما . وانقاذ النظام البرلمانى من الخطر الداهم .

مهزلة انتخابية

كان اسماعيل صدقي باشا من أشـــــد الحكام مقتا لشيء اسمه سلطة الشعب ، ومن هنا كان بغضه للنظام البرلماني وتحقيره للمبادىء الديمقراطية التى تعطى للشعب حق المشاركة فى الحكم عن طريق المجالس النيابية ، وكان معروفا عنه الاستهتار بالشعب والاستهزاء بقدرته على اختيار ممثليه . فقد كان يعتقد أن عبقريته الفردية تفوق مجموع الكفاءات التى يختارها الشعب ، ومنذ بدأت المرحلة الدستورية فى مصر عام ١٩٢٤ ، وهو يتربص بالدستور وبالبرلمان وبالحياة النيابية وينتهز الفرصة للانقضاض عليهـــا جميعا . وفى عام ١٩٣٠ جاء به الملك فؤاد الى الحكم ليهدم المعبد على رؤوس أصحابه ، فألغى دستور ١٩٢٣ وفصل دستورا جديدا ينقص من حقوق الشعب ويركز السلطات فى يد السلطة التنفيذية التى يمثلها الملك وكبير وزرائه .

وأدرك الوفد — وهو فى المعارضة — مخاطر هـــذه المؤامرة الرجعية التى تعنى عودة البلاد الى الحكم المطلق ، ورأى ان الدفاع عن الحقوق الديمقراطية يتطلب اشراك الجماهير فى المعركة وتكتيل صفوف المعارضة فى جبهة واحـــدة . واســـتجاب الاحـــرار

الدستوريون – أكبر الاحزاب بعد الوفد – لنداء المقاومة ، بينما رفض الحزب الوطني – حزب مصطفى كامل – المشاركة فى جبهة المعارضة وانحاز الى جانب القصر والحكومة فى مؤامرة اجهاض النظام الدستورى • واغتبط صدقى باشا بقرار الحزب الوطنى • وزعم أن نظامه اذا كان يلقى معارضة حزبين (!!) فانه يحظى بتأييد ثلاثة أحزاب هى : الحزب الوطنى وحزب الاتحاد (حزب الملك فؤاد) وحزب (الشعب) الذى اصطنعه صدقى ليخوض به معركة الانتخابات على أساس دستوره الرجعى •

●●●

وبدأت المعارضة الوطنية تستعد للمعركة الفاصلة بكل ما أوتيت من قوة غير هيابة من قوى البطش التى أعدها صدقى ، واصدرت جبهة المعارضة ميثاقا قوميا اسمته (عهد الله والوطن) اعلنت فيه عزم الامة على مقاطعة انتخابات صدقى والعمل على اعادة النظام الدستورى ، واعلن الوفد والاحرار ، أنهم يقفون بكل قوة واخلاص فى وجه الدستور الذى تحاول الحكومة بكل وسائل الارهاب ان تفرضه على البلاد مزدرية كل عدل أو قانون ، ويكررون انهم متفقون على مقاطعة الانتخابات التى تجرى فى ظل هذا الدستور مقاطعة لا رجعة فيها ، وأنهم يرون مقاطعتها فرضا على كل مصرى مخلص لبلاده ، ولا يرضون ان يكون لمصر نظام للحكم غير ما ارتضته بدستور ١٩٢٣ ، وهم فى موقفهم هذا صادرون عن رأى الامة ، واثقون بتأييدها لهم ، ليعود هذا النظام كاملا غير منقوص ، وليعود الحكم النيابى بكل تقاليده الصحيحة ، حتى يتمتع المصريون جميعا بنعمة الدستور وما يكفله للجميع من حرية وعدالة ومساواة •

وصدر الميثاق حاملا توقيع أقطاب الحزبين يتقدمهم مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد ، ومحمد محمود باشا رئيس الاحرار الدستوريين ، وكان لهذا الميثاق وقع الصاعقة على النظام بالرغم مما كانت تشيعه الحكومة عن قوتها ، وحظر صدقى على الصحف نشر الميثاق ، وصودرت الصحف التى همت بنشره ، ومع ذلك فقد أخذ البيان طريقه الى الجماهير ، فلقى التأييد التام من كل المنظمات والهيئات والنقابات المهنية والعمالية والاعيان والتجار ، وبدا واضحا ان الرأى العام المصرى يساند المعارضة فى معركتها المقدسة ضد الطغيان والرجعية • ودفع هذا التأييد جبهة المعارضة الى مزيد من الحركة لتنسيق كفاحها ، وشكلت لجنة اتصال من الوفد والاحرار لتنظيم حركة الجماهير ، وهنا طرأت **فكرة نقل المعركة من مجال الخطب وكتابة المقالات الى الشارع ،** حتى تتحمل الجماهير مسئوليتها فى الدفاع عن حقوقها التى يتربص بها المستبدون ، وكان هذا تطورا خطيرا اعاد الى الاذهان ذكرى الانتفاضة الجماهيرية اثناء ثورة ١٩١٩ ، وما كشفت عنه من وعى وطنى تمثل فى مقاطعة « لجنة ملنر » ثم مقاطعة البضائع والمنتجات البريطانية •

ويروى الدكتور هيكل باشا فى مذكراته قصة هذا التطور الدرامى فى حركة المعارضة حين وجدت ان دعوة الشعب للمقاومة والتضحية لا يمكن ان تثمر ثمرة ما ، اذا لم يتقدم الزعماء صفوف الشعب فى هذه المقاومة ، ولم يتعرضوا تعرض الشعب للتضحية•• أما ان اقتصرت الدعوة على عبارات تنشر فى الصحف ـ بالغة ما بلغت قوتها وصدق تعبيرها عما يعانيه الشعب فى حريته وفى حقوق وطنه ـ فلن يكون من آثرها الا أن تثير اعجاب المثقفين ببلاغة اسلوبها وقوة عبارتها ، لكنها لا تحرك الشعب الى عمل ايجابى عنيف منتج •

وتقدم الزعماء الصفوف ·· وجرت سلسلة من الصـــدامات الدامية بين الجماهير والسلطة فى المدن التى زارها زعماء المعارضة، وتساقط القتلى والجرحى بالعشرات ، دون ان يؤثر ذلك فى اصرار صدقى باشا على تنفيذ خطته بالحديد والنار ، وسيطرت على روحه نزعة العناد ، فلم يتراجع عن المضى فى اجراء مهزلة الانتخابات·· وطلبت جبهة المعارضة من العمد والمشايخ أن يستقيلوا من وظائفهم احتجاجا على تعسف الحكومة ، فانهالت الاستقالات حتى بلغت فى مجموعها حوالى ٤٠٠ استقالة ، تصدى لها صدقى ليحافظ على هيبة جهاز الادارة الذى سيدير المهزلة الانتخابية ، وبعث الى القرى التى اســـتقال عمدها ومشايخها بحشـــود من رجال البوليس والادارة لارغام العمد على سحب استقالاتهم ، ولكنهم اصروا على موقفهم ، فأمر صدقى بتقديمهم الى المحاكمة بتهمة الاخلال بالواجب وعوقبوا بالغرامات الفادحة ·

وفى يوم الانتخـــابات ضرب الشعب المصرى أروع أمثلة الكفاح من أجـل الديمقراطية ، وقاطعت الأمـة انتخابات صـدقى مقاطعة تامة ، حتى اقفرت الشوارع الكبرى بالعاصمة ، وذكرت السيدة فاطمة اليوسف انها كانت تطوف على دوائر الانتخابات فتراها خاوية ، والحوانيت القريبة منها مغلقة ، ووصف الرافعى حركة المقاطعة بانها كانت رائعة ، ولا تقل فى روعتها واتســـاع مداها عن مقاطعة الامة للجنة ملنر عام ١٩١٩ ، بل ان تضحيات البلاد من القتلى والجرحى فى هذه الانتخابات كانت أعظم واكبر، ففى يوم الانتخابات دخل العمال المعركة ، فأضرب رجال عنـابر بولاق والورش الاميرية ، وتظاهروا احتجاجا على المهزلة الانتخابية، وقامت مظاهرات أخرى فى المدن وتصدت قوات الحكومة لهـــا بالعنف الشديد ، حتى بلغ مجموع القتلى فى ذلك اليوم المشئوم مائة قتيل و ١٧٥ جريحا ·

ومع ذلك لم يخجل اسماعيل صدقى باشا من آن يصدر فى ختام هذه المهزلة بيانا أعلن فيــه أن الانتخابات تمت فى هــدوء وسكينة (!!) وان الامة اشتركت فيها بأكثر مما اشتركت فى أى انتخابات سابقة ، وأن نسبة الذين أدلوا باصواتهم تزيد على ٦٧٪ من مجموع الناخبين ، وكان الناس يقرأون هذه التصريحات الكاذبة فيضحكون ، ويسخرون من صاحبها .. ويضربون كفا بكف .. ويقولون ان الذين اختشوا قد ماتوا ..

اجرام فى اجرام

كانت وزارة اسماعيل صدقى باشا (من ١٩ يونيه ١٩٣٠ الى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣) نكبة على الوطن من كل ناحية ، كانت نكبة سياسية واجتماعية واخلاقية لأن الحكومة اباحت لنفسها سلطة انتهاك القيم والقوانين والعبث بالحريات الأساسية التى كفلتها الشرائع والدساتير ، لقد ظن صدقى بعد أن ألغى الدستور وطبخ الانتخابات أنه أصبح سيد الموقف • وان المسرح قد خلا له ، فركب اعلى خيوله واخذ يصول ويجول غير عابىء بسلطة الشعب ، واطلق يد الادارة للبطش بخصومه ، وكانت جرائم الضرب والتعذيب والتلفيق والفصل تجرى جهارا نهارا ، وتحولت الادارة الى أداة انتقام من خصوم الحكومة ، حتى وقر فى اذهان الحكام الاداريين ان هذه هى مهمتهم الاساسية ، وان هذه الوسيلة الممقوتة هى السبيل الى الترقى واعتلائهم المناصب الممتازة •

وبلغت حكومة صدقى أدنى مستوياتها الأخلاقية عندما حالت بين القضاء وممارسة سلطاته فى وقف هذا الطوفان المدمر ، وجرأت الحكومة اعوانها من رجال الادارة على الاستهانة بسلطة القضاء ، مثلما حدث فى المنيا عندما كان وكيل النائب العام يحقق

في شكوى قدمها بعض الاهالى ضد رجال الادارة ، فمنعه مـــأمور ضبط المديرية من الاستمرار فى التحقيق ، وحال بينه وبين سؤال الاشخاص المطلوب استجوابهم ، واثار هذا الافتئات الصارخ عـلى السلطة القضائية ضجة كبيرة داخل حصن العدالة بلغت ذروتهـا فى حادث البدارى عندما قام مأمور مركز البدارى بتعذيب بعض بعض الاهالى مما دعا اثنين منهم الى قتله فى مارس ١٩٣٢ ، فلمـا حوكما امام محكمة جنايات اسيوط حكمت بالاعـــدام على الاول ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على الثاني ، ولكنهما طعنا فى الحـــكم أمام محكمة النقض والابرام ، وجاء حـــكم هذه المحكمة برئاســـة عبد العزيز فهمى باشا وثيقة ادانة لجهاز الادارة ، واثبتت المحكمة فى حكمها التاريخى ان رجال البوليس اتوا من المنكرات ما وصفته المحكمة بأنه (اجرام فى اجرام) ، وان من وقائعها ما هو جناية هتك عرض يعاقب عليها القانون بالاشغال الشاقة ، وأنها من اشـــد المخازى اثارة للنفس واهتياجا لها ودفعا بها الى الانتقام ، ورأت أن ما جعلته محكمة الجنايات موجبا لاســـتعمال الرأفة ، ومع ان محكمة النقض رفضت الطعن لانهـــا لا تملك ـ قانـونا ـ تخفيف العقوبة ، الا أنها لفتت فى حكمها نظر ولاة الأمور الى وجوب تدارك هذا الخطأ القضائى .

واثار حكم محكمة النقض والابرام ردود فعـــل عنيفة فى الاوساط القضائية فاضطرت وزارة العدل الى وقف تنفيذ حـــكم الاعدام على المتهم الاول ، واتخذت الاجراءات القانونيـــة لتخفيف الحكم الى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وتخفيف الحكم على المتهم الثانى من الاشغال الشاقة المؤبدة الى الاشغال الشاقة لمدة ١٥ ســـنة ، وأمرت الوزارة بالتحقيق فى حوادث التعذيب التى اشارت اليهـا محكمة النقض ، وفى حوادث تعذيب أخرى وقعت من رجال البوليس والادارة فى بلاد اخرى ، وقطعت النيابة فى تحقيقها شوطا بعيدا

ثبت فيه ادانة بعض رجال البوليس ، وانتهت التحقيقات بعد زوال حكم صدقى ، وصدرت الأحكام على من ثبتت عليه تهمة التعذيب ، فحكم على ضابط برتبة ملازم بالحبس مع الشغل لمدة سنة ، وعلى ملازم آخر بالحبس سنتين ، وعلى كونستابل بالحبس شهرين ، وحوكم الجندى الذى قتل احد الناخبين فى حلوان فحكم عليه بالاشغال الشاقة ١٥ سنة ٠

وكان من الطبيعى ان تؤدى هذه الفضائح الى زعزعة اركان حكومة صدقى التى قامت على البطش والتنكيل بالخصوم ، وقدم كل من على ماهر باشا وزير المعارف وعبد الفتاح يحيى باشا وزير الحقانية (العدل) استقالته من الوزارة لما وجدوا من رئيس الحكومة عزما على عرقلة التحقيق فى حوادث الاعتداء على حريات المواطنين ، ولتطويق هذه الحركة الاحتجاجية قدم صدقى باشا استقالة وزارته الى الملك فؤاد فى ٤ يناير ١٩٢٣ ، ولكن الملك عهد اليه باعادة تشكيل الوزارة بعد استبعاد هذين الوزيرين وكان تمسك الملك فؤاد باسماعيل صدقى دلالة على اصرار القصر على الاستمرار فى سياسة قمع الشعب ٠

وأدرك رجال الادارة والبوليس بعد هذا التشكيل انهم مؤيدون من السراى والحكومة ، وان معناه هو تشجيع نزعة البطش والعسف فى تصرفاتهم ، واطلاق يدهم فى التنكيل بالاهلين ، غير مراعين حرمة للعدل والقوانين ، فتمادوا فى خطتهم مطمئنين الى أن الوزارة تحميهم وتسندهم ، وان السراى ساكنة عن هذا النوع من الطغيان، ولا تعترض على هذا البغى والعدوان ، وقد وقع فى بلدة (الحصاينة) مركز السنبلاوين حادث تنكيل جديد يوم ١١ فبراير ١٩٣٣ دل على تغلغل هذه الروح فى نفوس الموظفين الاداريين مما كان له وقع أليم فى النفوس ٠

ويتلخص حادث الحصاينة فى ان الادارة عطلت وابور طحين يملكه الشيخ طلبة صقر من أعيان الوفد فى هذه الجهة ، وقام لذلك نزاع بينه وبين الادارة رفع أمره الى القضاء اذ اقيمت عليه دعوى مخالفة امام محكمة السنبلاوين ٠

وفى يوم نظر القضية هبطت على القرية قوة من رجال البوليس والادارة للتفتيش على الوابور فاعترضها بعض أقارب صاحب الوابور طالبين بقاء الحال على ما هو عليه الى أن يفصل القضاء فى دعوى المخالفة ، ولم يقتنع رجال الادارة بهذا المنطق مما كان سببا فى قيام مشاحنة بين الفريقين ، وعندئذ أمر مأمور المركز رجاله باطلاق النار على الأهالى فقتل منهم ثلاثة ، أحدهم شفيق الشيخ طلبة صقر ، كما قتل اثنان من جنود الشرطة ، وجرح عدد كبير من الاهالى ، واستولى الذعر على الباقين ولم يقف عسف الادارة عند هذا الحد فارسلت الداخلية تجريدة من ٤٠٠ جندى حاصرت البلدة وقبضت على كثير من اهلها وزجت بهم فى السجون الى ان افرجت عنهم النيابة ، والمدهش فى الامر ان قضية المخالفة التى نسبتها الادارة الى الشيخ طلبة صقر حكم فيها ببراءته ، واثبتت المحكمة فى حكمها ان الادارة تجاوزت سلطتها بالأمر الذى اصدرته بالغاء رخصة الماكينة واقفال الوابور ٠ وان هذا الأمر الادارى باطل ٠

●●●

تلك كانت وزارة اسماعيل صدقى التى وصفها المؤرخ الرافعى بانها كانت توهم الناس بانها ألغت الدستور واهدرت ارادة الامة وزيفت الانتخابات لكى تصل الى اصلاح اداة الحكم فى البلاد ، ومن سخرية الاقدار ان الحوادث اثبتت ان اداة الحكم قد زادت فسادا فى عهدها ، بحيث لم يبق مسوغ للانقلاب الذى تم على يديها ، وثبت بالبراهين العملية أن الحكومة التى فرضت على

الشعب فرضا كانت من غير شك أسوأ من أى حكومة اختارها بمحض ارادته ، فقد اعتاد الموظفون فى عهد صدقى التلفيق والتزوير في الأوراق الرسمية ، وكانت عملية الانتخابات التى اصطنعها مزورة من أولها الى آخرها ، فألف الموظفون الاداريون التزوير وفساد الضمير ، واعتاد رجال البوليس والجيش التنكيل بكل معارض للحكومة دون مراعاة للعدل والقانون ، وأبيح لهم القتل وسفك الدماء فى هذا السبيل ٠

ومن ناحية أخرى جعلت الوزارةمن بنك التسليف الزراعي أداة لمساعدة أنصارها ٠ واستغلت الأزمة المالية لتمييزهم فى التسويات والسلف العقارية ، ، والضغط على خصومها السياسيين ومحاربتهم بسلاح المطالبات المالية لكى تضطرهم تحت تأثير الخوف من الفقر والفضيحة ، الى الخضوع لسياستها والانفصال عن المعارضة ، فكان فى ذلك افساد للأخلاق والضمائر وتعقبت الوزارة خصومها السياسيين فى أرزاقهم لكى تضطرهم الى الذل والاستكانة والانضمام الى صفها ، ولم تتورع فى هذا الصدد عن اقفال المحالج والمصانع لأسباب ملفقة للتنكيل باصحابها وجعلهم عبرة لغيرهم ، وقد استسلم بعض الأعيان لهذا السلاح الفتاك ، وصمد له آخرون فبرهنوا على صلابة فى العقيدة ومتانة في الأخلاق مما يحتاج اليه المجتمع فى بلادنا ٠

الملك الغلام

مات الملك فؤاد في ٢٨ ابريل ١٩٣٦ بينما كان ابنه ووريث عرشه الغلام (فاروق) يتلقى العلم في انجلترا ، وأثارت وفاة الأب في غيبة الابن كوامن الشجن في نفوس المصريين الطيبين الذين يهتمون كثيرا بهذه الاعتبارات الانسانية ، فلما عاد الغلام (اليتيم) بعد أسبوع من وفاة أبيه ، خرجت الجماهير تستقبله بالبشر والحبور ، وتتغنى باسمه في الأهازيج والمواويل ، كان فاروق وقتئذ صبيا تجاوز السادسة عشرة بقليل ، يتفجر حيوية وتنبيء ملامحه الوسيمة عن براءة وطهر ، فتوسم الشعب فيه خيرا مأمولا ، وتمنى أن يرى فيه نموذجا مختلفا عن أبيه المستبد الغشوم الذى طالما ضاق بالدستور وما يتضمنه من حقوق للشعب، وتفنن في تدبير الانقلابات الدستورية كى لا يتاح للمصريين فرصة الانفراد بحكم أنفسهم .

ولكن الغلام الذى دخل قلوب الناس فى صورة ملاك طاهر ، سرعان ما تحول الى شيطان رجيم ، وما هى الا عشية وضحاها حتى أدار عجلة الدسائس الجهنمية التى خلفها له أبوه فى عابدين ،

فلم تمض بضعة شـهور حتى أقال وزارة مصطفى النحاس التى كانت فى الحكم منذ منتصف عام ١٩٣٦ بمقتضى أغلبية شـعبية ساحقة ، وتمكنت خلال فترة الوصـاية من ابرام المعاهدة التى قصقصت أجنحة الاحتلال البريطانى وحددت له مدة لا تزيد على عشرين عاما ، ثم توجت جهـادها بالغاء الامتيازات الأجنبية التى كانت وصمة عار فى جبين كل مصرى ، وجعلت منه مواطنـا من الدرجة الثالثة فى قلب بلده ٠

لقد عاد الصبى من الخارج ليجد فى داخل القصر اخطبوطا متربصا بالدستور وبالوفد وبالحياة البرلمانية ، ولا يرى الخلاص الا فى هدم معبد الديمقراطية كى ينفرد القصر بحـكم البلاد عن طريق أحزاب أقلية لا تسـتند الى التأييـد الشعبى ، أو عناصر أوتوقراطية لا تعترف بحقوق الشعب وانما تؤمن بسلطة العرش ، والتفت هذه الخلايا السرطانية حول الملك الغلام واستصدرت منه فى اليوم الأخير من ديسمبر ١٩٣٧ مرسـوما باقالة حكومة النحاس ٠

وكان أول انقلاب دستورى فى عهد فاروق ٠٠

وقوبل الانقلاب بصمت مريب من جانب الجماهير ٠٠!!

لم تقم مظاهرة واحدة تحتج على هذه الجريمة التى اقترفها الملك الغلام فى حق الشعب الذى اختار حكومة النحاس عن طريق أغلبية برلمانية ساحقة ٠٠ ولم يرتفع صـوت يحذر الملك المخدوع من مغبة الطريق الذى سار فيه ٠٠ !!

كانت الجماهير المصرية فى ذلك الوقت واقعة تحت تأثير عملية غسيل مخ تسعى الى اظهار فاروق فى صورة شعبية محببة ، وأخذت الصحف الناطقة بلسان القصر وأحزاب الأقليـة تنسج

قصصا ملفقة حول عبقرية فاروق وذكائه الخارق وانسانيته المفرطة وشعبيته الساحقة ، وبدأ الناس يسمعون عن الجمل الذى هرب من المذبح فلجأ الى قصر عابدين لائذا بحمى الفاروق ! ثم تطورت عملية الاختلاق والفبركة فجعلت من الصبى المجهول عالما متخصصا فى كل فروع العلم والاقتصاد والفن والأدب ، وتتحدث عن علمه الذى أذهل العلماء ، وورعه الذى أدهش الفقهاء ، وثقافته التى تفوقت على ثقافة العقاد وطه حسين ولطفى السيد وكان يقود هذه الحملة الدعائية الصحفى اللبنانى الأصل كريم ثابت الذى حذق هذا النوع من تلفيق القصص ونسج الأساطير ، وكان له فضل ادخاله الى الصحافة المصرية ، مما هيأ له مكانا مرموقا داخل القصر ، وأصبح من أشد المقربين الى فاروق .

وكان الوفد يرقب هذه الخطة الاعلامية المدبرة بقلق ، وكان يدرك أن الهدف منها رسم صورة مزيفة لفاروق وجعله بطلا قوميا وزعيما شعبيا ، ليسرق الزعامة الحقة من صاحبها مصطفى النحاس الذى كان يتربع على عرش الزعامة الشعبية بلا منازع ، كانت هناك عملية تزييف علنية تمارسها جوقة القصر لخداع الشعب حتى يكفر بالزعامة الوطنية ويلتف حول منارة الفاروق ، دون أن يدركوا أبعاد هذه الجريمة التى أساءت الى النظام الديمقراطى ، وشوهته فى نظر الجماهير ، وقدمت اليه البديل الزائف الذى سرعان ماكشف عن حقيقته ، فتحول الى دكتاتور يعصف بالقيم والقوانين والأخلاق والتقاليد والآداب ، ثم انتهى به المصير الى اغراق نفسه فى مستنقع الانحلال و الفجور .. فأضاع نفسه .. وأضاع ملكه ..

ولا يختلف المؤرخون على أن فاروق كان فاسدا .. وجاهلا .. ومغرورا .. وأن فساده هو الذى عجل به ، ولكن هل كان

له مسالك الفساد ..؟

ان المعلومات التى توافرت عن طفولة فاروق تؤكد أنه عانى تعسف أبيه وجبروته وغلظته في معاملة زوجتـه الملكة نازلى على مرأى من ابنها الطفل ، فشب فاروق على كراهية أبيه لدرجة أنه تلقى نبأ وفاته وهو فى لندن باستخفاف شديد ، ولم يكلف نفسه النزول عن الحصان الذى كان يمتطيه حين سماعه النبأ ، ومضى فى مشواره العادى وكأن شيئا لم يقع ، وهو تصرف يكشف عن شذوذ فى عواطفه ، وخلل فى تكوينـــه النفسى ، بل نفهم من شهادة أحمد مرتضى المراغى باشا ــ آخر وزراء الداخلية فى العهد الملكى ــ ان فاروق كان مختل العقل ، ليس على سبيل المجاز ولكن على وجه التحقيق ، وتكتسب هذهالشهادة قيمتها اذا عرفنا أن مصدرها احدى شقيقات فاروق ــ وهى الأميرة فايزة ــ التى أفضت بهذه المعلومات فى اطار حديث طويل مع المراغى عن فساد أخيها الذى فاق كل حد مما يهدد « بالخراب الشامل للبلد والخراب لنا جميعا » وأكدت فايزة فى حديثها أن أخاها غير طبيعى ، وأنها تعلم ذلك جيدا .. وكذلك أمها نازلى .. وأن تصرفاته الخاصـة نحو أمهما وعائلته تدل على أنه « مختل العقل » .. وكررت فايزة هذه العبارة مرتين .

واذا صح أن فاروق كان مختل العقل ــ حقيقة لا مجازا ــ فان القصة التى يرويها المراغى فى كتابه (غرائب من عهد فاروق) يمكن أن تلقى الضوء على تاريخ هذا المرض العقلى الذى أصـــاب فاروق وهو فى سن التاسـعة عندما أصيب بالحمى الشوكيـــة النخاعية وأشرف على الهلاك فاستدعى الملك فؤاد طبيبا ايطاليـا شهيرا تولى علاجه حتى شفى ، ولكن الطبيب قبل أن يغادر مصر

أفضى الى الملك فؤاد بسر خطير هو ان اصابة ولى العهد كانت من الشدة بحيث تركت أثرا على خلايا المخ .. !! وعندما سأله الملك منزعجا : هل معنى ذلك أن قواه العقلية قد تصبح غير مكتملة ؟ أجاب الطبيب فى لهجة مخففة بأن الأمر ربما لايصل الى هذا الحد اذا لم تحصل مضاعفات ، ولذلك فهو ينصح بوضع الأمير تحت عناية مركزة ولفترة طويلة .

وفى لحظة من لحظات الضعف الانسانى حكى الملك فؤاد هذه القصة لناظر خاصته زكى الابراشى باشا ، وكان فؤاد يعبر عن نكبته في ولى عهده اذا ترك المرض أثرا على قواه العقلية ، وعندما حاول الابراشى أن يخفف عن ولى النعم أحزانه وينصح باحاطة ولى العهد بحاشية عاقلة ومخلصة ، أجابه الملك ساخرا :

ـ حاشية عاقلة ومخلصة يا زكى ..!! ان الحاشية لو كانت عاقلة فلن تكون مخلصة .. ولو كانت مخلصة فهى ليست عاقلة .. وقصارى ما تصل اليه أن تكون منافقة ..!!

جناية أم

دب الفساد فى أخلاق فاروق منذ الفترة المبكرة من حياته ، وجاءت وفاة أبيه ــ وفاروق فى سن المراهقة ــ فهيأت له سبل الانحراف ، فقد غاب الشخص الوحيد القادر على كبح جماحه وتأديبه بالعصا اذا أخطأ • والمعروف عن الملك فؤاد أنه كان صارما حازما في ادارة شئونه العائلية ، وكان شديد الوطأة على زوجته الحسناء ، نازلى ، التى تزوجته مكرهة ، وعاشت فى عصمته كالأسيرة فى القفص ، فما أن غاب القط حتى عاثت الفيران فى أنحاء القصر فسادا ، وانطلقت الأرملة الشابة ، وابنها المراهق ــ كل فى طريق ــ لينغمسا فى حياة الليل واللهو والمجون •

والسياسيون الذين رصدوا تطورات حياة فاروق •• يضعون مسئولية فساده على رقبة أحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى ، ورجل القصر القوى الذى تلقف فاروق وهو لم يزل غضنا طريا ، وأشرف على تربيته سياسيا وأدبيا ، وظل المهيمن على شؤونه حتى اللحظة الأخيرة من حياته عندما لقى مصرعه فوق كوبرى قصر النيل ذات يوم مطير من فبراير ١٩٤٦ ، فقد انزلقت

سيارة لورى ضخمة تابعة للجيش البريطاني وصدمت سيارة حسنين من الخلف صدمة شديدة أودت بحياته .

وكان أحمد حسنين ينتمي الى أسرة عادية تعيش في بولاق ، وكان أبوه عالما أزهريا ولكنه كان متقد الفكر فأوفد ابنه لتلقى تعليمه الجامعي في اكسفورد وبعد عودته عمل مفتشا بوزارة الداخلية ابان الحرب العالمية الأولى ، ثم انتقل الى السلك الدبلوماسي الى أن ضمه الملك فؤاد الى حاشيته وظل يتدرج في مناصب القصر في سرعة أذهلت أقرانه وحساده ، وأصبح حسنين أحد المع نجوم المجتمع المصرى بفضل ما كان يتمتع به من ذكاء اجتماعي وكياسة وقدرة على كسب الأصدقاء ، وبسبب بعض الأعمال التي قام بها وأكسبته شهرة كبيرة ، فقد كان أول مصرى يقود طائرته الخاصة بمفرده من اوربا الى مصر ، فسقطت به مرتين في فرنسا وايطاليا ولكنه نجا من الموت في المرتين ، كما كان أحد أبطال الشيش (المبارزة بالسيف) وحقق انتصارات على أبطال هذه اللعبة في أوربا ثم ذاع صيته عالميا بعد المغامرة الجريئة التى جاب خلالها الصحراء الغربية وتمكن من اكتشاف بعض الواحات التى كانت مجهولة عند علماء الجغرافيا ، وعندما بعث الملك فؤاد بابنه وولى عهده الأمير فاروق ليتعلم في انجلترا ، انتدب له رائدين يتوليان الاشراف عليه هناك ، أما أولهما فكان عسكريا يتسم بالصرامة والشدة وهو اللواء عزيز المصرى باشا ، وكان الثانى أمين الملك أحمد حسنين الذى استطاع بلباقته وكياسته أن يكسب ثقة فاروق ويصبح أشد الناس تأثيرا فى أخلاقه وسلوكه ، ومن هذه الناحية تشير أصابع الاتهام الى أحمد حسنين على أنه المسئول الأول عن أخلاق فاروق التى تسرب اليها العطب مبكرا ، فيقول أحمد مرتضى المراغى ان حسنين كان يعمل على ارضاء نزواته

أكثر من حرصه على تزويده بالمعرفة ، بل يمضى الى أبعد من ذلك فيقول ان حسنين كان يترقب نوم عزيز المصرى مبكرا فيتسلل مع فاروق من نافذة الفيلا ويفران الى المراقص ودور اللهو ويعودان مع الفجر قبل أن يصحو عزيز المصرى ·

ولكن الصورة التى يرسمها الصحفى الكبير محمد التابعي عن شخصية أحمد حسنين وعلاقته بفاروق تناقض الصورة المشينة التى رسمها المراغي له ، يقول : التابعي ان الخطة التى وضعها أحمد حسنين لنفسه هى أن يكون قائد الملك ·· لا قواده ·· وأن يكون الرجل القوى الذى يوجه الملك ويرشده ويسيطر عليه ـ عن طريق أمه الملكة نازلى ـ لا الرجل الذليل الرخيص الذى يشترك فى « توريد البضاعة أو المتعة الصحية » للملك الشاب ، ولالقاء مزيد من الضوء على العبارة الأخيرة يروى التابعى ـ على لسان أحمد حسنين ـ القصة التالية :

ـ عقب وفاة الملك فؤاد وعودتنا من لندن اتصلت بى سيدات كثيرات من هوانم المجتمع ، وتحدثن الى فى لباقة ودبلوماسية رفيعة عن الملك ·· الشاب الممتلئة عروقه بدم الشباب الحار ·· وعن صحته وما تتطلبه هذه الصحة الغالية ، وتحدثن كذلك عن السن الحرجة ـ سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة ـ وعن المتعة الصحية التى لابد منها لشاب موفور الصحة مثل « مولانا الملك » وعرضنّ بكل لباقة ورقة وكياسة ـ وبكل أمانة وحرص وحذر ـ عرضن خدماتهن على جلالة الملك ، وأبدين استعدادهن لأن يقدمن « البضاعة الصحية » لجلالته ·· ويستطرد حسنين فى روايته بأنه كان يقول لهؤلاء الهوانم ان « مولانا الملك » لن يرضى ولن يوافق اذا عرف ان له دخلا فى الموضوع أو أنه مطلع

على أسراره « الصحية » وان الأفضــــل والحالة هذه ان يحاولن الاتصال بجلالته من طريق آخر غير طريق معلمه ومرشده ٠

ومعنى ذلك أن معلم الملك والمشرف على تربيتــــه لم يكن يمانع فى انغماس الملك الشاب فى الرذيلة ، بشرط أن يتم كل شىء من وراء ظهره ، منعا للحرج ، ولكى يظـــل محتفظـا بقشرة الاحترام التى بقيت فى نفس التلميذ نحو أسـتاذه ، بل يعترف حسنين بأنه كان يرى ويسمع ويراقب ثم يتظاهر أمام فاروق بانه لايرى ولا يسمع ولايعرف شيئا عن مغامرات صاحب الجلالة ٠٠!!

وفى الوقت الذى كان فيه جلالته منســــاقا فى مغامراته « الصحية » كانت أمه الأرملة الحسناء تحارب فى جبهة أخرى غايتها تعويض سنوات الكبت التى عاشتها فى كنف زوجهـــا الغيور ٠٠ فلم تمض أسابيع قليلة على وفاته حتى كثر الهمس بين موظفى القصر وفى الأوسـاط المتصلة به ، أن « السجينة » قد حطمت قيودها ، وانطلقت ــ وهى لاتزال فى ثياب الحداد ــ تمرح وتحاول ان تعوض مافاتها وتنهل من عيون الحياة ، ووجدت نازلى فى شخصية أحمد حسنين الفارس المنشود الذى يحملها على صهوة جواده وينطلق بها الى عالم المتعة والخيال قبـــل أن يطويها كهف الشيخوخة البارد المظلم ، ولكن مأساة نازلى ازدادت تعقيدا حين اكتشفت أن فارس أحلامها راغب عنها ٠٠ زاهد فيهـــا ٠٠ ولا يريد أن يطاوعهـــا فى نزواتهـــا ٠٠ ونسيت نازلى فى غمرة عواطفها المتأججة انها وقعت فى حبائل ســـياسى داهيــة يضع طموحاته وأطماعه السياسية فوق عواطفه ، كان حسنين ــ الذى ضبطه صديقه حفنى محمود وهما تلميذان بالثانوى يقرأ كتـــاب « الأمير » لميكيافيلى ــ يريد أن يحكم مصر ، وكانت خطته كمـــا شرحها صديقه محمـــد التابعى تتلخص فى أن الذى يسيطر على

نازلى يستطيع أن يسيطر على الملك فاروق ومن ثم ينفسح أمامه الطريق الى رئاسة الوزارة ، ولم يكن حسنين من البلاهة بحيث ينساق وراء رغبات الأرملة المتصابية فيحرق نفسه بسرعة ، ويحطم نفوذه المستقر فى نفس ابنها ، وانما كان من الدهاء ، الذى بلغ حد القسوة ، بحيث دفع ملكة مصر وأم ملك مصر الى أن تركع عند قدميه مستعطفة متوسلة ، وهو يصم أذنيه عن صرخاتها التى دوت فى أنحاء القصر حتى بلغت مسامع ابنها الذى كان ـ حتى ذلك الوقت يحبها ـ ويحترمها ويخشاها ويضعها فى مرتبة التقديس والاجـلال ٠٠!! لقد تدلهت ملكة مصر وتهتكت فى حب حسنين ولم تخجل من أن تعلن أمام موظفى القصر أنها عاشقة ملهوفة على أحمد حسنين ٠٠!

بل ولم تخجل من ان تصارحه هو ـ ابنها الملك ـ بانها تحب موظف القصر أحمد حسنين ٠٠ وانها قدمت نفسها وجسمها ٠٠ ولكنه يرفض ٠٠ ثم تصرخ وتصيح انها من لحم ودم ٠٠ وتطلب من ابنها أن يزوجها من حسنين ٠!!

ويختتم التابعى هذا المشهد الدرامى بقوله : كانت الصدمة النفسية قاسية عنيفة على فاروق الذى كان يومئذ فى الثامنة عشرة من عمره ٠٠ وتهاوت المثل العليا التى كان يراها فى أمه ـ صاحبة الجلالة ـ تهاوت وتحطمت تحت قدميـه ٠٠ ودخلت المرارة فى نفس الفتى ٠٠ ومع المرارة والسخرية والاستهتار بالمثل العليا ـ وأين هى ـ ؟ وبالمبادىء والقيم والأخلاق ٠٠ بكل ما فى هذه الدنيا من نبل وعلاء ٠٠

وانطلق فاروق يسخر ويهزأ بكل شىء ٠٠ ويدوس بقدمه كل مقدسات هذا البلد ٠٠ ويتحول من ملك محبوب مأمول ٠٠ الى طاغية وفاجر ومستهتر ٠

الحفلة الريفية

حدث أول صدام بين حكومة الوفد والملك فاروق قبل أن يجلس فاروق على العرش ، فبينما كانت العائلة الملكيـــة تقضى صيف ١٩٣٧ فى أوروبا ، خرجت احدى الصحف الموالية للقصر ـ وهى بصدد الحديث عن حفلات التتويج التى ســـتقام بمناسبة تولى الملك سلطاته الدستورية ـ بفكرة غريبة عن حفلة دينيـــة ستقام لفاروق فى القلعة يقلده فيها شـــيخ الأزهر سيف جده محمد على فى حضــور أمراء الأسرة العلوية وهم يرتدون الملابس المزركشة التى كان يرتديها أسلافهم فى القرن التاسع عشر ، ثم يقسم الجميع يمين الولاء للملك ، وتقام فى اليـــوم التالى صلاة جامعة يؤم الملك فيها المصلين بدعوى أنه الامام الذى ينــوب عن الأئمة وتصدر باسمه الأحكام الشرعية .

وتصدى الوفد لهذه البدعة ، واعترض عليهـا بشدة ، لأنه وجد فيها محاولة مكشوفة لاضفاء القداسة على الملك ، وايجـــاد سلطة دينية خاصة ، يستمد الملك منها صلاحيـاته ، الى جانب السلطة المدنية التى ينظمها الدستور وبذلك ينفتح الطريق أمام الملك للخروج على قيود الدستور . وتمسك الوفد بما نص عليه

الدستور من اجراءات محددة فى مسألة التتويج ، وهى أن يقسم الملك اليمين الدستورية أمام اجتماع مشترك لأعضـــاء مجلسي الشيوخ والنواب ٠٠ ولا شيء غير ذلك ٠

وتبين أن صاحب فكرة الحفلة الدينية هو ولى العهد ورئيس مجلس الوصاية الأمير محمد على توفيق ، الذى لم يكن فى يوم من الأيام على علاقة طيبة مع عمه الراحـل الملك فؤاد ، وكان من الطبيعى ان يرث فاروق عن أبيه بغضه لهذا الأمير الذى كانت أبرز صفاته الثرثرة والسطحية والتفاهة والبخل والولاء المطلق للاحتلال الانجليزى وبالرغـم من الود المفقود ، فقد راقت الفكرة لفاروق فهلل لها ، ورأى فى هذه الاحتفالات مناسبة يطل منها على الشعب المصرى فى صورة ملوك أوروبا فى العصور الوسطى ، وهم يتلقون التيجان من بابوات الفاتيكان ، ومن المؤكد ان الاعتراضات الفقهية التى أعلنها الوفد لم تدر بخلده ، فلم تكن سنه الصغيرة ، ولا ثقافته الضحلة تسمحان له بفهم هذه الأمور ٠

وكان النحاس باشا قد قام آنئذ بزيارة سريعة الى سويسرا على رأس وفد حكومى لتوقيع معاهدة الغاء الامتيازات الأجنبية ، فذهب الوفد لمقابلة فاروق فى الفندق الذى يقيم فيه ، ولكن المقابلة لم تستغرق أكثر من بضـع دقائق خرج النحاس بعدها متجهما ، وكان الصحفى محمد التابعى الذى كان يرافق العائلة الملكية فى رحلتها المذكورة ينتظر نهاية المقابلة ، فلما خرج النحاس باشـا صحبه التابعى ونزلا الى بهو الفندق وقال له النحاس باشا :

ـ اللعب بدأ من دلوقت ٠٠

فقال التابعى : خير يا رفعة الباشا ٠٠

قال : لا ٠٠ مفيش خير أبدا ٠٠ أبدا ٠٠ الملك كلمنى عن

حفلات التولية التى ستقام بعد عودته الى مصر ، وعايز يعمل حفلة فى القلعة·· وشيخ الأزهر يقلده فيها سيف جده محمد على ·· والأمراء يكونوا حاضرين ولابسين الهدوم التى كان جدودهم يلبسوها أيام محمد على ·· وفى الحفلة دى مش عارف مين ومين رايحين يقسموا له يمين الولاء والاخلاص ·· انت عارف الدستور بيقول ايه !

فلما أبدى التابعى جهله بأحكام الدستور فى هذا الموضوع، قال له النحاس باشا :

ـ أنا أقول لك ·· الدستور بيقول ان الملك قبل أن يتولى سلطاته ويباشرها يقسم اليمين الدستورية أمام الهيئة المشتركة من أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب ·· ولا فيش حاجة عن سيف جده محمد على ·· ولا عن الأمراء وهدوم الأمراء · ولا عن شيخ الأزهر ·· وأنا مش فاهم شيخ الأزهر ماله ومال مباشرة الملك لسلطاته الدستورية ··!!

وهنا تدخل مكرم عبيد باشا الذى كان حاضرا اللقاء وطلب من التابعى أن يتدخل بما لديه من تأثير لدى رجال الحاشية لكى يقنع الملك بالتخلى عن الفكرة ، وكرر النحاس باشا المطلب من التابعى وقال له وهو يتجه نحو السيارة :

ـ أيوه خلص لنا الحكاية دى ·· وزى ما قلت ·· مفيش غير اداء اليمين الدستورية تحت قبة البرلمان ·· ولا قلعة ولا سيف محمد على ولا أمراء ·· ولا حاجة من دى أبدا ·· آه ·· اللى فى الدستور وبس ··

ويروى التابعى كيف حاول استغلال صداقته بأحمد حسنين باشا فى اقناع فاروق بالتخلى عن الفكرة ، ولكن حسنين تنصل

بحجة أن الملك متحمس جدا للفكرة ، ويصعب اقناعه بعكسها ، فلجأ التابعى الى الدكتور حسنى باشـــا سكرتير الملك ، ونجح الرجل فى مسعاه ، وأبدى فاروق استعداده للتخلى عن فكرة الحفلة الدينية بشرط أن يقدم له الشعب تاجا تشترك كل فئات الأمة فى الاكتتاب فى ثمنه ، ويقوم رئيس مجلس الشيوخ بوضع هذا التاج على رأس الملك باسم الأمة ، وتصور التابعى انه نجح فى مهمته وسارع الى ابلاغ الخبر تليفونيا الى مكرم عبيد باشا ، ولكنـــه فوجىء برفض النحاس باشا لفكرة التاج أيضا .. واصراره على تنفيذ أحكام الدستور بلا زيادة أو نقصان .. وازاء اصرار رئيس حكومة الأغلبية على موقفه أعلن فاروق تنازله عن فكرة التاج ، ومع ذلك ظل الأمير محمد على مصرا على حفلته المزعومة بالرغم من تخلى فاروق عنها ، وبالرغم من المفاجأة التى ظهرت وهى انعدام وجود سيف من مخلفات محمد على ، وظلت الصحف الموالـيـــة للقصر تندد بتشدد الوفد وكسره خاطر الملك الشاب الذى يريد ان يفرح فى أعياد جلوسه ، وازاء اصرار ولى العهد على اقامة الحفلة الدينية ذهب اليه النحاس باشا وقال له انه لم يبق موجب لاستمرار الحديث عن هذه الحفلة لأن الملك لم يطلبها ولا يتمسك بها ، وان جلالته أبلغ الوزارة برنامج الاحتفال وليس فيه شىء عن اقامة حفلة دينية ، ولكن الأمير أصر على مشروعه ، وأعلن انه حتى لو كان الملك قد تنازل عن اقامة الحفلة فان هذه المسألة تهم الأسرة المالكة كلها ، وان سموه بصفته الشخصية وبصفته نائبا عن أفراد الأسرة يرى أن يسن هذا التقليد الجديد وأن تقام حفلة دينية ، وحفلة مبايعة يتقلد فيها فاروق سيف جده الأكبر !! وأدى اصرار الأمير وعناده الى تفـاقم العلاقة بين الوزارة الوفدية والقصر ، ووجدتها العناصر الفاشية فرصة لاثارة القلاقل ضد الحكومة ،

وأخذ محمد على يغذى الصحف المواليــة لبث الألغام بين الوفد والقصر ، وأضاف ولى العهد غريب الأطوار الى أفكاره فصلا جديدا مفاده أن يؤدى فاروق صلاة الجمعة التاليــة لتوليته فى الجامع الأزهر وان يتلو شيخ الأزهر ــ الشيخ المراغى ــ دعاء خاصــا لفاروق ، وأبلغ فاروق بالفكرة الجديدة فوافق عليها ، ولكن النحاس رأى فى ذلك عودة الى فكرة الحفلة الدينية عن طريق ملفوف ، فاعلن رفضه لها ، ورفضه لكل محاولة تسعى الى اضفاء أى صفة دينية على الملك ، وكانت حجة الوفد فى ذلك كما شرحها النحاس باشا تحت قبة البرلمان : « ان الاسلام لا يعرف سلطة روحية ، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وعباده . فلا معنى اذن للاحتجاج فى هذا الشأن بما نص عليه الدستور من أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام ، أو بمكانة مصر لدى الدول الاسلامية ، بل ان هذه المكانة نفسها تستلزم أن ننزه الدين عن اقحامه فيما ليس من مسائل الدين ، وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام الاسلام وتنزيه الاســلام ، كما أنه ليس أحرص منا على التزام أحكام الدستور ، ولكن الاحتفال بمباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية شىء آخر ، فهو مجال وطنى يجب أن يتبارى فيه سائر المصريين مسلمين وغير مسلمين .. » .

وازاء هذا التشدد تظاهر الملك بالاذعان بأحكام الدستور ، وتمت اجراءات توليته وفقا لأحكام الدســتور ، وكما أرادت الحكومة الوفدية ، ولم تمض بضــعة شــهور حتى ضرب فاروق ضربته الانتقامية ، فأقال الحكومة التى كانت تتمتع بثقة الشعب ومضى فى طريق العبث بالدســتور وبارادة الشعب .. حتى فقد عرشه ..

يحيا الملك مع النحاس

فى يوم الجمعة ١٥ سبتمبر ١٩٤٤ كان الملك فاروق فى طريقه الى حى مصر القديمة لأداء فريضة الجمعة بمسجد عمرو بن العاص عندما لاحظ بعض اللافتات المرفوعة فى الشوارع مكتوب عليها « يحيا الملك مع النحاس » فاستنكف أن يقترن اسم النحاس باسمه ، فاستدعى مدير الأمن العام وأمره بنزع اللافتات، ونفذ الرجل الأمر على الفور دون انتظار لتعليمات الحكومة التى يتبعها بنص الدستور ، وفى مساء نفس اليوم أصدر فؤاد سراج الدين وزير الداخلية أمرا بايقاف المدير عن العمل ، وقرأ الملك الخبر منشورا فى صحف اليوم التالى فصمم على بقاء الرجل فى منصبه .

وبدا ان التحرش الملكى يخفى وراءه نية مبيتة لاقالة الحكومة الوفدية وان أزمة مدير الأمن العام هى مجرد ذريعة لتفجير الخصومة التى استحكمت بين الوزارة والقصر ، وان فاروق أخذ يستجمع خيوط اللعبة فى يده ليحكم البلاد حكما مطلقا عن طريق أحزاب الأقلية التى تفتقر الى تأييد الشعب ، وكان فاروق قد تلقى الضوء الأخضر من الانجليز بموافقتهم على اقالة النحاس ، وارجاء الاقالة

الى ما بعد توقيع ميثاق الجامعة العربية الذى كان النحاس منشغلا بالاعداد له منذ ربيع ١٩٤٣ ٠

والسؤال الذى يرد على الخاطر هو : لماذا سمح الانجليز لفاروق باقالة الوزارة التى أرغموه على تشكيلها يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ ٠٠ والجواب يتطلب رصد العلاقات بين حكومة الوفد والانجليز خلال الفترة التى تولت فيها الحكم ، وهو ما فعله الدكتور عبد العظيم رمضان فى الجزء الثالث من كتابه (تطور الحركة الوطنية) واستخلص من ذلك أن العلاقات بين حكومة الوفد والانجليز لم تكن سمنا على عسل كما قد يبدو لأول وهلة ، واذا كانت ظروف الحرب العالمية المعقدة قد جمعت بين مصلحة الانجليز ومصلحة الوفد فى التخلص من الخطر النازى ٠٠ الا أن القاعدة هى أن الحكم الوطنى والاستعمار قطبان متنافران ، وضدان لايجتمعان ، وفى الفترة التى تولى فيها الوفد الحكم ، ظهرت أمور كثيرة برز فيها التباين الشديد بين الفريقين ؛ فقد استهل النحاس حكمه بالافراج عن عديد من الشخصيات المعادية للانجليز والموالية للمحور تحت ضمانه الشخصى ، ومن الطبيعى الا تلقى هذه الافراجات ترحيبا من الانجليز ، ولما تهددت جيوش روميل الدلتا وقناة السويس ، وأعد الانجليز خطتهم لتدمير مرافق البلاد ، ثار النحاس وأعرب عن سخطه وغضبه على النوايا البريطانية ٠

ولما ابتعد الخطر النازى عن أرض مصر ، دخلت العلاقات بين حكومة الوفد والانجليز مرحلة جديدة ، ولم يترك النحاس مناسبة الا أعلن فيها عن عزمه على تعديل معاهدة ١٩٣٦ واعتبر هذا التعديل ضرورة لا مفر منها ، وقال فى خطاب عيد الجهاد سنة ١٩٤٣ « انى الآن أكاد ألمح باذن الله فجر اليوم الذى تأخذ فيه

مصر المستقلة استقلالا تاما لاتشوبه شائبة ، مكانا محمودا فى طليعة الشقيقات العربية وسائر الدول الديمقراطية المحبة للحرية» وفى هذا الخطاب تعرض للسودان فقال : « من منكم يجهل موقف الوفد من مسألة السودان ، وتمسكه بالسودان ، وجهاده لأجل السودان ؟ » ‥ واستطرد يقول « انه عندما يقول حقوق مصر ومصالحها لا يعنى انه يعتبر علاقة مصر بالسودان علاقة المسود بالسيد أو التابع بالمتبوع فانما نحن والسودان أمة واحدة ، لأبنائه ما لنا ‥ وعليهم ما علينا ‥ » .

وبات واضحا أن الحكومة المصرية تنوى مطالبة بريطانيا بجلاء قواتها عن مصر ، وعبر عن هذا الاتجاه مراسل (التايمز) فى مصر فقال : « ان الدوائر المصرية يسودها شعور زائف بأن الحرب بصفة عامة أوشكت على النهاية ، وأنه مادام الأمر كذلك ، فان الوقت قد حان لجلاء قوات الحلفاء عن البلاد » وهكذا بدا فى الأفق شبح مطالبة الحكومة الوفدية لبريطانيا بدفع الحساب ، وكان معنى ذلك بالنسبة للسياسة البريطانية ان هذه الحكومة لم تستنفد أغراضها فحسب ، بل وأصبح وجودها فى الحكم يمثل خطرا على المصالح البريطانية ، ولكن الدور كان مايزال به مشهد واحد لم ينته بعد ، وهو توقيع بروتوكول الاسكندرية ، أول وثيقة فى ميلاد جامعة الدول العربية .

وفى اليوم التالى لتوقيع الميثاق أصدر الملك مرسوما باقالة الحكومة الوفدية وبدأ عهد انقلاب جديد ، فانتهت مرحلة هامة من تاريخ مصر ، وبدأت مرحلة جديدة ، اذ كانت الفترة التى تولى الوفد فيها الحكم من ٤ فبراير ١٩٤٢ الى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - فى رأى عبد العظيم رمضان - مفترق الطرق فى حياة مصر ، فقد شهدت هذه الفترة سنوات الحسم فى تاريخ الحرب العالمية

الثانية ، وكانت معركة (العلمين) احدى معركتين حددتا مصير الحرب ـ والأخرى هي ستالينجراد ـ وقد تأرجحت فيها مصر بين نصر محورى نازى يعرض حياتها واستقلالها ونظامها للخطر، وهزيمة بريطانية تخرب مدنها وقراها ، كما شهدت هذه الفترة تجمع الظروف والعوامل التي ساعدت على اتجاه مصر بصـــورة حاسمة نحو الوحدة العربية ، وقد حسم هذا التوجه مصير مصر ـ ليس فقط بالنسبة للمرحلة التاريخية التالية ، بل بالنسبة لجميع المراحل التالية ٠

أما على المستوى المحلي فقد أنجزت هذه الوزارة العديد من الأعمال على كافة المستويات ، فقررت مجانيـــة التعليم الابتدائى تمهيدا لمجانيةالتعليم الثانوى عام ١٩٥١ ، وأصدرت قانون عقد العمل الفردى لحمـــاية الأجور ومعالجة حـالات المرض والعجز والشيخوخة والوفاة ، وقانون التأمين الاجبارى ضد اصـابات العمـــل ، وبه أمكن الاحتفاظ للعامل بحق التعويض ، وأسبغت الشرعية على نضال العمال باصدار قانون نقابات العمال ، وانشأت لجان التوفيق بين العمال وأصـــحاب الأعمال ، وفيما يتصـل بالفلاحين خففت الضريبة عن صغار الملاك الزراعيين وأعفت من لا تتجـاوز الضريبة المربوطة على جميع أطيانه خمسين قرشـا من هذه الضريبة ، وأقامت مشروع المجموعات الصحية وتشمل كل مجموعة عيادة طبية مجانية ودارا للخدمة الصحية ودارا لرعاية الأمومة والطفولة ، وأنشأت ديوان المحاسبة وجعلته هيئة مستقلة تماما عن السلطة التنفيذية محاطا بسياج من الضـمانات ، كمـا أصدرت قانون اسـتقلال القضـــاء الذى كفل للقاضى مبدأ عدم العزل ، كما فرضت استخدام اللغة العربية فى مكاتبات الشركات حتى تتيح للمصريين شغل المناصب بدلا من الأجانب ٠

تلك بعض انجازات وزارة ٤ فبراير ٠٠

خاتم النحاس

فى أواخر عهد الوزارة الوفدية (١٩٥٠ ـ ١٩٥٢) شنت الصحف المعادية للوفد حملة عنيفة على النحاس باشا ، وشككت فى ذمته لأنه يقتنى خاتما من الزمرد مع أنه رجل فقير ‥ ! وأخذت الصحف تؤلب الرأى العام الذى كان شديد الثقة بنزاهة النحاس وطهارة يده ، وتساءلت الصحف من أين لزعيم الوفد ورئيس الوزراء ثمن هذا الخاتم الثمين ‥ ؟ ! وجعلت المجلات الساخرة من هذا الخاتم (لازمة) ثابتة لا تخلو منها أصبع النحاس باشا فى الرسوم الكاريكاتورية ، ولكن النحاس لاذ بالصمت ولم يشأ الافصاح عن مصدر الخاتم لأنه كان يعرف الأصابع الخفية التى تحرك الحملة وتثير الغبار حول أعز صفة يتحلى بها الرجل ، وأدرك النحاس أن الهدف الأكبر هو تلويث سمعة الوزارة الوفدية وتسميم الأجواء الشعبية من حولها تمهيدا للاطاحة بها ‥ وهو ما حدث بالفعل .

وبقيت قصة خاتم الزمرد طى الكتمان حتى أماط اللثام عنها الأستاذ صلاح الشاهد فى كتابه (بين عهدين) وهو الرجل الذى ظل بحكم موقعه فى مجلس الوزراء لصيق الصلة بالنحاس باشا ، وكان بحكم صلته الشخصية بالنحاس منذ عام ١٩٣٥ خير شاهد

على سلوك الرجل ، وبقى على الوفاء له حتى انتقل الزعيم الى الرفيق الأعلى .

يروى صلاح الشاهد (وله من اسمه نصيب) القصة على النحو التالى :

يوم ١٥ يونيو ١٩٥٠ وفى الساعة الخامسة مساء وصلت الى جناح المرحوم مصطفى النحاس باشا بفندق سان ستيفانو سلة فواكه من مزارع الخاصة الملكية مع مندوب ملكى قال لى : هذه السلة هدية من جلالة الملك لرفعة النحاس باشا بمناسبة عيد ميلاده . فصعدت بالسلة الى غرفة النحاس باشا الذى فتح غطاءها فوجد كمية من المشمس فوقهـا علبة مجوهرات ، وفتحها رفعته فوجد بداخلها خاتما من الزمرد فسألنى رفعته :

ـ الخاتم ده حريمى .. ولا رجالى .. ؟

فقلت : انه رجالى وان الملك أرسله هدية بمناسبة عيد ميلاد رفعتك اليوم . فلبسه ـ رحمة الله عليه ـ فورا ، ونادى على المرحومة قرينته وقال لها : شوفى هدية الملك فى عيد ميلادى .. عرف ازاى مقاس صباعى .. ! لازم القلم السياسى بتاعه عارف كل حاجة .

وفى ختام الحكاية يقول صلاح الشاهد : هل كان الملك بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين النحاس باشا وبلغت الأزمات مع الحكومة الانجليزية غايتها .. وراء هذه الحملة الصحفية .. وقد علمت ان الخاتم هدية ملكية .. ؟ ثم يصف الملك فاروق بأنه كان واسع الخيال فى مناوراته .

وكان خصوم النحاس لا يجرأون على الطعن فى نزاهته ، فقد كانت نزاهته أشبه بالمنطقة المحرمة التى يصعب اختراقها ، وكان النحاس صلبا فى تجرده عن الترف والنعيم ، شديد التمسك

بالقيم الخلقية والدينية ، فعاش بسيطا فقيرا لا يملك قصرا ولا ضيعة ولا يقتنى جوهرا ولا سندات أو أسهما فى البنوك والشركات ٠ وكان مصدر رزقه الوحيد ـ فى مبدأ عهده بالوزارة ـ معاشا لا يتجاوز ١٢٥ جنيها ، وعاش بقية حياته من معاشه كرئيس سابق للوزراء وعندما صدر قرار مجلس قيادة الثورة بحل الأحزاب عام ١٩٥٣ وأيلولة أموالها للحكومة ، كانت جميع الأموال المملوكة لحزب الوفد هي تسعون ألف جنيه مودعة فى بنك مصر باسم مصطفى النحاس باشا ٠ فقام الرجل ـ احتراما للقانون ـ بسحب المبلغ ووضعه في حقيبة خاصة وقام بتسليمه الى حكومة الثورة ، وعندما أشار عليه أحد المقربين بالاحتفاظ ، ولو بجزء ضئيل من هذا المبلغ ليواجه به غدر الزمن ، صرخ النحاس فى وجهه قائلا : انه ليس مالى ٠٠ وأنا لا أزال الآن كما كنت قاضيا ٠٠ وأسكن فى شبرا ٠٠ وغذائى طبق خضار والحلوى طبق بلح ٠٠ !!

وعندما كان خصـــوم النحاس فى عام ١٩٤٣ يتآمرون على تحطيمه ويبحثون عن مدخل لتحقيق غرضهم كان كل همهم تشويه صورته النبيلة فى عيون الجماهير ، ويعترف الدكتور هيكل باشا فى الجزء الثانى من مذكراته بهذه المحاولات التى كان هدفها « النيل من الوزارة الوفدية ومن نزاهة رئيسها بالذات ، فقد كانت شهرة النحاس باشا قائمة فى نفس الجمهور الى يومئذ على أنه رجل نزيه طاهر اليد ، وأنه ظل لذلك فقيرا لم يفد من الحكم شيئا ٠٠ » ٠

ولم يتأثر النحاس بهذه الحملات الشائنة ، وبقى على صلابته فى مقاومة عوامل الاغراء ، والارتفاع فوق الريب والشبهات ، فقد أصبح التجرد والتعفف من مكونات شخصيته ، وليس أدل على ذلك من تلك القصة التى عاصر أحداثها صلاح الشاهد ووقعت فى عهد وزارة الوفد الأخيرة :

في أحد أيام نوفمبر ١٩٥١ حضر الى رئاسة مجلس الوزراء السيد (م ٠ ح) والسيدة قرينته ، وطلب الاذن بمقابلة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا دون موعد سابق ٠ واستاذنت رفعة الرئيس الجليل الذى علم أن زوجة السيد المذكور هي مدام (ح) فاغرورقت عيناه بالدموع وأخبرني في صوت متهدج :

ـ ان لوالد هذه السيدة دينا في عنقي لا أنساه ٠٠

فقد طلب والدها ان يرافق النحاس باشا عند نفيه وسعد زغلول وصحبه الى سيشل سنة ١٩٢١ وكان الوالد مثل الاخلاص النادر اذ ارتضى النفي الاختياري وكان يتولى رعاية النحاس باشا في أثناء مرضه هناك ٠ وكان النحاس نموذجا للوفاء الخالص حين تقدم الزوج على استحياء بطلب للرئيس الجليل يطلب فيه الموافقة على تصدير مائة ألف طن من الحديد الخردة الموجود في الصحراء الغربية وهو من مخلفات جيوش الحلفـاء ، الى الـولايات المتحدة الأمريكية مقابل عشرة جنيهات عن كل طن يدفعها للحكومة المصرية ٠ ووجد النحاس في العرض مكسبا للخزانة المصرية يوازى مليون جنيه فوافق على الطلب وكتب بذلك خطابا الى أحمد باشا حمزة وزيـر التموين لاستخراج التصريح المطلوب ٠

وطلب النحاس باشا من صـلاح الشاهد أن يرافق السيدة وزوجها الى وزارة التموين لانجاز الطلب ، وفوجيء الشاهد بالرجل يقول له وهو يرمق سيارته الصغيرة المتواضعة : غدا يكون لديك سيارة كاديلاك ومعها ٢٠ ألف جنيه ٠ وأثارت هذه العبارة شكوك صلاح الشاهد حول الصفقة ، ثم تأكدت هذه الظنون عندما سأله أحد الصحفيين عن أخبار الصفقة ٠ فلما حاول الشاهد نفي الخبر ، فاجأه الصحفي بالقول ان النحاس باشا وافق على الصفقة بعد أن قبض نصف مليون جنيه رشوة ٠٠ !!

وصعق صلاح الشاهد • فقد كان حاضرا كل وقائع القضيه من بدايتها وأدرك أنها خدعة يراد بها الايقاع بزعيم من أنزه زعماء مصر في تاريخها الحديث والمعاصر • ولم يتردد الرجل . وذهب الى النحاس فى بيته وكان يتوضأ للصلاة •• فحكى له ما سمع ، فأمره بالذهاب فورا الى أحمد حمزة باشا لاسترداد الطلب ، فلما جاء به أحرقه •• وكأن شيئا لم يكن ••

● ● ●

ان القصص والوقائع المحفوظة فى سجلات التاريخ عن نزاهة مصطفى النحاس وشجاعته ووطنيته ستبقى نبراسا للأجيال القادمة وهى تبحث عن السطور المضيئة في تاريخنا المجيد ، وما أجمل تلك العبارة التى اختتم بها رفعت السعيد كتابه الرصين عن : السياسى • والمتاضل •• والزعيم ••

« وتمضى الأيام •• ويتصور البعض ان النحاس قد طواه النسيان ، وان هذه الصفحة الناصعة من تاريخ مصر قد نسيت •• وفجأة يعود النحاس ليثبت بموته انه لم يزل حيا فى قلوب الكثير من المصريين ، وعندما مات مصطفى النحاس فى ٢٣ أغسطس ١٩٦٥ تحولت جنازته الى مظاهرة صاخبة ضمت قرابة المائة ألف متظاهر •

وأثبت النحاس انه لم يزل حيا ••

وانه لن يموت

وأثبت شعب مصر انه ــ برغم كل شىء ــ يمتلك قدرا هائلا من الوفاء والعرفان بالجميل •• » •

محكمة الثورة

كان الغاء دستور ١٩٢٣ بعد نحو خمسة شهور من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ مؤذنا بالصدام المباشر بين الثورة والوفد ، وسقوط شعرة معاوية التى كانت قائمة حتى ذلك الحين بين الطرفين ، لأن الكفاح من أجل الدستور كان خطأ ثابتا فى تاريخ الوفد ويسير فى خط مواز لكفاحه من أجل الاستقلال ، وكانت تضحيات الشعب — بقيادة الوفد — فى سبيل الدستور ، وحمايته من العبث والعدوان ، لا تقل روعة وجلالا عن التضحيات فى سبيل انهاء الاحتلال ، ومنذ بداية المرحلة الليبرالية فى عام ١٩٢٤ كان الوفد يحارب فى جبهتين : الجبهة الخارجية لاستخلاص حقوق البلاد الوطنية ، والجبهة الداخلية لمقاومة استبداد القصر ، واحباط محاولاته الدائبة لاستعادة حكمه المطلق ، مما دعا الوفد الى خوض معارك دامية ، بلغت ذروتها فى عهد اسماعيل صدقى ، وقد توج كفاح الوفد آنذاك بعودة دستور ١٩٢٣ فى أواخر عام ١٩٣٥ .

وعندما قامت ثورة يوليو كان الشائع أنها ستعمل على صيانة الدستور وتصحيح الأوضاع الديمقراطية واعادة الحياة النيابية وضمان الحريات الأساسية لجميع المواطنين ، خاصة بعد خلع فاروق المدبر الأكبر لكل الانقلابات والدسائس التى أدت الى الفساد

السياسى ، ولكن قيادة الثورة ما لبثت أن تنكرت للدستور ، وكشفت عن نواياها المعادية له عندما تجاهلت النص الدستورى الذى يقضى بدعوة البرلمان الوفدى المنحل لكى يؤدى أمامه أعضاء مجلس الوصاية على العرش اليمين الدستورية ٠

ورغم أن انعقاد هذا البرلمان كان اجراء شكليا بحتا ، ولا يستغرق أكثر من بضع دقائق ، الا أن الزمرة التى أحاطت بضباط الثورة ، وكلهم من رجال الحزب الوطنى المعادين للوفد ، وجدوا فى عقد البرلمان فرصة غير سارة تذكر الجماهير بالنظام البرلمانى الذى بيتوا النية على هدمه ، والسير بالنظام الجديد فى طريق اللاديمقراطية ، فكان أن تفتقت عقولهم عن فتوى شيطانية بامكانية أداء اليمين أمام مجلس الوزراء ، ووجدت الفتوى ذات المنفعة المزدوجة قبولا عند الضباط الشبان ، فقد شجعت هؤلاء على الاستهانة بالدستور والتحرر من قيوده ، ومن ثم المضى فى طريق الانفراد بالحكم ، وفى نفس الوقت حققت لمستشارى السوء فرصتهم للانتقام من الوفد واقصائه نهائيا عن حقه الشرعى فى الحكم ٠

وجاء الاجهاز على الدستور فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ علامة واضحة على أن الحكام الجدد قد اختاروا السير فى الطريق نحو الدكتاتورية ، ثم لم تمض ثلاثة أسابيع حتى أصدر مجلس قيادة الثورة فى ١٧ يناير ١٩٥٣ أمرا بحل الأحزاب السياسية التى تعتبر ركيزة النظام الديمقراطى ، وازاء هذا المد الاستبدادى السافر ، قرر الوفد أن يخوض المعركة أيا كانت نتائجها رغم علمه بطبيعة القوى الجديدة التى يواجهها ، وأنها عناصر عسكرية بحتة تستند الى قوة الجيش ، وانتهز زعيم الوفد مصطفى النحاس فرصة ذكرى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٥٣ فتحدى القرار الصادر بمنع الاحتفال بها ، وتوجه الى ضريح سعد ، وألقى خطابا ساخنا هاجم فيه قيادة الثورة ، وندد بالأساليب التى اتبعتها فى القضاء

على الحرية والدستور والحياة النيابية ، وطالب بالافراج فورا عن المعتقلين ، كما هاجم سياسة حكومة الثورة في التفاوض مع الانجليز بعد أن لفظت البلاد هذا الأسلوب ، كما ندد بموافقة الحكام الجدد على ما عرضه الانجليز من منح السودان الحكم الذاتى تمهيدا للاستفتاء على مبدأ تقرير المصير ، وقال النحاس ان أمانى مصر القومية قد أهدرت تماما على أيدى الحكام الجدد ، وحذر من مغبة في التفريط في حقوق البلاد ، وقال ان الأمة يقظة لما يدبره لهـا أعداؤهـا فى الخفاء ، واختتم خطبته بهذه العبارة : ان حبل الباطل قصير ٠٠ وهو ان طال شنق صاحبه ٠

وسرعان ما تحول خطاب مصطفى النحاس الى منشور تداولته أيدى الجماهير بكثافة ، وفى يوم الجمعة التالية للخطاب ، أدى النحاس الصلاة في مسجد أبى العباس المرسى بالاسكندرية فالتفت الجماهير من حوله رغم الحصار الذى ضربه البوليس حول المنطقة ، ودارت معركة ساخنة بين رجال البوليس والمصلين ٠

ولمواجهة الهجوم الصريح من جانب زعيم الوفد ، لم تلجأ قيادة الثورة الى مقارعة الحجة بالحجة ، ولكنها لجأت الى النهج التعسفى لتصفية منتقديها وتلويث سمعتهم والتشهير بهم عن طريق المحاكمات الثورية ٠ وفى ١ سبتمبر ١٩٥٣ أعلن اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة فى مؤتمر جماهيرى بميدان عابدين الأمر الخاص بتشكيل محكمة الثورة ، وقدم صلاح سالم الذى كان يوصف بأنه « لسان الثورة وميزانها الحرارى » تحليلا لخط العنف الذى قررت الثورة المضى فيه ٠ وبعد أن شن هجوما عنيفا على الوفد وزعامته فاجأ الجماهير بوجود وثيقة « خطيرة » قال انها وقعت فى أيدى أعضاء مجلس الثورة ، وتكشف عن التحالف الوثيق بين « الاستعمار الأجنبى والخونة الرجعيين فى هذه البلاد » ولكن صلاح سالم حذف ــ وهو يقرأ الوثيقة المزعومة ــ اسم الدولة الأجنبية التى

تشجع المتمردين من رجال الأحزاب ، وقد جاء فيها أن هدف التحالف بين تلك الدولة (المجهولة) ورجال الأحزاب هو بث روح السخط ضد النظام وتشجع الأفكار التى تنادى بعدم صـــلاحيته وتـدعيم الوسائل التى تؤدى الى تدهور الاقتصاد » وذكر صلاح سالم أن العمـــل لقلب مجـــلس الثورة كان محــددا له مدة أقصاها يوليو ١٩٥٤ ٠

وفى دراسة تحليلية لتلك الوثيقة التى قرأها صلاح سالم ، يقول صلاح عيسى ان الوثيقة لم تنشر ، ولم يواجه أى ممن قدموا للمحاكمة بوقائع محددة تستند اليها ، ثم يصف هذه الوثيقة بأنها نص للدراسات المشتركة التى جرت بين أجهزة السفارة الأمريكية ــ ومن بينها وكالة المخابرات المركزية ــ وبين أجهزة الأمن الناصرية ، على النحو الذى أشار اليه رجل المخابرات كوبلاند فى كتابه (لعبة الأمم) [وكان هذا قريبا من مسرح الأحداث المصرية فضلا عن أنه كان واحدا من المستشارين المقربين لجمال عبد الناصر آنذاك] فقد ذكر انه فى صيف ١٩٥٣ بدأت السفارة الأمريكية تقلق على الوضع فى مصر بعد أن شعر السفير الأمريكى جيفرسون كافرى بالقلق على نظام عبد الناصر اذ أن الحركات المضادة عادة ما تظهر ــ فى رأى وكالة المخابرات المركزية ــ بعد مرور عام واحد على الحركات السابقة ٠

وبدأت محكمة الثورة تمارس نشاطها فى جو مشحون بالسموم ضد الوفد ، بل يذهب أحمد حمروش الى « أن محكمة الثورة كانت موجهة أساسا ضد الوفد وبقايا الأحزاب والتنظيمات السياسية »٠ ولما كان الوفد أخطر هذه الأحزاب فقد ناله نصيب الأسد من القضايا ومن التشهير الذى لم يتعفف عن البذاءة والابتذال » ٠ ويرى صلاح عيسى أن محاور الهجوم على الوفد تركزت فى التأكيد بأن ثقة الشعب فيه ــ التى تمثلت فى حصوله على الأغلبية المطلقة فى انتخابات

تأكيد فكرة امكانية الاستغناء عن البرلمان ، وفى التشكيك فى وطنية كل العناصر التى كانت مؤثرة على مسرح الأحداث ، وفى السعى لتلويث كل القيادات الحزبية وبالذات قيادات الوفد بحيث تبدو أمام الجماهير شخصيات تافهة ، وفى هذا الصدد نال زعيم الوفد مصطفى النحاس من التشهير ما لم ينله غيره ، ولكن الضباط الأحرار عجزوا عن تقديمه شخصيا للمحاكمة لادراكهم صعوبة ذلك ، وربما خشيتهم من أن تؤدى محاكمة الرجل الى مزيد من التعاطف • الشخصى والسياسى معه ، اذ لم يكن من السهل تجاهل المكانة التى ظل النحاس يشغلها فى نفوس الشعب المصرى منذ تولى زعامة الوفد عقب وفاة سعد زغلول •

وازاء صعوبة محاكمة مصطفى النحاس فقد قرر الضباط الأحرار محاكمة أقرب الناس اليه : قرينته السيدة زينب الوكيل ، وساعده الأيمن فؤاد سراج الدين ، وابنه فى حفل الجهاد ابراهيم فرج •

خصم وحكم

في الساعة العاشرة من صباح الاربعاء ٩ ديسمبر ١٩٥٣ مثل فؤاد سراج الدين امام محكمة الثورة المشكلة برئاسة قائد الجناح عبد اللطيف البغدادي وعضـــوية البكباشي انور السادات وقائد الاسراب حسن ابراهيم اعضاء مجلس قيادة الثورة بالاضافة الى البكباشي زكريا محيي الدين الذى رأس مكتب الادعاء يعاونه ستة أعضاء نصفهم من الضباط الحقوقيين والآخرون من وكلاء النيابة ، وكان صلاح سالم وهو يعلن امر تشكيل المحاكمة فى المهرجان الشعبى بميدان عابدين . قد اقترح ان تعقد المحكمة فى ميـــدان التحرير لبث الذعر في قلوب الناس ، ولكن مجلس الثورة لم يأخذ باقتراحه ، وقرر عقدها فى مقر مجلس قيادة الثـــورة الذى كان فيما قبل مقرا لنادى اليخوت الملكية ، ويشغل اجمل بقعة عـــلى قمة جزيرة الزمالك حيث يتفرع النيل ، وتنساب امواجه الرقيقة تحت عتباته فى جمال وروعة وسكون .

وفي الطابق الثاني الذى خصص للمحكمة ارتفعت لافتـــة مكتوب عليها باللون الدموى (سكون) وتدل على باب القاعة رقم٨ المخصصة للجلسات علم الثورة المثلث الالوان ، وكتب على الجزء

الابيض منه (محكمة الثورة) بينما تناثرت على جدران القاعة آيات قرآنيـــة تم اختيـارها بعناية مثل « اقتلوهم حيث ثقفتموهم » « وليجدوا فيكم غلظة » « فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » •

وقد نص أمر تأليف المحكمة على أن يتولى مكتب الادعاء القبض على المتهمين واخطارهم بالتهم المنسوبة اليهم قبل موعد المحاكمة باربع وعشرين ساعة على الاقل ، ولا يجوز تأجيل القضية لاكثر من مرة واحدة ولمدة لا تزيد على ٧٢ ساعة ، ويتولى الدفاع عن المتهم محام واحد في جميع التهم المنسوبة اليه ، ولا يجوز المعارضة فى هيئة المحكمة أو احد اعضائها بأى طريقة من الطرق أو امام أيـة جهة من الجهات ، وكذلك لا يجوز الطعن فى اجراءات المحاكمة •

ورغم أن اللواء محمد نجيب يعترف فى كلمته للتاريخ بأن هذه المحكمة اشاعت الفزع والرعب فى نفوس الناس ، ورغم أنـه يقول انه اعترض على فكرة المحاكم الثورية لأنهـا تجعل من قـــادة الثورة خصما وحكما فى نفس الوقت ، فان معارضته لم تمنعه من توقيع أمر تشكيلها والمشاركة فى الزفة التى صاحبت ذلك بميدان عابدين •

وفى حين يذكر بعض الكتاب ان محكمة الثورة كانت تعقـــد جلساتها فى سرية ولا يحضرها الا أعضـــــاؤها والمتهم وزكريا محيى الدين هو ومعاونوه ، وان المتهمين كانوا يواجهون المحكمـة بلا تحقيق ويوجه الادعاء التهمة اليهم كنوع من المفاجأة (!!) فان أحد الضباط الذين جمعوا وقائع المحاكمات الاولى يقول فى صدر كتابه ان رجال القانون والتشريع فى مصر كانوا يتهافتون على حضور هذه المحاكمات ، وانهم أعجبوا ببراعة المناقشات التى تدور فيها والأسئلة التى يوجهها اعضاء المحكمة كما لو كانو من رجال القضاء

العريقين (!!) ثم يصف المحكمة بانها ابتدعت نظما جـديدة فى المحاكمات فهى تنجز فى أيام ما تنجزه المحاكم العادية فى شهـور بل سنوات (!!) ومع ذلك كان العدل رائدها وذلك بشهادة المتهمين انفسهم حتى ان بعضهم تقدم بالشكر على معاملتـه بالعـدل والقسطاس (!!) ٠

وكانت محاكمة فؤاد سراج الدين أطول محاكمات الثورة ، فقد استغرقت ٥٤ جلسة ، وكانت اقرب الى محاكمة عهد ما قبل الثورة كله منها الى محاكمة فرد ، وتطرقت المحكمـة الى قضايا لا علاقة لسراج الدين بها ، وطرحت أمورا خارجة على موضـوع القضية ، وبلغ الابتذال بالمحكمة ان حشدت رهطا من السياسيين القدامى الذين كانت لهم مواقف معادية للوفد ، وأخذت تحرضهم على سرد قصص وحكايات تسىء الى الزعامة الوفدية وتشوه صورتها فى نظر الجماهير ، وبلغ الاسفاف باحدهم انه تطرق الى الحياة الخاصة للزعيم مصطفى النحاس ، وكان بعضهم يتبرع باختلاق وقائع كاذبة لكى يشترى حريته وينجو من المحاكمـة أمام نفس المحكمة عن جريمة العمالة للانجليز ، وكان هـذا مسلك رئيس الديوان الملكى السابق حسين سرى الذى تبرع بفبركة قصة تقبيل النحاس ليد الملك عقب تشكيل وزارة ١٩٥٠ ، وعن طريق هـذه الحملة التشهيرية الواسعة تحقق الهدف الاصيل من المحاكمة ـ كما اعترف رئيسها فى مذكراته بعد ربع قرن ـ من أن القصد مـن المحاكمة كان التشهير بالزعماء حتى يفقد الشعب الثقة بهم ٠

وتحولت محاكمة فؤاد سراج الدين ـ اكبر شخصية مؤثرة فى الوفد بعد مصطفى النحاس ـ الى مهرجان لتوجيه أقسى الطعنات الى الوفد ، بل والى عهد ما قبل الثورة كله ، وانساقت المحكمة فى

هوجة التجريح حتى عميت عليها الامــور ، واختلطت الحقــائق بالضغائن ، ولم تعد تفرق بين الاحقاد السياســية والاعتبارات الوطنية التي تعلو فوق الخلافات ، فتحول الابيض الى ســواد ، وأصبح العمل الوطنى فى نظر المحكمة جريمة يلام عليها فاعلهــا وبلغت المحكمة ذروة المغالطة عندما عابت على حكومة الوفد موقفها من معركة التحرير التى اعقبت الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وعدم الاستعداد لها ، متجاهلة الدور البطولى الذى لعبته هذه الحــكومة فى تدعيم الكفاح المسلح وتسهيل مهمة الضباط ــ ومنهم رئيس المحكمــة ــ فى مقاومة الاحتلال البريطانى ٠

وقد استفزت هذه المغالطة البشعة الكتاب الاحرار الذين عاصروا هذه الاحداث بمن فيهم المنتمون الى حركة الجيش ، فكتب احمد حمروش منتقدا مسلك المحكمة بقوله : وهكذا تحول الموقف الذى يستحق الفخر فى تاريخ الوفد ٠٠ الى موقف يجلب اليــه العيب والأسف (!!) ووجهت الطعنة فى غير موضعها ، فمعــارك التحرير والنضال الشعبى لا يشترط ان تستكمل تماما فى بدايتها ٠٠ بل هى تنمو وتزداد صلابة مع كفاح الشعب المسلح ، وهو ما حدث بالفعل قبل حريق القاهرة ٠

واذا كان الشر لا يخلو من بعض جوانب الخير ، فان وقائع المحاكمة كشفت عن خطا كثير من المقولات التى كانت شائعة حول العلاقة بين الوفد والقصر ، وقد ذكر صلاح عيسى بعض نمــاذج لهذه الحقائق فى مقدمة الجزء الاول من وقائع محاكمة سراج الدين وقال ان المحاكمة ازاحت الستار عن مواقف بطولة وهمية نسبها البعض لانفسهم على حساب الوفد ومنهم زكى عبد المتعال ــ الشاهد الذى ادانته محكمة الثورة فى حكمها ــ وكانت بعض الصحف قد قدمته كبطل ، ثم ثبت بعد ذلك عمالته للسراى فضلا عن صلاته

الوثيقة بالدوائر الامريكية ، كما افتضح موقف النائب العام الاسبق محمد عزمي من تحقيقات قضية الاسلحة الفاسدة التى ذهب بعض المؤرخين (الرافعى) الى اتهام الوفد بأنه المسئول عن طرده من منصبه تلبية لرغبة إلسراى واعتبروه بطلا ، ثم ثبت فيما بعـــد أنه هو الذى تواطأ ــ على غير رغبة الحكومة الوفدية ، لافساد قضية الاسلحة الفاسدة لحساب السراى طمعا فى مرتب كبير ٠

وتضمن الادعاء على فؤاد سراج الدين تهما من كل لــون وجنس مثل خيانة امانة الحكم واستغلال النفوذ ومهادنة الملك وعدم مراعاة مصلحة الوطن وعرقلة تحقيقات الاسلحة الفاسدة ،بالاضافة الى الجهد الخارق الذى بذله محاميه الوحيد وصديقه عبد الفتاح حسن باشا ، فقد تصـــدى سراج الدين لتفنيده هذه الدعاوى فى شجاعة فذة لفتت اليه انظار المؤرخين ، ووصفه بعضهم بأنه كان اشجع المتهمين الذين واجهوا المحاكم الثورية ، وانه انبرى للدفاع عن نفسه وعن حزبه دفاعا مجيدا استغرق خمس جلسات كاملة فنجح فى ذلك نجاحا نادر المثـــال بمـــا يؤكد ذكاءه واقتداره السياسى ٠

ورغم ان رئيس المحكمة اظهر فى بعض مراحل المحاكمة تقديرا لشخص فؤاد سراج الدين وقال له ان المحكمة لا تشك فى نزاهتك، وايد الادعاء هذا الرأى ، ورغم وضوح تهافت الاتهامات المصوبة الى سراج الدين فقد صدر الحكم عليه بالسجن ١٥ عاما لأنه كان لابد ان يختفى من المسرح السياسى ليخلو الجو امام الضباط الشبان للانفراد بالحكم دون ازعاج ، وعبر جمال عبد الناصر عن هذه الحقيقة عندما صرح للذين تحدثوا اليه بشأن التصديق على الحكم فقال : « ان فؤاد سراج الدين كرجل سياسى ، يعرف لماذا حـكم عليه ٠٠ ومتى سيخرج » ٠٠ وأوضح عبد الناصر لاسرة سراج الدين

الضرورة التى حتمت عليه وضع زعيمهم خلف القضبان ، وهى تخضع لعاملين أحدهما خارجى وهو عودة الاحزاب السياسية فى سوريا بعد الاطاحة بحكم العقيد الشيشيكلى ، وهو الامر الذى سبب أرقا لرجال الثورة بصفة عامة ، وعبد الناصر بصفة خاصة ، لأنهم كانوا يدركون أن مجرد وجود الاحزاب يشكل خطرا على سلطتهم ·· أما العامل الداخلى فهو أن جمال عبد الناصر كان يستعد للقضاء على الاخوان المسلمين ·

وهذا هو منطق العدل الثورى ·

وقد انجز عبد الناصر وعده ·· ولم يغادر فؤاد سراج الدين السجن الا بعد أن أجهز عبد الناصر على الاخوان ·· وخلص له حكم مصر ·

خيانة الوطن

كانت محاكمة ابراهيم فرج أمام محكمة الثورة أشبه بالكوميديا السوداء ·· أو مسرحيات العبث التى تتحرك فيها الأحداث خارج نطاق العقل والمنطق ·· !! رجل أفنى ثلاثين عاما من شبابه فى أتون الحركة الوطنية وكيلا للنيابة فمحاميا فوزيرا ـ وكان فى كل مراحل حياته طاهر اليد والقلب ـ ثم يفاجأ بتقديمه الى المحاكمة بتهمة خيانة الوطن والاتصالات بجهات أجنبية والاشتراك فى جمعية سرية لمناهضة عهد الثورة ·· !! وتخرج الصحف وهى تحمل فى صدر صفحاتها هذه التهم الجسيمة التى تطعن الرجل فى شرفه الوطنى ، وعندما يمثل أمام المحكمة يقف ممثل الادعاء فيطلب عقد الجلسة سرية « حرصا على المصلحة العامة » ·· ولأن مصلحة الأمة فوق مصلحة المواطن » ·· وتوافق المحكمة لتبدأ أبشع ممارسات عهد الثورة فى تلويث سمعة رجال الحركة الوطنية ، ودمغهم بأحط ما يمكن أن يدمغ به مواطن فى سمعته وشرفه ، وهو الخيانة الوطنية ·· ثم حرمانهم من حق الدفاع الشرعى عن أنفسهم أمام الرأى العام ·· !!

رجل يواجه حملة تشهير على أوسع نطاق ·· فى الصحف

والاذاعات والمهرجانات الشعبية ، فاذا وقف أمام المحكمة ليكشف زيف التهم المشينة الموجهة اليه تقرر المحكمة سرية الجلسة ، ويظل الرأى العام على جهل تام بما يجرى داخل القاعة المغلقة ، الى أن يحكم على الرجل ويمضى الى السجن ! ويبقى سيف التشهير والتجريح معلقا فى رقبته · ويظل الناس يلوكون التهم التى أذاعتها محكمة الثورة وكأنها حقيقة مؤكدة ·· دون أن يعرفوا خلفياتها وتفاصيلها ·· ومصداقيتها ، فاذا كان الرجل قد اتصل بجهة أجنبية ، أليس من حق الرأى العام أن يعرف اسم هذه الجهة ·· ؟ وكيف تم اتصاله بها ·· ؟ وماذا دار خلال الاتصال ·· ؟ وما هو الشق الجنائى فيها ·· ؟؟ وما هى الأضرار التى سببها لمصلحة البلاد العليا ·· ؟؟

ولكن محكمة الثورة لم تضع فى اعتبارها كل هذه التساؤلات التى تخضع لقواعد الحق والعدل والمنطق ، ومضت فى تنفيذ مخططها الذى رسم لها من أول يوم ، وهو التشهير بقادة الحركة الوطنية حتى يخلو الجو أمام البراعم الطاهرة من ضباط العهد الجديد ·· وفى الجلسة السرية الأولى سمحت المحكمة بتواجد ممثل الادعاء ومحامى المتهم ـ الدكتور محمد صلاح الدين ـ فبدأ مرافعته وهو لا يدرى شيئا عن وقائع التهم الموجهة الى موكله ·· ولم يجد أمامه من أدوات الدفاع سوى استعراض حياة ابراهيم فرج منذ كان طالبا فى مدرسة الحقوق يشارك فى المظاهرات الوطنية التى خرجت تحطم صورة الملك الطاغية أحمد فؤاد ، ولم تفارقه نزعته الوطنية المشبوبة وهو وكيل للنيابة العامة يرفض تنفيذ تعليمات الديكتاتور اسماعيل صدقى ، التى أصدرها الى رجال النيابة بعدم التعرض لرجال الادارة الذين مارسوا أعمال التعذيب مع المواطنين ، وانما مضى الى سجن المنيا ليطلق سراح المعتقلين ، ويفتح محضرا للتحقيق

مع زبانية التعذيب ، ثم ينتقل المحـــامى الى عرض موقف الوزير ابراهيم فرج من النظام الملكى ، وكيف كانت صلته بالقصر لا تتعدى حدود مسئوليته كوزير ، فلم يعرف عنه يوما انه كان على صـلة بفاروق أو بأحد رجال حاشيته ، واذا كانت هناك صلة بين ابراهيم فرج والقصر الملكى ، فلا يمكن أن تكون الا علاقة العداء المستحكم ، وتساءل الدكتور صـلاح الدين : هـل يمكن لرجل هـذا موقفه أن يتآمر على الثورة التى طردت الملك ! ثم يستعرض موقف ابراهيم فرج حين كان وزيرا للخارجية بالنيابة ، وكيف كان يتسم بالصلابة مع المفاوضين الانجليز .. ثم يتحدث عن ثروة ابراهيم فرج ، وكيف غادر الوزارة وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئا .. وينتهى المحامى من مرافعته دون أن يتعرض لتفنيد التهم الموجهة الى ابراهيم فرج ، لأنه لم يكن لديه بيان عنها .. أو ــ لو شـــئت الدقة ــ لم يكن مسموحا له بالتعرض لها .. وكل ما قاله حول الاتصـــال بدولة أجنبية أنه تساءل ــ وكأنه يضرب الودع ــ يمكن تطلع الانجليز .. ! ويمكن تطلع اليهود أما عن الادعاء الثاني وهو الاشتراك في جمعية سرية مناهضة للثورة فقال انه فهم أن هذه الجماعة هم الشيوعيون. حيث ان ابراهيم فرج المحامى قبل الدفاع عن أحد رجال اليسار الوطنى ــ وهو المرحوم يوسف حلمى ــ فى القضـــية التى رفعهـــــا أمام مجلس الدولة ... ؟؟ فهل يكون قيام المحامى بواجبه جريمـــة يحاكم من أجلها ... ؟؟

وبعد أن فرغ الدكتور محمد صلاح الدين من دفاعه ، أمرت المحكمة باخراجه من القاعة مع ممثل الادعاء ، وانفردت المحكمة بالمتهم وناقشته فيما هو منسوب اليه ، ثم أصدرت حكمها عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم تعطف مجلس الثورة بتخفيف الحكم الى السجن لمدة خمسة عشر عاما .

وتمضى الأيام .. وينكشف المستور .. ويتبين أن جريمة « خيانة الوطن والاتصال بجهات أجنبية » تتلخص فى حضـــور ابراهيم فرج زيارة المجاملة التى قام بها الزعيم الهندى جواهر لال نهرو للزعيم مصطفى النحاس يوم ١٨ يونيو ١٩٥٣ ، وكان من التقاليد التى يحرص عليها نهرو زيارة مصطفى النحاس باشا ، امتثالا لوصية والده « موتيلال نهرو » الذى كانت تربطه بالنحاس علاقات تاريخية قديمة ، وكان نهرو ــ كزعيم ليبرالى حر التفكير ــ يظن أن تغيير نظام الحكم فى مصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو لا يحول دون لقائه التقليدى بمصطفى النحاس ، فبعث من لندن ــ حيث كان يحضر مؤتمر الكومنولث ــ برقية الى سفيره فى القاهرة ، السردار بانيكار ، يطلب فيها تحديد موعد لمقابلة النحاس أثناء توقف نهرو فى القاهرة ، واتصل السفير بابراهيم فرج ، وأبلغه برغبة نهرو ، فلما نقل ابراهيم فرج الرسالة الى النحاس باشا أبدى اعتذاره حتى لا يسبب حرجا لنظام الحكم الجديد ، وقال : ليس من مصـــلحة العلاقات بين مصر والهند أن تكون هناك زيارات ، لأن النظام يعتبرنا خصومه .. ولكن نهرو أصر على اتمام الزيارة ، وقال انه اذا لم يقابل مصطفى النحاس ، فلن يتوقف فى مصر وسيسافر مبـــاشرة الى نيودلهى ، وعندئذ وافق النحاس وطلب أن تكون المقابلة فى منزله بجاردن سيتى ، وعندما وصل نهرو الى مطار القاهرة استقبله ابراهيم فرج نيابة عن النحاس باشا ورافقه حتى محل اقامته فى فندق سميراميس .

وفى الموعد المحدد للزيارة حضر نهرو وبرفقته سفير الهند ، فاستقبله النحاس باشا ومعه ابراهيم باشا فرج الذى تولى الترجمة بين الزعيمين ، ودار بينهمـــا حـــديث ودى وتاريخى حول علاقة النحاس بوالده موتيلال منذ مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ عندمـــا كان

موتيلال برفقة غاندى ، وكانا يسكنان فى فندق واحد ، فنشأت بينهما علاقة طيبة توطدت من خلال لقائهما اليومي في مؤتمر الصلح ، وكان موتيلال يبدى اعجابه بالوفد وبزعامة سعد زغلول ونجاحه في تحقيق الوحدة الوطنية بين المصريين ، وقال نهرو للنحاس « أنا أعتبرك معلما لجيلين فى الهند » ويقصد جيله وجيل والده ، وتصادف اعلان الغاء النظام الملكي وقيام النظام الجمهورى فى ذلك اليوم ، فقال النحاس باشا لنهرو : أنا سعيد جدا بأنى أعيش حتى أرى بعين رأسى اعلان الجمهورية فى مصر ، لأننا كنا دائما متهمين لدى الملك فؤاد ثم الملك فاروق بأننا غير موالين للعرش ، وأننا نسعى لاقامة الجمهورية ، والتخلص من هذه الأسرة ، فأراد الله أن أعيش لأرى أن هذه الأسرة زحزحت عن مصر وانتهى حكمها الى الأبد ، وأرجو الله أن يوفق رجال الجيش فى أن تكون جمهورية ديمقراطية .

وانتهى الاجتماع .. وقام النحاس برد الزيارة لنهرو فى مقر السفارة الهندية قبل أن يعود الى بلاده .. وبعد شهرين كان ابراهيم فرج يقف أمام محكمة الثورة بتهمة خيانة الوطن والاتصال بجهة أجنبية بهدف الاضرار بالنظام الحاضر ومصلحة البلاد العليا .. (!!)

البرلمان فى الكونتننال

فى أعقاب حل البرلمان الوفدى ـ بعد تسع ساعات من انعقاده فى ٢٣ مارس ١٩٢٥ ـ دخلت الحركة الوطنية مرحلة المواجهة السافرة مع القوى الاتوقراطية ممثلة فى القصر واذنابه الذين آلت اليهم مقاليد الحكم منذ الخلاص من حكومة سعد زغلول فى نوفمبر ١٩٢٤ ، وخضعت البلاد لموجة عاتيه من الارهاب ، والتضييق على الحريات العامة يقودها أحمد زيوار باشا ووزير داخليته المرعب اسماعيل صدقى باشا ، وكان الوفد طوال هذه الفترة يسير على سياسته القديمة فى رفض التعاون مع الاحرار الدستوريين بسبب عدائهم التقليدى للوفد ومشاركتهم فى كل المؤامرات والدسائس ضده ، وحقدهم الاسود على زعامة سعد زغلول للأمة ، فكان سعد يرفض كل المحاولات التى بذلت للمصالحة مع الأحرار ، لانعدام ثقته بهم ، وكان يقول لمن يحادثه بشأن المصالحة معهم : « لا يمكننى الاتفاق مع اشخاص تزعزعت الثقة بينى وبينهم فيما يتعلق بموضوع توكيلى ، انهم يطلبون حقوقا أقل مما تطلب الأمة ‥ ونحن متشبثون بكامل حقوقها ‥ » .

ولكن ‥ مع حلول النصف الثانى من عام ١٩٢٥ ـ عام

الرجعية والارهاب ـ وبعد طرد الوزراء الاحرار فى اعقاب ازمة كتاب (الاسلام واصول الحكم) ، أدرك الوفد خطورة استمرار الشقاق والانقسام على القضية الوطنية وعلى الحياة النيابية على السواء ، ورأى ان استمرار تعطيل الدستور ومعه الحياة البرلمانية هو فى حقيقته تعطيل للوفد عن ممارسة دوره فى حل القضية الوطنية وتحقيق آمال الجماهير المصرية فى حكومة دستورية تعبر عنه أصدق تعبير ، وبدأ الوفد يمد يده الى خصومه التقليديين ، وصادفت هذه البداية ظهور دعوة أخرى الى الائتلاف بين جميع الاحزاب لمواجهة المد الرجعى الذى يقوده القصر ، وكان رائد هذه الدعوة الصحفى المعروف أمين بك الرافعى قطب الحزب الوطنى الذى نشر فى (الأخبار) سلسلة من المقالات نبه فيها الى مخاطر السكوت عن استبداد القصر وتعطيل الحياة النيابية ، ودعا الى انعقاد البرلمان المنحل من تلقاء نفسه فى اليوم الحادى والعشرين من نوفمبر ١٩٢٥ تنفيذا للمادة ٩٦ من الدستور التى تقضى بأن « يدعو الملك البرلمان الى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر ، فاذا لم يدع الملك الى ذلك يجتمع المجلس بحكم القانون فى اليوم المذكور » .

ولاقت هذه الدعوة الجريئة صدى كبيرا عند الرأى العام ، واعلنت الاحزاب عن موافقتها على عقد الاجتماع فى اليوم المذكور، ودب الذعر فى أوصال حكومة زيوار ، فحاصرت مبنى البرلمان بقوات عسكرية مدججة بالسلاح ، وأصدرت ثلاثة بلاغات رسمية ، أحدها باسم مجلس الوزراء قالت فيه : « انها قررت ان تمنع بالقوة كل اجتماع داخل البرلمان أو فى أى مكان آخر » . والبلاغ الثانى من وزير الداخلية صدقى باشا قال فيه : « انه كلف الجيش والبوليس بمحاصرة البرلمان وأن التعليمات الصادرة الى الضباط

تقضى باطلاق الرصاص على المشاغبين والمتظاهرين والقبض على كل من يشترك فى أى اجتماع أو موكب أو مظاهرة » · أما البـــلاغ الثالث فقد اصدرته وزارة المعارف لتحذر الطلبة من مغبة الاضراب وتتوعدهم بأوخم العقوبات اذا اشتركوا فى المظاهرات ، وتنفيذا لاوامر الحكومة قام رئيس حرس البرلمان باغلاق جميع مكاتبـــه وقاعدته وسلم المفاتيح الى قائد القوة العســـكرية التى حاصرت المبنى ·· وفى مساء الجمعة ٢٠ نوفمبر انتشرت القوات المســلحة فى كل الشوارع والمنافذ المؤدية الى دار البرلمان التى باتت كالقلعة الحصينة ، ووضعت حشود اضافية فى ثكنات قصر النيل (ميدان التحرير) لتكون على أهبة الاستعداد عند اللزوم · وباتت القاهرة ليلة دهماء يشوبها القلق والتوتر فى انتظار ما يسفر عنه الغد ·

وفى صبيحة السبت ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ خرج الزعيم سعد زغلول من بيت الأمة فى طريقه الى فندق الكونتيننتال ، حيث تقرر عقد البرلمان ، وما أن رآه الضباط والجنود حتى القوا بالسلاح وانطلقوا يهتفون بحياته وحياة البرلمان ·· !! ودخل سعد القاعة الرئيسية فى الفندق فوجد النواب والشيوخ قد اكتمل عقـدهم فهبوا لتحيته ، وعلى الفور بدأت وقائع الجلسة التاريخية بينمـا كانت الهتافات الحماسية تزلزل اركان الفندق ويتردد صداها فى ميدانى العتبة وابراهيم باشا ، ومن المفارقات الطريفة ان رئيس الوزراء زيوار باشا كان يقيم فى نفس الفندق فهب من نومه مذعورا على دوى الهتافات التى كانت ترج المنطقة ، فأسرع بارتداء ملابسه وغادر الفندق دون ان يهتم به أحد ، وأصدر النواب والشـــيوخ القرارات التالية : « تنفيذا لاحكام المادة ٩٦ من الدستور اجتمع اعضاء البرلمان اليوم السبت ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ وأرادوا عقد المجلسين فى دار البرلمان فمنعتهم القوة من الوصول اليه ، وعلى ذلك

اجتمعوا اليوم فى فندق الكونتننتال وتكامل عددهم القانونى ، وبعد المناقشة فى الحالة الحاضرة قرروا بالاجماع ما يأتى :

أولا : الاحتجاج على تصرفات الوزارة المخالفة للدستور وعلى منع الأعضاء من الاجتماع فى دار البرلمان بقوة السلاح ٠

ثانيا : قرر مجلس النواب عدم الثقة بالوزارة طبقا للمادة ٦٥ من الدستور ٠

ثالثا : اعتبار دور الانعقاد موجودا قانونا واستمرار اجتماعات المجلسين فى المواعيد والامكنة التى يتفق عليها الاعضاء ٠

رابعا : نشر هذه القرارات فى جميع الصحف ٠

وبعد أن وقع جميع النواب والشيوخ على هـذه القرارات ، انسحب الشيوخ الى قاعة اخرى ، وبقى النواب فى امكنتهم برئاسة سعد زغلول الذى أعلن افتتاح جلسة مجلس النواب وطلب منهم انتخاب مكتب المجلس فانتخبوا بالاجماع سعد زغلول باشا رئيسا، ومحمد محمود باشا (قطب الاحرار الدستوريين) والدكتـور عبد الحميد سعيد بك (من الحزب الوطنى) وكيلين ، وويصا واصف وعلى الشمسى وعبد الجليل ابو سمرة وأحمد عبد الغفار سكرتيرين٠

وبينما كانت الجلسة منعقدة كانت المظاهرات قد احتشدت فى الميدان والشوارع المحيطة بالفندق وهى تهتف بحياة الدستور وتطالب باعادة الحياة النيابية واقالة الوزارة الرجعية ٠٠ وكان من بينها مظاهرة تضم تلميذات المدارس فقوبلت من الضبـاط والجنود بالتصفيق ٠٠ بدلا من الصفع والركل كما أمرت الحكومة٠

اضراب العمد

قانون الانتخاب هو عمود الديمقراطية ..

ويمكنك أن تحكم على درجة الديمقراطية فى أى بلد اذا فحصت قانون الانتخاب فيه ، وما يتضمنه من قواعد تسمح بتمثيل الشعب تمثيلا صادقا .. أو قيود تحول دون تمثيل قوى المعارضة المحرومة من الرضاء السامى .. ولا عبرة – فى جوهر الديمقراطية – بقيام مجالس نيابية ذات اسماء واشكال والوان متعددة ولكنها لا تمثل الشعب تمثيلا صحيحا .. فتكون مجرد فترينات مزركشة ، وواجهات مزيفة ، تخفى وراءها افلاسا مدمرا .

وكان قانون الانتخاب – فى المرحلة الليبرالية – مجالا للصراع بين دعاة الديمقراطية من ناحية ، وأنصار الاتوقراطية الذين يهمهم قيام مجالس شكلية لا تحمل من الديمقراطية غير اسمها ، وحول قانون الانتخاب دارت معارك ساخنة كان النصر فيها حليف الشعب لصموده واصراره على مقاومة عمليات التزييف المقنن ، فبعد حل مجلس النواب فى عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٥ عمد الملك فؤاد الى الغاء قانون الانتخاب المباشر الذى اصدرته حكومة سعد زغلول ، وعكف

على تفصيل قانون معدل يحول دون تمثيل جماهير الشعب التى يمثلها الوفد المصرى ، ويضمن قدوم نواب لا يجيدون سوى التسبيح بحمد ولى النعم والتصفيق لكل كلمة تنطق بها الحكومة .

●●●

وفى ٨ ديسمبر ١٩٢٥ استصدرت حكومة زيوار باشا مرسوما بقانون الانتخاب المعدل تمهيدا لاجراء الانتخابات الجديدة ، وضيقت فيه حق الانتخاب وخولت الادارة سلطات واسعة تمكنها من انجاح مرشحيها ، وعادت الى نظام الانتخاب على درجتين (كل ٣٠ ناخبا يختارون مندوبا عنهم لانتخاب النائب المرشح) واشترط القانون المعدل فى المندوب أن يكون من الاثرياء وكان معنى ذلك حرمان اصحاب الجلاليب الزرقاء من حق التمثيل، وأدرك الوفد خطورة هذا الاجراء على جماهيره الشعبية فحمل لواء الدعوة الى مقاطعة الانتخابات على أساس هذا القانون الرجعى ، وتضامنت الاحزاب الاخرى مع الوفد وأعلنت عن مقاطعة الانتخابات وسرت فى الأمة روح المعارضة ، ولكن حكومة زيوار مضت فى طريق الاستخفاف بالارادة الشعبية استنادا الى دعم القصر لها ووقوف جهاز السلطة فى خدمتها ، ولم يخطر على بالها ان يأتيها المطعن من عقر دارها ومن جماهير العمد الذين شاع فى الاذهان انهم اتباع كل حكومة ، فقد اعلن العمد انهم لن يشرفوا على انتخابات تجرى على أساس قانون زيوار .. !!

وكان عمد مركز تلا منوفية أول من أشعل شرارة الاضراب ، فارسلوا برقية الى وزارة الداخلية تضمنت رأيهم ، ولكن زيوار لم يكترث بهذا التهديد وكلف أحد كبار موظفى الداخلية بالسفر الى المنوفية وجمع العمد الذين وقعوا البرقية وتخييرهم بين العدول

عن الاضراب أو العزل من العمدية ، فأصر عشرة منهم على موقفهم ، فصدر قرار برفتهم وأدى هذا القرار المتعسف الى اتساع رقعـــه المعارضة بين العمد . وفي هذه الآونة ارتفع شعار شهير يقـــول (يحيا الوفد ولو فيها رفد) .. وتضامن بقيمة العمد مع زملائهم المرفوتين وأعلنوا استقالاتهم من العمدية ، وسرت شعلة الوطنيـة بين العمد في كافة انحاء البلاد فاعلن معظمهم الاضراب عن الاشراف على العملية الانتخابية ، وتحرج مركز الحكومة ، ولكنها بدلا من أن تعالج الامر بالعودة الى الحق .. قدمت عددا من العمد الى المحاكمة بتهمة الامتناع عن تنفيذ القانون .. وتركهـم عملهـم الرسمي بدون مسوغ شرعي ، وأصدر القضــــاء المصرى العادل ـ المستقل ـ أحكامه في هذه القضايا ببراءة العمد .

●●●

وكان هذا الموقف الشجاع من جانب عمد القرى والبــــلاد مشجعا للاحزاب السياسية على الائتلاف وتوحيد الصفوف لمقاومة التدابير التى ينسجها الملك وخادمه زيوار ، وانشـــئت في يناير ١٩٢٦ لجنة تنفيذية للاحزاب المؤتلفة لتنظيم جهودها . واصدرت قرارا مشتركا بمقاطعة الانتخابات ، وعقد مؤتمر وطنى يضم زعماء الامة وشيوخها ونوابها وذوى الراى والمكانة فيهـــــا . وفي يوم الجمعة ١٩ فبـراير ١٩٢٦ انعقـد المؤتمر في حديقـة منزل محمد محمود باشا بشارع الفلكى ، وتصدر الزعيم سعد زغلول المؤتمر وجلس بجانبيه عدلى يكن باشا وعبد الخالق ثروت باشا . وبلغ عدد الحاضرين ١٠٩٧ عضوا ، وألقى سعد باشا خطابا ذكر فيـــه اعتداء وزارة زيوار على الدستور وعلى الحياة النيابية ، ودعا الى توحيد الصفوف ونبذ الفرقة ، ورفض الانتخابات على أساس القانون المعدل والعودة الى قانون الانتخاب المباشر ، وبعد مناقشة واسعة

وافقت الاغلبية العظمى من الحاضرين على تأييد قرارات الاحزاب المؤتلفة ، والمطالبة بتأليف وزارة موثوق بها من الأمة للاشراف على الانتخاب في ظل قانون الانتخاب المباشر · وانتخاب لجنة للاشراف على تنفيذ هذه القرارات ·

وازاء هذا الاجتماع الشعبى المنقطع النظير ، لم يجد الملك فؤاد مفرا من الاذعان لارادة الشعب ، فقرر مجلس الوزراء ايقاف العمل بقانون الانتخاب المعدل ، والعودة الى قانون الانتخاب المباشر. واتفقت كلمة الاحزاب على أن تخوض المعركة الانتخابية فى جـــو خال من الفرقة والانقسام والمهاترات · كما اتفقت على توزيع الدوائر منعا للتناحر ، فترك للوفد ١٦٠ دائرة ، وللاحرار الدستوريين ٤٥ دائرة ، وللحزب الوطنى تسع دوائر ، ولكن نتيجة الانتخابات اسفرت عن فوز الوفد فى ١٦٥ دائرة ، وحصل الاحرار على ٢٥ مقعدا ، والحزب الوطنى على خمسة مقاعد ، والمســـتقلون ١٠ ، والاتحاديون (حزب الملك فؤاد) خمسة مقاعد فقط ·

وانتصرت ارادة الشعب ··

وسقطت ارادة الملك ··

الأيام السود

سيدخل يوم ٢٦ فبراير ١٩٨٦ تاريخ مصر الحديث من أضيق أبوابه : باب التدمير والتخريب وسفك الدماء .. ليصبح ثالث الأيام السوداء التى شهدتها مصر خلال ثلث قرن ، وخضبت شوارعها بالدماء ، وشوهت وجهها بآثار الدمار ، ولوثت سماءها الصافية بالدخان الأسود .

فى اليوم الأول - ٢٦ يناير ١٩٥٢ - احترق قلب القاهرة فى الوقت الذى بلغت فيه الحركة الوطنية ذراها بعد الغاء معاهدة ١٩٣٦ واشتعال جذوة الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال البريطانى فى قناة السويس ، ومع اخماد الحرائق فى نهاية اليوم العصيب، انطفأت جذوة النضال الوطنى ، واقيلت حكومة الوفد ، ودخلت البلاد مرحلة البيات والانكفاء على الجراح ، واستمرت المرحلة ستة شهور بالتمام ، انتهت بقيام حركة الجيش فى ٢٣ يوليو .

وفى اليوم الثانى - ١٨ يناير ١٩٧٧ - خرجت جماهير القاهرة للتعبير عن سخطها على القرارات الفجائية التى اصدرتها حكومة ممدوح سالم برفع اسعار السلع الأساسية ، وتحول السخط الى تدمير واحراق وتخريب ، اتسعت رقعته فى اليوم

التنقل الى خارج العاصمة . وكانت حصيلة الاحداث الدامية ٧٩ قتيلا و ٢١٤ جريحاً .

وفى اليوم الثالث - ٢٦ فبراير ١٩٨٦ - تمردت قوات الأمن المركزى على أربابها . وخلعت قيود الضبط والربط وتحولت الى عصابات للقتل والتدمير ، ولأول مرة فى التاريخ ينقلب حراس الأمن الى أدوات للاخلال بالأمن واشاعة الفوضى ، واشعال الحرائق وتخريب المنشآت السياحية ، وبلغت حصيلة اليوم الدامى ٣٦ قتيلا وأكثر من ٣٠٠ جريح .

ومع اختلاف الدوافع والظروف بين الأيام الثلاثة ، الا أن هناك أوجها للتشابه والتمايز بين كل منها :

●● فى اليوم الأول - ٢٦ يناير - واليوم الثالث ٢٦ فبراير - لعبت قوات « الأمن » دورا اساسيا فى تحريك الاحداث مع اختلاف النتائج ، أما فى اليوم الثانى - ١٨ يناير - فقد كانت الجماهير - وخاصة الفئات الشعبية - هى المتحرك الوحيد على المسرح .

●● فى اليوم الأول : انحصرت الأحداث فى نطاق مدينة القاهرة - وقلبها بالذات - واليوم الثانى انطلقت احداثه من القاهرة ، ولكنها انتشرت الى مدن أخرى فى اليوم التالى ، وفى الأحداث الأخيرة وقعت الأحداث - فى وقت واحد - داخل المعسكرات الواقعة فى نطاق القاهرة الكبرى وبعض مدن الصعيد - أسيوط وسوهاج .

●● فى أحداث الأيام الثلاثة لعبت القوات المسلحة الدور الفعال فى احماد الفتنة وانهاء الاضطرابات وفرض حظر التجول .

●● بدأت أحداث اليومين الأولين - الأول والثانى -

بمظاهرات غاضبة سرعان ما تحولت الى عمليات للسلب والنهب والتدمير ، أما أحداث اليوم الثالث فقد بدأت منذ اللحظة الأولى بأعمال التخريب .

●● في اليومين الأول والثاني شاركت جماعات من الرعاع واللصوص والبلطجية فى أعمال السلب والنهب ، أما فى اليوم الثالث فقد اقتصرت هذه الأعمال على المتمردين من جنود الأمن المركزى .

●●●

ومع أهمية البحث فى أوجه التشابه ، والتمايز بين الأحداث الثلاثة ، الا أن الأهم من ذلك فى دوافع كل منها ، بهدف استخلاص العبر ، والاستفادة من الدروس :

لقد بدأت احداث يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ بمظاهرة سلمية قام بها جنود بلوكات النظام تضامنا مع زملائهم الذين قتل الانجليز خمسين منهم فى مذبحة الاسماعيلية فى اليوم السابق ، وخرجت المظاهرة فى الصباح الباكر من يوم السبت ٢٦ يناير من ثكناتها بالعباسية وهى تضم عددا يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جندى حاملين اسلحتهم قاصدين الجيزة حيث يعسكر ٥٠٠ من زملاءهم فاتجهوا الى جامعة القاهرة حيث اختلطوا مع الطلبة فى مؤتمر وطنى ، وبعد تبادل الخطب والهتافات الحماسية خرج الطلبة ومعهم جنود بلوكات النظام فى مظاهرة الى مقر مجلس الوزراء بشارع قصر العينى فبلغته الساعة ١١٫٣٠ ، ولما كان رئيس الوزراء ـ النحاس باشا ـ ملازما الفراش بسبب وعكة صحية ، فقد خرج اليهم وزير الشئون الاجتماعية ـ عبد الفتاح حسن باشا ـ وارتجل فيهم خطبة حماسية أختتمها بقوله : « صدورنا قبل صدوركم ورقابنا قبل

رقابكم » واستمر الحوار بين المتظاهرين والوزير حتى الساعه ٣ر٤٥ انصرف بعدها الجنود الى ثكناتهم ، وفى هذه الاثناء شهد ميدان ابراهيم باشا أول حوادث الحريق فى الساعة ١٢ر٣٠ عندما تقدمت مجموعة صغيرة من الرجال الى الطابق الثانى من كازينو أوبرا واشعلت فيه الحريق ، والقت بالمقاعد والموائد المحترقة الى ساحة الميدان بينما وقف الناس يتفرجون ، وبعد نصف ساعة اندلعت النيران الى دار سينما ريفولى ·· وبعدها سينما راديو ·· وحتى الساعة التاسعة والنصف كانت النار قد أتت على ٧٠٠ من المحلات التجارية ودور السينما والملاهى والنوادى الأجنبية ·· وكانت عمليات التدمير تجرى بطريقة واحدة ومتشابهة عن طريق مجموعة من الرجال فى زى العمال وهم يحملون البلط والأجنات والجرادل وصفائح البنزين والجاز وكرات القماش ، فكانوا يتقدمون الى المحلات المغلقة ويكسرون أبوابها ، ويخرجون بعض محتوياتها ويشعلونها فى عرض الطريق ، ثم ينثرون المواد الملتهبة فى داخل المحل فيتحول الى كتلة من اللهب ، واثناء ذلك كانت تتحرك فى منطقة الأحداث سيارات جيب ولوريات تحمل صفائح البنزين وتسلمها للجماعات المكلفة بالاحراق ، وتصدر اليهم تعليمات بالأمكنة ، وتدفع لهم نقودا ، ثم يقومون بتخريب سيارات الاطفاء عندما حاولت القيام بمهماتها مما يقطع بأنها عمليات مدبرة باحكام (المصدر : كتاب حريق القاهرة تاليف جمال الشرقاوى) ·

* * *

أما أحداث ١٨ يناير ١٩٧٧ فقد اندلعت عندما قرأ الناس صحف الصباح فاكتشفوا ان الحكومة رفعت الدعم عن بعض السلع الغذائية ، فى نفس الوقت الذى تبخرت فيه آمال الرخاء التى روج لها الرئيس الراحل أنور السادات مع بداية مرحلة الانفتاح

الاقتصادى ، وشعرت الجماهير بالاحباط الشديد فخرجت المظاهرات من المصانع المحيطة بالقاهرة ، ثم تقدمت نحو قلب المدينة قاصدة مجلس الشعب لابلاغ صوتها الى نواب حـــزب مصر العـــربى الاشتراكى (حزب الحكومة) ولكن قوات الأمن المركزى تصدت للمظاهرات، وتحول الصدام الى هرج ومرج، فانطلقت الأيدى العابثة تحطم واجهات المحلات ، وتنهب ما فيها من سلع ومحتويات .. وفى اليوم التالى ازدادت حدة التجمهر والتخريب حتى أمر الرئيس السادات بانزال القوات المسلحة الى الشـــوارع وفرض حظـر التجول .

وقد حاول الرئيس السادات تعليق مسئولية هذه الأحداث فى رقبة حزب التجمع وبعض الجماعات الشيوعية المحظورة بحجة أنها تريد الانتقام منه لأنه أطاح بمراكز القوى يوم ١٥ مايو ١٩٧١ وقال ممدوح سالم فى بيانه امام مجلس الشعب ان ما تكشـــف مما تم ضبطه من النشرات الصادرة عن بعض التنظيمات السرية الشيوعية يشير الى أن عناصر التآمر قد رتبت نفسها سلفا لتنفيذ مخططها فى أية فرصة مناســـبة ، ولم تكن قرارات الاصـــلاح الاقتصادى - يقصد قرارات زيادة الاسعار - الا نقطة الصفر التى حددوها موعدا للقيام بمحاولة تستهدف ضرب ثورة ١٥ مايو .. وقال ان هذا المخطط الاجرامى المشبوه يهدف الى ارجاع عجـــلة التاريخ الى الوراء وانهاء ثورة ١٥ مايو المجيدة ، وأطلق الرئيس السادات على أحداث ذلك اليوم وصف « انتفاضة الحرامية » ردا على عملية التمجيد التى خلعها اقطاب اليسار على أحداث ١٨ و ١٩ يناير ، وقالوا ان ما حدث لم يكن امرا عابرا فى تاريخ الشعب المصرى ، ولكنه انتفاضة شعبية لها دوافعها التى لا تزال قائمة وتحمل عوامل تكرارها شكلا وموضوعا ، وكان آخرها ما وقع فى

كفر الدوار يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٨٤ (راجع كتاب حسين عبد الرازق حول هذه الأحداث ١٩٨٤) .

وقدمت النيابة ١٧٦ متهما الى المحاكمة أمام محكمة أمن الدولة العليا ، انتهت بالحكم على عدد قليل منهم بأحكام بسيطة . وصححت المحكمة فى حيثيات حكمها بعض الدعاوى التى اشاعها السادات حول الاعداد المسبق من جانب الجماعات اليسارية ، فقالت المحكمة : ان ما تؤمن به المحكمة ويطمئن اليه ضميرها ووجدانها ان تلك الأحداث الجسام التى وقعت يومى ١٨ و ١٩ يناير كان سببها المباشر والوحيد هو اصدار القرارات الاقتصادية برفع الأسعار ، ولا يمكن فى مجال العقل والمنطق ان ترد تلك الأحداث الى سبب آخر غير تلك القرارات ، فلقد صدرت على حين غرة ، وعلى غير توقع من احد وفوجىء بها الناس جميعا ، بمن فيهم رجال الأمن ، فكيف يمكن فى حكم العقل ان يستطيع احد ان يتنبأ بها ثم يضع خطة لاستغلالها ثم ينزل الى الشارع للناس محرضا ومهيجا !! ان فردا مهما بلغ من قوة ودراية وتنظيم ، ومهما كانت سرعته ودقة تخطيطه لا يستطيع ان يحرك هذه الجموع الحاشدة فى لحظات ، ثم هو لا يستطيع ان يدفعها لتقوم بأعمال الحرق والتخريب والنهب والاتلاف ، ذلك ان مثل هذه الأعمال الشريرة لابد ان يقع الكثير منها بحكم اندساس اللصوص والمنحرفين ليمارسوا نشاطاتهم فى ذلك الخضم الهائج آمنين مطمئنين الى أنه لن يمسك بهم احد ..

وجاءت حيثيات الحكم صفعة للسلطات التى تعجز عن حل مشاكل الجماهير المستعصية فتلجأ الى تلفيق التهم الى خصومها ، واتهامهم بالاثارة والتحريض ، مع ان الجماهير ليست فى حاجة الى اثارة أو تحريض ، لأن المعاناة اليومية - فى حد ذاتها - أكبر مشجع على الاثارة والتحريض .

وهى نفس الغلطة التى توشك الحكومة الحالية ان تقع فيها اذا سلمت بالدعاوى الباطلة التى تطلقهـــا بعض الاقلام لتحميل المعارضة مسئولية (شحن) جنود الأمن المركزى ، وهى محاولة فجة للتهرب من مسئولية الحل الجذرى للمشاكل المتراكمة ٠٠ والبحث عن الحل الاســـهل ، وهو تعليق المسئوليـة فى رقبـة المعارضة ٠

لقد فعلها أرباب النظام عندما عجزوا عن تفسير دوافع الهبة الشعبية يومى ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، ثم جاء القضاء ليصحح المفاهيم الخاطئة وراء تمرد جنود الأمن المركزى ، قبل الصاق التهم بالمعارضة ، وتبحث الظروف الاجتماعية لهذه الشريحة الساكنـة فى قاع المجتمع ٠٠ ولكنها انتفضت فى اللحظة التى لم نتوقع لها ان تنتفض فيها ٠

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر
اعداد رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
علية عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس

١٠ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية

محمود فـوزى

١١ـ مائة شخصية مصرية وشخصية

شكرى القاضى

١٢ـ هدى شعراوى وعصر التنوير

د. نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان

د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاه

د . سيدة اسماعيل الكاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى

د. على حسن الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر

د. حلمى أحمد شلبى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى

د محمد نصر فرحات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية

د. على السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين

د. أحمد محمود صابون

العدد القادم

التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٥٣٢ / ١٩٨٨

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٩٦٢ ـ ٨

على الرغم من اعتقادى بأن التاريخ لايكتبه إلا مؤرخون أكاد يميون ، درسوا منهج البحث العلمى التاريخى ، وتعلموا التاريخ وفقا لمنهج علمى متخصص فى أقسام التاريخ بكليات الآداب بالجامعات - إلا أن النصف الأخير من القرن العشرين قد أبرز إلى عالم الدراسات التاريخية نخبة من الكتاب والمفكرين ، الذين لم يتخرجوا من أقسام التاريخ ، ولكنهم أثبتوا قدرتهم على الكتابة التاريخية المتعمقة ، بأسلوب شيق لا يتوفر لكثير من المؤرخين الأكاديميين .

ومن بين هؤلاء الكتاب المؤرخين (جمال بدوى) ، مؤلف هذا الكتاب ، فهو صحفى وكاتب ومفكر ذو رؤية تاريخية سواء فى التاريخ المصرى أو التاريخ الإسلامى ، وقد سبق له أن قدم دراسة تاريخية هامه عن « الفتنة الطائفية فى مصر » ، كما أنه يقدم أسبوعيا على صفحات جريدة« الوفد » - وهو مدير تحريرها - رؤية تاريخية لحدث من الأحداث على اتساع مساحة تاريخ مصر والتاريخ الإسلامى ، وهى رؤية تشد اهتمام القراء لما فيها من فلسفه وفكر وتأمل ، فضلا عما تكشفه من جوانب هامة قد لا تستطيع عين المؤرخ تبين أهميتها فى تكوين الضمير القومى ، ولكن عين المفكر وحده هى التى تدرك هذه الأهمية ، وتستطيع توظيفها فى تكوين الشخصية القومية أوالوطنية .

ومن المحقق أن القارىء سوف يستمتع برؤية جمال بدوى التاريخية ، وسوف يجوب معه تاريخ مصر من أقصاه إلى أدناه ، وسوف يشعر بتلك المتعة الفكرية التى توفرها تلك السياحة الواسعة الشيقة التى قام بها فى أرجاء تاريخ مصر .